قبسات من الثقافة الإسلامية

للدكتور
محمود محمد رسلان
الأستاذ المساعد فى كلية أصول الدين - جامعة الأزهر
والأستاذ المشارك فى جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الشريعة فرع الجنوب

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبى الإنسانية، ومعلم البشرية وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد.

فإن النور الذى اشتعلت منه الحضارة مرة ثانية لم يشرق من بصوة [١] الثقافة اليونانية الرومانية التى دَعِرت [٢] بين خراب أوربا، ولا من الحى الميت على الباسفور، هو لم يظهر لا من الشمال، ولا من المهاجمين على الامبراطورية من الجنوب، بل بزغ من العرب[٣].

وهذا يدل على بدء دور الثقافة الإسلامية من جديد، إن الشعوب السابقة التى حملت لواء الإسلام كانت مثل أوروبا تحت حب العقيدة الدينية فباسم تلك العقيدة قاموا من خيامهم فى الصحراء، وفى مدة وجيزة وبكيفية غريبة دوّخوا العالم، وأسسوا امبراطورية كانت أوسع من الامبراطورية الرومانية، لأنها امتدت من كاشغر والبنجاب إلى البحر الإطلانطيق وجنوب فرنسا . إن دور الثقافة الإسلامية بدا وضاح الجبين، فالعصر الحاضر هو عصر الاتجاه إلى حضارة الشرق، والإسلام بصورة خاصة لم يتجه إلى الغرب إلا وهو غنى بالقيم الروحية الحضارية الذى يفتقر إليها الغرب.

إن نهضة الأمم تؤثر فيها الثقافة، كما تؤثر فيها السياسة والاقتصاد والتشريع والتربية وغيرها.

(١) البصوة: الجمرة. راجع المعجم الوسيط مادة: بصو.

(٢) دعر العود: دخن ولم يتقد. المعجم الوسيط مادة: دعر.

(٣) أثر الثقافة الإسلامية فى تكوين الإنسانية ص ٨٤، ١٨٥.

ومهما يكن الاختلاف في تحديد جوهر هذا الموضوع، فأحسب أنه لا يخالف أحد في أهمية دور الثقافة فيها، وخصوصا الجانب الفكري والأدبي والفني منها. وذلك لما لها من تأثير في الأخلاق والسلوك، ومن تأثير في السياسة والحكم، وتأثير في توجهات الشعوب إلى التقدم أو التخلف إى العلم والعمل، أو إلى الكلام والجدل.

فلو صحت ثقافة أمة واستقامة وتكاملت وتوازنت وسلمت من عوامل التشوية والتحريف، كما هو الأصل في الثقافة الإسلامية لكان لها أثرها البالغ في صحة توجه الأمة واستقامتها وتكاملها وتوازنها.

وإذا حدث العكس كانت النتيجة عكسية كذلك، لأن الثمرة من جنس الشجرة [1] وصدق الله العظيم القائل: «والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا» [2] .

إن ظهور دور الثقافة الإسلامية ضروري لحاجة البشرية الملحة إليها، ليستقيم تفكيرها، ويعتدل سيرها.

فمن المحتمل جدا أنه لو لم يكن العرب لما ظهرت الحضارة الأوربية الحديثة أبدا، ولكنه مؤكد حتما أنه لولاهم لما اتصفت أوروبا بتلك الصفة التي مكنتها من التفوق على جميع الأدوار السابقة من الارتقاء [3] .

لقد اعتمدت الثقافة الإسلامية على الجانب العقدي، والأخلاقي بالإضافة إلى الجانب العلمي، في تأصيلها لأنه الدور الذي سترتقي إليه البشرية في مستقبل حياتها، وهذا مما يدل على مكانتها الصادقة، وأنها لا تناصب العلم العداء، كما سترى هذا

---

(١) راجع الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة ، د. يوسف القرضاوي ص ١٦.

(٢) الأعراف: ٥٨.

(٣) أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الانسانية ص ١١٣.

واضحاً فى ثنايا البحث، ومن ثم فهى تنظر إلى العلم والعلماء نظرة إجلال وإكبار فإن العلماء ورثة الأنبياء، ومن ثم فقد وضع الإسلام قيادته فى أيدى علمائه لهذه الصفة، وفرض عليهم العمل بما يعلمون من أخلاق الاسلام، ومبادئه وقواعده وأحكامه، وهذا البيت معروف لدى علماء الشريعة وتلاميذهم:

وعالم بعلمه لم يعملن ... معذب من قبل عابد الوثن

لأن العلم الذى لا يُعمل به معتبر فى الإسلام علما لا ينفع، وكان رسول ﷺ يستعيذ من مثل هذا العلم كما يستعيذ من الشيطان فيقول:

«أعوذ بالله من علم لا ينفع» (١) .

ولما كانت رسالة المعلم عظيمة النفع كثيرة الفائدة - لأنها بالدرجة الأولى ثقافية- فإن الإسلام حتم عليه أن يقوم على تقويم خلق طلابه وتلاميذه، وتهذيب نفوسهم وتعليمهم الشعائر الإسلامية، والآداب الإنسانية، والثقافة لا تخرج عن هذه الشعائر والآداب، وهذا كله مما يدخل فى باب العمل بالعلم، لأنه لا معنى للعمل بأن الصدق من شعب الإيمان الإسلامى، وأن الكاذبين ملعونون فى القرآن، إذا لم يكن العمل بذلك مسايرا للعلم به فى جميع خطوات الحياة (٢) .

وحينما تعتمد الثقافة على الدين الإسلامى فلابد من نظرة تحليلية للدين:

إذا «.. ليس الدين هو الإيمان فقط، أو الإسلام فقط، أو الإحسان فقط والاستقامة والصلاح فحسب، وإنما هو كل ذلك مجتمعا.

فالشخص الذى يعتنق الإسلام ينبغى أن يكون مؤمنا، ومسلما، ومستقيما،

(١) مسلم كتاب الذكر : ٤ / ٢٠٨٨ .

(٢) انظر للإستاذ محب الدين الخطيب: منهج الثقافة الإسلامية ص ٤ ط الأولى ١٤٩٥ هـ ط السلفية. الروضة القاهرة.

ومحسنا وصالحا ..، فلا يضع مبادىء الدين فى ناحية، وأداء المسلم لها فى ناحية أخرى، ولكنه مزج بينهما، ونظر الى سلوك المسلم فى دينه وربط الإيمان بالإسلام فلم يفصل بينهما » [1] .

فمما سبق ينبغى أن «نجعل من الدين وحدة متماسكة البناء يجرى مع روح الإسلام الواقعى. فالإيمان والإسلام جملة لشىء واحد.

الإحسان روحه، والاستقامة عصبه ، والصلاح صفته » [2] .

« فمتى سلم العبد من الخطايا فهو من الصالحين، وما زاد بعد ذلك من طاعة ربه زاد خيرا» [3] .

وتدريس مادة الثقافة الإسلامية اليوم أو نشرها، إنما هى محاولة لرد الاعتبار لقيم دين الأسلام، التى يحاول بعض المغرضين بث الشبه والشكوك فى صلاحيتها للعصر، بقصد توهين شأنها فى نفوس المسلمين.

ومحاولة السير بالمبادىء الإسلامية كثيرة، ومتعددة، لا تقف عند حصر، باعتبار أن الإسلام هو الحياة كلها، وأن نظامه شامل لكل جوانبها ونواحيها [4] .

لقد كان الغرض الذى من أجله جاءت الأديان إنما هو لإقامة الحق والعدل، ومنع عدوان الناس بعضهم على بعض، وهذا هو مفهوم العدالة الاجتماعية فى الإسلام، ولقد أعطت سورة الحجرات الصورة المثلى للمجتمع المنشود ، كما وردت ايات مبثوثة فى القرآن الكريم تحث على العدل وتبغض الظلم.

---

(١) أبو الحسن القابسى على بن محمد بن خلف المعافرى القيراونى: شذرات الذهب. نقلا عن خصائص النبوة د. كمال محمد عيسى ص ٣٣ دار الشروق جدة ط الأولى ١٤٠٢ هـ

(٢) خصائص مدرسة النبوة ص ٣٤.

(٣) د. أحمد فؤاد الأهوانى: التربية فى الإسلام ص ٩٠ ط دار المعارف مصر.

(٤) انظر أضواء على النظم والثقافة الإسلامية ص ٢٠.

«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»(1).

«يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون(2) .

إن الدولة الإسلامية تكون مجتمعا يسوده الصدق، والأمانة، والوفاء، والعدل، لقد أرسى الإسلام قواعد ضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم بين الناس بعضهم ببعض، وإظهار ما يجوز لكل منهما، وما لا يجوز، وركز على التربية الخلقية، وإقامة الرقابة الداخلية « الوازع الدينى»، أو رقابة الضمير الإنسانى» ليكون بديلا عن رقابة الدولة بشرطتها، وقوانينها البشرية (3) .

سبب كتابة هذا البحث أو متى بدأ تبلور علم الثقافة كعلم إسلامى مستقل؟

لم يظهر هذا العلم ولم ينل درجة الأهمية إلا عقب الهجمة الثقافية على العالم الإسلامى من جانب حركات التنصير، والاستشراق، والتغريب التى أنشأها الاستعمار عندما فشل فى الميادين الحربية مع المسلمين، ومن ثم فقد رعاها، وغذاها، ومولها.

أى أن هناك حركة تغيير ثقافى مضاد لثقافتنا الإسلامية تريد أن تحل محلها، هى التى أملت إنشاء هذا العمل المستقل لهذه المادة الثقافية.

كما أن قلة المعروض منها فى الكتابات دفعنى لأن أدلى بدلوى فى هذا المجال ، حتى لا ينسى الناس وخاصة طلاب العلم أن للإسلام ثقافة ينبغى التعرض عليها ومعرفتها .

---

(1) الحديد: (25).

(2) الحجرات : 11.

(3) راجع أضواء على النظم الثقافة الإسلامية ص 24.

وقد تتضاعفت أهمية هذا العلم بسبب تضاعف التحديات الثقافية الأجنبية، واستماتة كل ثقافة في ميدان غزو الثقافات الأخرى. مستخدمة كل الوسائل الممكنة التي أتاحها العلم الحديث (١) .

والهدف المنشود من هذه الثقافة :

هو استعادة الوجه الإسلامي بملامحه المشرقة لهذه الأمة، ومحو كل دخيل أجنبي عنه. وبذلك تحتفظ الأمة الإسلامية بشخصيتها المتميزة، تلك الشخصية التي يستحيل بدونها أن تصبح أمة واحدة، وأن تدفع عن أنفسنا غائلة الاستعمار والاستغلال والسيطرة الفكرية الأجنبية (٢) . « فالثقافة الإسلامية شاملة لكل حقول النشاط الفكري والواقعي والإنساني ، وفيها من القواعد والمناهج والخصائص مايكفل نمو هذا النشاط وحيويته دائماً » (٣) .

قول الباحثين في تاريخ التنصير وأساليبه :

ومن المبشرين نفر يشتغلون بالآداب العربية، والعلوم الاسلامية، أو يستخدمون غيرهم في سبيل ذلك، إلى أن يوازنوا بين : الآداب العربية، والاداب الأجنبية، أو بين العلوم الإسلامية والعلوم الغربية ليخرجوا دائما – من هذه الموازنة – بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية الإسلامية، وبالتالي إلى إبراز نواحي النشاط الثقافي في الغرب وتفضيلها على أمثالها في تاريخ العرب والإسلام.

وما غايتهم من ذلك الا خلق تخاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس الشرقيين، وحملهم من هذه الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية (٤). ومن ثم فإن التخذل الروحي، والشعور بالنقص، والخضوع للمدنية الغربية كل ذلك من الشروط الضرورية لإحداث عملية التغيير الثقافي أو الإحلال الثقافي، فلابد من المواجهة

---

(١) الإسلام والتغيير الثقافي ص ٢٤ محاضرة القاها د/ إحمد أحمد عبد الرحمن إبراهيم.

(٢) نفس المحاضرة ص٢٢.

(٣) محمد المبارك : نظام الإسلام : العقيدة والعبادة ص ٢٨ .

(٤) التبشير والاستعمار ص ٢٤ – ٢٥.

بتعرية دور الثقافات الأجنبية، وأن الهدف منها تخاذل الروح الدينى فى نفوس المسلمين الشرقيين خاصة.

منهجى فى هذا البحث قائم على :

أ - جمع شتات النصوص، والربط بينها وترتيبها وتنسيقها.

ب - شرح ما يحتاج إلى شرح أو بيان، والرد على ما ينبغى الرد عليه.

جـ توضيح أهم أهداف هذا البحث، وهو التصدى للثقافات الأجنبية التى تحاول التوهين من الإسلام ولغته وأهدافه.

د - الاعتماد على نصوص الكتاب والسنة مع التخريج والشرح.

هـ الاهتمام والتركيز على ما قاله أرباب العلم والأدب والتفسير والسنة.. وغيرهم

و - توخيت فى أسلوب البحث السهولة واليسر، ونحيت التعقيدات اللفظية جانبا حتى يستفيد منه القارىء ويفيد.

ز - بذلت الجهد ليخرج هذا البحث متكاملا فى صورة طيبة وصادقة عن ثقافة الإسلام التى يجب العناية بها لتأخذ مكانتها المناسبة ، وانتقيت له عنوانا قبسات من الثقافة الاسلامية :

وكلمة قبسات مفرد قبس تقول : قبس منه النارس يقبسها قبساً أخذ شعلة فهو قابس .

وقبس النار : أوقدها ، وقبس العلم تعلمه .

وقبس فلانا علما : علمه إياه.

وأقبسه نارا : طلبها له ، واقتبس من النور : اتخذ ضوءاً ، وأقتبس العلم .

ومن العلم استفادة ، واقتبس الشاعر أو الناثر : ضمن كلامه آية من القرآن الكريم ، أو عبارة من الحديث الشريف ، أو قاعدة من بعض العلوم .

والقِبْس : الأصل : يقال : هو كريم القِبْس .

والقِبْس ،، والقَبَس : شعلة نار تؤخذ من معظم النار .

والقوابس الذين يقبسون الناس الخير أى يعلمونهم إياه.

وكل ما أرجوه وأتمناه أن تكون هذه القبسات دليل خير ، وصراط هداية ورشاد.

انظر دائرة معارف القرن العشرين ، محمد فريد وجدى رحمه الله تعالى المجلد السابع ص ٦٠٩ ، ٦١٠. ط دار المعارف بيروت ط الثالثة : ١٩٧١

والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه الكريم.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

دكتور/ **محمود محمد رسلان**
الأستاذ المساعد فى
كلية أصول الدين جامعة الأزهر
الأستاذ المشارك فى جامعة الإمام محمد
ابن سعود الإسلامية كلية الشريعة وأصول الدين
فرع الجنوب.

القاهرة ٧ من ربيع الآخر ١٤١٥ هـ

المطرية فى ١٣ من سبتمبر ١٩٩٤ م

تعريف الثقافة

للثقافة تعريفان :

أحدهما في اللغة وأخراهما في الاصطلاح .

أما في اللغة ، فلها عدة معان .

منها :

تقول : ثقف يَثْقَفُ ثَقْفاً بالفتح على غير قياس .

وثَقَفاً محركة : صار صادقا خفيفاً فطنا فَهْماً ، فهو ثَقْفٌ . وثَقِفٌ ، وثَقُفٌ أي: حَذَق .

ثَقُفَ يَثْقُفُ ثَقَافة فهو ثَقْفٌ ، وثَقِيفٌ إذا ثَقِفَ . والخل صار حامضاً جداً وحاذقا .

وثَقِفَهُ ثَقْفاً ظفر به ، وقيل صادفه ، وقيل : أدركه ، وفي موضع كذا أخذه ، والشيء تعلمه سريعا .

وإستعمالها في الإدراك والأخذ والظفر كما في قوله سبحانه :

« ملعونين أينما ثُقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » (1)

« فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم » (2) .

« واقتلوهم حيث ثقفتموهم » . (3).

---

(1) الحزاب : ٦١ .

(2) الأنفال : ٥٧ .

(3) البقرة : ١٩١ .

وثَقَفَهُ يَثْقُفُه ثَقْفاً غلبه في الفطانة والحذق وإدراك الشئ وفعله . وثقف الرمح تثقيفاً سواه وقَوَّمه ، ومنه رمح مثقف أي مقوّم مسوّى ، وقد ترد الكلمة « ثقفَ » في الاستعمال المجازي بمعنى التأديب والتهذيب فيقال : « لولا تثقيفك ، وتوقيفك ماكنت شيئاً ، والولد هذبه وأدبه ، ثاقفة مثاقفة : غالبه في الثقافة ، فثقفه أي غلبه فيها وجالده، وخاصمه .

وتثقف الرجل تهذب يقال : « هل تثقفت إلا على يدك ؟ » .

وتثاقفوا إذا تجالدوا أو تخاصموا ، أو تغالبوا في الثقافة .

والثِقاف بالكسر : الجلاد والخصام ، وحديدة تكون مع القواس والرماح يقوم بها الشئ المعوج (١) .

وثَقِف .. ثقفاً وَ ثقافة وثقوفة : الكلام حذِقه ، وفهمه بسرعة .

وتقول : ثَقَفَ : ثقفاً : غلبه في الحذق ، وبالرمح طعنه ، وثاقفه أي غالبه فغلبه (لاعبه بالسلاح وهي محاولة إصابة الغرة في المسابقة ونحوها خاصمه) .

تثاقفا : تغالبا في الحذق تخاصما .

والثُقاف من النساء الفطنة .

والثِقَاف : الخصام . والثقيف : الحاذق جدا.

وتقول : ثَقَفَ الولد فتثقف : هذبه وعلمه فتهذب وتعلم فهو مثقف وهي مثقفة ، وهذا مستعار من ثَقَفَ الرمح .

والثقافة : التمكن من العلوم ، والفنون والآداب .

---

(١) فاكهة البستان : معجم لغوي مختصر من البستان : للشيخ عبد الله البستاني اللبناني . مادة ثقف . ط: الأمير كانية . بيروت : ١٩٣٠ م .

والمثقف : الرجل ذو ثقافة .

والثقيف : المتناهى فى الحموضة ، يقال : خل ثقيف [1] .

وتقول : ثَقِفْتَه ثَقْفاً أى : صادفته .

وثَقِفَ أيضاً ثَقَفاً : لغة فى ثَقُفَ أى صار حاذقا فطنا ، فهو ثَقْفٌ وثَقَفٌ .

قال ابن الأعرابى خَلٌّ ثِقِّيف بالتشديد أى : حامض جداً مثال قولك : بصل حِرِّيف .

والثقافة : كل مافيه أستنارة للذهن ، وتهذيب للذوق وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد ، أو فى المجتمع ، وفرق بينها وبين الحضارة على أساس أن الثقافة طابع فردى ، وتَنْصَبُّ بخاصة على الجوانب الروحية .

فى حين أن الحضارة ذات طابع اجتماعى ومادى غير أن الاستعمال المعاصر يكاد يسوى بين المصطلحين [2] .

الخلاصة

جاء فى المصباح : ثقف الشئ ثقفا من باب تعب أخذته ، وثقفت الرجل فى الحرب أدركته ، وثقفته ، ظفرت به . وثقفت الحديث فهمته بسرعة والفاعل ثقيف .

وفى النهاية : ثقف فى حديث الهجرة ، وهو غلام لقن ثقف أى ذو فطنة وذكاء ، ورجل ثقف ، وثقُف ، والمراد به أنه ثابت المعرفة ، بما يحتاج إليه .

وفى حديث السيدة عائشة توصف أباها رضى الله عنه ، وأقام أوده بِثِقافِهِ ، والثقاف ماتقوم به الرماح تريد أنه سوى عوج المسلمين .

(١) المنجد فى اللغة والأعلام . مادة : ثقف . دار المشرق بيروت : المكتبة الشرقية . بيروت لبنان ط . الثلاثون ١٩٦٠ المطبعة : الكاثوليكية .

(٢) الصحاح فى اللغة والعلوم . معجم وسيط . الجوهرى : مادة ثقف ص١٢٢ ط. الأولى ١٩٧٥.

وفي مفردات الراغب الأصفهاني : الثقف الحذق في إدراك الشيء وفعله ، ومنه استعير المثاقفة ، ورمح مثقف أي مقوم ، ومايثقف به الثقاف ، ويقال : ثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر .

فعلى هذا تكون الثقافة الإسلامية هي تلك العلوم والمعارف التي تحلت بها الأمة الإسلامية بعد تلك الحالة التي كانت عليها الأمة العربية في عهد الجاهلية بسبب بعثة النبي ﷺ ، وتلك الأعمال التي قام بها هو والصحابة الكرام ، والتابعون لهم بإحسان ومن أتى من بعدهم ، واقتفى أثرهم على ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقوموا معوج الأمور ، وأناروا السبل(١) .

تعريف الثقافة في الإصطلاح :

هي مجموعة العلوم ، والفنون والمعارف النظرية ، والعملية التي تؤلف الفكر الشامل للإنسان ، فتؤدي به إلى الرقي ، والتقدم ، والوعي .

وينطوي تحت هذا التعريف كل عناصر الفكر ، ومختلف التصورات التي تشتمل على شتى ألوان المعرفة ، ومكتسبات العقل ، وذلك مايمكن أن يقال في الثقافة على وجه الإجمال ، وهي في ذلك لا تستند إلى ركيزة معينة ، أو أصل محدد بالذات ، وهذا التعريف للثقافة على وجة العموم .

أما الثقافة الإسلامية فإنها تغاير الثقافات الأخرى ، باعتبار أنها تدور في فلك المصدرين الأساسيين ، وهما : الكتاب والسنة ، ويضاف جملة المعارف الأخرى التي لايرى الإسلام غضاضة في دراستها أو الاستفادة منها .

---

(١) انظر : الثقافة الإسلامية : محمد راغب الطباخ ص ٤ .

كالإجماع ، والقياس ، والإستحسان ، والمصالح المرسلة ، وسد الذرائع ، والاستصحاب [1] . فكل منها حجة شرعية فى إفادة الدليل عند جمهور العلماء .

ومن ثم يمكن التوصل إلى تعريف مناسب للثاقفة الإسلامية في ضوء الأقوال والآراء الواردة فى هذا المجال فنقول : إن الثاقفة الإسلامية هى :

« مجموعة المعارف ، والتصورات ، والعلوم النظرية ، التى تدور فى فلك الإسلام لتنبثق عنها فكرة شاملة عن : الكون ، والإنسان ، والحياة ، والتى تؤثر فى الفرد والمجتمع فتضفى عليهما طابعاً شخصياً معيناً » [2] .

وهناك تعريفات أخرى للثقافة ، تضاف إلى ماسبق حتى تتجلى هذه المادة أمام القارئ . منها :

أنها : « مجموع عناصر الحياة ، وأشكالها ومظاهرها فى مجتمع من المجتمعات [3] » .

أو كما قال أحد علماء الغرب :

« بأنها مجموعة الأفكار والعادات التى يكتسبها أى مجتمع من المجتمعات ، ويشترك فيها أفراده وتنتقل من جيل إلى جيل [4] » .

وهناك تعريف آخر :

بأنها : « مجموعة من العادات يعترف بكونها مقبولة فى جماعة معينة كما يمكن متابعة آثارها فى كل دوائر النشاط الإنسانى كالسياسة ، والحقوق والفن ، والدين

---

(١) سيأتى الحديث عنها بعد قليل .

(٢) دراسات فى الثقافة الإسلامية مدخل إلى الدين الإسلامى د/ أمير عبد العزيز. ص٥ ، ٦ .

(٣) عمر عودة الخطيب : لمحات فى الثقافة الإسلامية ص ٢٩ .

(٤) كارهن وكلى فى كتابه : مفهوم الثقافة ص ٢٠٣ .

والمعرفة العقلية بمختلف صورها (١) » .

أما الثقافة الإسلامية فهى نظام إلهى شامل كامل لكل نواحى الحياة خاصة حين تعرف « أن الثقافة تقدم لأفراد كل جيل حلولا ناجحة ، وجاهزة لأكثر المشاكل التى ستطرح على الأرجح عليهم ، هذه المشاكل نفسها إنما تثار تبعاً لحاجيات الأفراد الذين يعيشون فى رهط منظم (٢) » .

والثقافة الحقة هى التى تقدم الحلول الناجحة المفيدة لمشاكل المجتمع ، كما أنها تصحح أى مفهوم خاطئ أو توافق على مايستجد من أفكار صحيحة بناءة .

ولا يليق بقادة الفكر أن ينقلوا ثقافة ما إلى حيث التطبيق أى الواقع الحى ، ومحاولة وصل الناس بها بحيث تكون هى الفكر ، والسلوك وسمة حياتهم العملية ، إلا بعد البحث والتمحيص .

لماذا وصفت الثقافة بأنها إسلامية ؟

تمايزا لها عن غيرها من الثقافات الأخرى التى تعتمد على العقل البشرى المحض الذى يقبل التعديل والتغيير ، أو الزيادة والنقصان .

ووصف الثقافة بأنها إسلامية دعوة إلى من يدرسها أن يدقق فى معنى الإسلام إذا الإسلام تسليم النفس إلى الحق الذى جاء من عند الله بلسان جميع أنبيائه ورسله من لدن آدم إلى خاتمهم محمد (٣) ﷺ .

---

(١) انظر لكروبر موضوع مفهوم الثقافة فى العلم : مجلة التربية العامة ص ٣ .

(٢) مفهوم الثقافة عند كارهن ص ٣٠٢ . نقلا عن أضواء على النظم والثقافة الإسلامية ص ١٠

(٣) قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد من قبلى : الإسلام هو التسليم ، والتسليم هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، التصديق هو الإقرار والاقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل .

جاء في التنزيل العزيز : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله »[1] .

فالمسلم الذى يعيش مع هذه الثقافة :

« هو الذى يوطن نفسه على أن تكون منقادة للحق الذى تولت رسالات الله الدعوة إليه ، ورفعت لواءه فى أجيال الإنسانية من أقدم عهودها التى مرت بها »[2] .

---

(١) البقرة : ٢٨٥ .

(٢) منهج الثقافة الإسلامية : السيد محب الدين الخطيب ص ٩ .

الثقافة والمجتمع

يتناول علماء الاجتماع هذا الموضوع من عدة جوانب :

أولاً : من حيث كونها عنصرا مهما من عناصر التراث الاجتماعى حيث يعود الفضل إلى أفراد المجتمع إلى مستوى اجتماعى ، وحضارى إلى الثقافة ، كما تكسب الجماعة ، صفات وخواص تنعكس على أعمالهم ، ومن ثم كان لمعنى الثقافة فى الدراسات الإجتماعية مايلى :-

أ- مايتلقاه الفرد عن الجماعة من مظاهر الفنون والعلوم والمعارف والفلسفة والعقائد وما إليه .

ب- النماذج المختلفة ، التى يصب فيها الأفراد سلوكهم وتصرفاتهم .

جـ- الطرق التى يوجدها أى مجتمع ليسد حاجاته الأساسية وليقوم بتنظيم علاقاته السياسية والاجتماعية ، ولهذا كانت الثقافة فى تفسيرهم كل مايتصل بمقومات الفرد والمجتمع من النواحى العقدية والفكرية والسلوكية والاجتماعية .

وتكون كما قال تيلر هى : « ذلك الكل المعقد الذى ينطوى على المعرفة والفن والأخلاق والقانون والعرف وغير ذلك من القدرات [1] » .

كما أن الثقافة الإسلامية : تعنى محاولة السير بالمبادئ الإسلامية من نقطة الركود التى وقفت عندها فى حياة المسلمين ، إلى حياة المسلم المعاصر حتى لا يقف

---

(١) الدكتور : مصطفى الخشاب : دراسات فى علم الاجتماع ص ١٨٩ ، ولمحات للثقافة الإسلامية ص ٣٢ .

مسلم اليوم موقف المتردد بين أمسه وحاضره عند مايصبح فى غده .. [1] .

المسلمون وتحديات العصر :

يستطيع المسلمون اليوم مواجهة تحديات الحضارة الغربية المعادية ، والثقافات الواردة المسمومة ، والمفاهيم الدخيلة المغلوطة عند معرفتهم أن الإسلام نظام إلهى شامل لكل نواحى الحياة ، وأن جوانبه مترابطة يتقدمها الجانب العقدى ، فالأخلاقى، ثم السياسى ، والاجتماعى ، ثم الاقتصادى أنه إذن منهج شامل كامل يستطيع الجيل الإسلامى اليوم خوض معركة الحياة ، وهم مطمئنون على صحة سيرهم بعيدا عن الزلل والانحراف ، يحدوهم الأمل المنشود فى قوله سبحانه :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئاً » [2].

إن الثقافة الإسلامية تعتمد على دستور الأمة ، ألا وهو القرآن الكريم الذى يحث على التفكير ، كما يدعو إلى العلم ، ويحض عليه ، بل يطلب الاستزادة منه :

« وقل رب زدنى علما » [3] .

« يرفع الله الذين آمنو منكم والذين أتوا العلم درجات والله بماتعملون خبير»[4].

« فالقرآن الكريم إذا يطابق العلم ، بل يوافق العلوم الطبيعية بالمعنى الذى تستقيم به العقيدة ، ولا تتعرض للنقائض (والأطانين) ، وفضيلة الإسلام الكبرى أنه يفتح للمسلمين أبواب المعرفة ويحثهم على ولوجها ، والتقدم فيها ، وقبول كل مستحدث من العلم على تقدم الزمن ، وتجدد أوقات الكشف ووسائل التعلم » [5] . بخلاف الثقافات الأخرى .

---

(١) الدكتور : محمد البهى : الفكر الإسلامى الحيث وصلته بالاستعمار ص ٣٩٣ .

(٢) النور : ٥٥ . (٣) طة : ١١٤ .

(٤) المجادلة : ١١. (٥) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية ١٦ – ١٨ .

موقف الثقافات الأخرى من الدين :

يتضح موقف الثقافات الأجنبية من الدين فيمايلي :

أ- أنها تعتبر أن الدين لا علاقة له بالحياة ، وليس له مجال فيها سوى : البيع، والصوامع ، وبيوت العبادة ، وطبقت هذا عمليا فعزلت الدين عن تعاملاتها ، واستطاعت الرأسمالية السيطرة على الحياة على حساب الدين ، بينما كان الواجب خضوع الحياة للدين ولكنها سخرته تبعاً لهواها ، وميولها الشخصية .

ب- اعتبار الدين نوع من الخرافة ، والأكاذيب ، وهذا يؤدى بدوره إلى إنكار الألوهية ، ودور النبوة ، وأن الكون والحياة وجدا هكذا بغير إله ، وهذا هو الإلحاد الذى بدأ انتشاره فى كثير من البلدان ، وسار وراءه جمع من النفوس البشرية ، وهذا أمر مقلق للنفوس المؤمنة ، لأن الإلحاد يدمر الجانب الروحى ، ويعطل ماينادى به الدين فما يبنيه الدين يهدمه الإلحاد :

فمتى يبلغ البنيان يوما تمامه . . إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟

ومن غريب الأمر أن تجد بعض النفوس تسير فى تيار الإلحاد ، الذى يجعل الإنسان ينطلق فى الحياة المادية ، وهو صفر اليدين من الجانب الروحى ، ولما خلت الثقافات الأجنبية من الدين كان شرها مستطيرا ، وضررها ظاهر للعيان : فى الحروب المتكررة ، والظلم الذى فرضته على الشعوب ، والأمراض المستعصية الفتاكة .

جـ- وخطورة هذه الثقافات لاتخص دينا بعينه ، بل إنها توعز إلى الناس جميعا بعدم جدوى الدين على الإطلاق حتى وصل ظلمها وأصاب شررها الإسلام نفسه ، وهذا مما يحتم على المسلمين أخذ الأهبة للذود عن دينهم والدفاع عن عقيدتهم ، لأنها المقصودة بكل عوامل الهدم والتخريب ، أما عوامل اليقظة والأهبة فيتمثلان فيما يلى :-

أولا : فى ثقافتنا الذاتية

إن الثقافة الذاتية للأمة هى التى تصنع شخصيتها ، وتبرز معالمها وتحدد خصائصها ، وتقرر تقاليدها وقوانينها ، وتستحسن لها أشياء وتستهجن أخرى ، بل هى التى تكون مزاج الأمة العام وأدبها ومايطربها أو يشجيها ، ثم تخط لها مجراها الخاص فى الحياة الإنسانية .. ولانزعم أن كل ثقافة ذاتية لأمة تستند إلى أساس صحيح ، ولكننا نؤكد أن كل أمة ترى فى هذه الثقافة الخاصة كيانها الأدبى وملامحها المميزة ، ثم تدافع عن ذاتها بماتملك .. وبالنسبة لنا نحن المسلمين عامة والعرب خاصة ننظر إلى ثقافتنا الذاتية نظرة أخرى لأنها تراث نزل من السماء ولم ينبت من الأرض .

إنها جملة العقائد والعبادات والقوانين والأخلاق والحدود والحقوق والقيم والمثل التى حوتها رسالة محمد ﷺ ، وهى كذلك جملة الآداب والصور الفنية التى أثرت عن العرب ، لأن اللغة العربية هى لغة الوحى الإلهى الباقى ، ومن ثم ضبطنا مفاهيم الألفاظ وصور التراكيب وديباجة الأداء فى الشعر والنثر ، لأن خلود هذه اللغة .. سياج لخلود الرسالة الإسلامية ، ومعنى (ذلك) جميعه أن **ثقافتنا الذاتية هى ديننا ودنيانا ، وماضينا ومستقبلنا ، هى أصلنا الذى انبثقنا منه ، وفرعنا الذى نمتد معه** ، ونحن نتزود بجميع ألوان المعرفة الإنسانية كى نحسن الحفاظ على ثقافتنا الذاتية ، أوالعيش بها وتقديمها للآخرين نموذجا حيا لطريقتنا الأثيرة فى الحياة وفق ما أراد الله سبحانه وطلب منا [(١)] .

« إن العرب لايمثلون قومية خاصة وإنما يمثلون رسالة سماوية ، وكل زعم وراء ذلك فهو إفك !! [(٢)] » .

---

(١) انظر للشيخ محمد الغزالى : ظلام من الغرب ص ١٥٤ ، ١٥٥ ط الثالثة ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م . ط دار الاعتصام .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٥ .

ثانيا : أثر هذه الثقافة الذاتية :

كان من الطبيعى أن يكون لهذا الخط الإسلامى أعداء يضيقون به عن جهل أو جحود ولكن هذه العداوات لم تنل منه ! فقد بدأت الأمة الإسلامية من هذه الجزيرة مجتمعاً وسيم الملامح جميل القسمات مبارك الآثار ، واستطاع هذا المجتمع القوى الفتى أن يطوى الوثنيات القائمة فتلاشت ! وأن يكسر العسكرية اليهودية فتبددت ! وأن يطارد الاستعمار الرومانى ، فعاد إلى أوروبا من حيث جاء ! بل لاحقه المسلمون هنالك ، ولو صدقوا النية والعزم لاجتثوه من جذوره .. لقد استطاع الإسلام تكوين أمة بين المحيطين : الهادى والأطلسى ، لها ثقافة عامرة ، وتقاليد شريفة أسدت للإنسانية خيرا لا حدود له ، وإن شابت هذا كله أخطاء شتى ربما بدأت تافهة ثم نمت على مر الزمن فجرت على الأعقاب الكوارث الشداد [1] .. !!

ثالثا : وصية لويس التاسع :

لقد أبى الأوروبيون التسليم بالهزيمة التى أصابت الدولة الرومانية ، وأنزلت أعلامها عن إفريقية وآسيا ، ثم انتهزوا فرصة من غفوة المسلمين واسترخائهم فشنوا حربا صليبية طويلة الآماد ، هجمت فيها الوف المؤلفة من المتعصبين القساة ، كلما انتهى زحف تبعه آخر فى حركات متشنجة مشبوبة الحقد ميتة الضمير ، وظلت كذلك مائتى عام دون جدوى ، فإن المسلمين الذين انهزموا أولا واحتلت أرضهم توارثوا المقاومة المستميتة فأمكنهم بعد بلاء شديد أن يصدوا العدوان ويغسلوا كل ما خلف .. لقد أخذ الصليبيون درساً ، تمثل فى وصية لويس التاسع :

الذى كان يرى تأخير دور السيف ، ويقدم دور الخديعة ، وأن يجند جيش كثيف من المبشرين لتحويل المسلمين عن إيمانهم ، وعلى أوروبا أن تنظم هذا الجيش وتحميه ، كما يرى لويس التاسع أن المعالنة بالقضاء على الإسلام خطأ ، ويوصى قومه باستبطان

(١) المرجع السابق ص ١٥٥ .

ذلك وإظهار غيره ، ويرى ضرورة دراسة الشرق الإسلامى وأحواله – أى إنشاء طائفة من المستشرقين – لتيسر وضع اليد الصليبية عليه ، كما يرى ضرورة الانتفاع بنصارى الشرق فى الكيد للمسلمين عموما .. !! .

وقد قتل لويس هذا فى حملة صليبية على تونس بعد فشل حملته الصليبية على مصر . ولكن خطته التى وضعها ووصى بها تعتبر الأساس الدبلوماسى والعسكرى للسياسة الأوروبية من قرون طوال ، فيعد لويس واضع دعائم الغزو الثقافى [1] . فماذ حدث؟

رابعاً : المخطط الصليبى فى بلاد الإسلام :

أستطاع الصليبيون أن يغيروا أسلوبهم ، واستطاعوا أن يحققوا فى القرن العشرين مالم تحققه حروبهم فى عشرة قرون ومن ذلك أنهم :-

١- استطاعوا القيام بازدواجية التعليم فى العالم الإسلامى . وانقسامه إلى دينى ومدنى ، كان نصيب الدينى قشور من الفكر الإسلامى واللغة العربية ، مع حرمانه من دراسة العلوم الحديثة ، ويكتفى فى هذا التعليم المحدود بحفظ ألفاظ القرآن الكريم ، وبدراسة العلوم الشرعية واللغوية على نحو سقيم .

ويكون نصيب هذا التعليم الدينى أن يوزع خريجوه على نواح جانبية من المجتمع الإسلامى .

٢- أما التعليم المدنى فتتوفر فيه دراسة الكون والحياة ، وتتسع فيه الدراسات الإنسانية المجردة .. أما العلوم الدينية والعربية ، فلا يكلف الطالب منها بشئ له بال من الأنصبة المحترمة .

ويكاد التعليم الثانوى والجامعى أن يقفر كل الإقفار من المعرفة الإسلامية النافعة . ومن ثم يتخرج المهندسون والأطباء والكيماويون والضباط والمحاسبون وغيرهم وهم

(١) نقلا عن نفس المرجع ص ١٥٦ .

لايدرون شيئاً طائلا عن دينهم ..

والهدف الذى خطط له الغزو الثقافى أن يتلاشى التعليم الدينى وتتحول جامعاته الكبرى إلى مدنية ، وأن يكون المنتسبون إلى الدين موضع الإهمال والزراية بضحالتهم وعجزهم وتنكر الدنيا لهم .. (١) .

٣- ثم اتجه الغزو الثقافى إلى لغة القرآن فأصابها إصابات قاتلة إذ عزل هذه اللغة عزلا تامة عن تدريس العلوم :

فلا وجود للغة العربية فى كليات الطب ، أو الصيدلة ، أو الهندسة ، أو العلوم .. واللغة الانجليزية هى لغة العلم فى البلاد التى خضعت للاستعمار الانجليزى ، وكذلك الشأن لدى اللغة الفرنسية ، وأيضا كان نفس الشئ بالنسبة للغة الروسية الذين عاشوا فى الاتحاد السوفيتى - سابقا -

لقد استطاع الغزو الثقافى فى كثير من الصحف والإذاعات أن يقصى اللغة العربية عن هذا المجال .. والهدف بعد موت اللغة العربية - لاقدر الله - أن يوضع القرآن فى المتاحف ، لأنه لا يوجد بعد ذلك من يفهمه !! ، واقتضت الحرب المعلنة على اللغة أن يحقر أدبها العالى وشعرها الرصين فأهملت اسماء الشعراء أمثال شوقى ، وحافظ إبراهيم وخليل مطران ، وأحمد محرم ، وعزيز أباظة ، وظهر شئ آخر دميم الصورة والسريرة أسمه الشعر المنثور ، وانضم إليه الزجل والموال ، وغير ذلك من الهراء الذى سقطت به مكانة الفن العربى وانقطعت به العلاقات بين أدبنا القديم والحديث .

« إن الحفاظ على لغة العرب من شعائر الإسلام ، وأن دحرجة هذه اللغة إلى منزلة ثانوية خيانة لله ورسوله ، وإن تعلم النحو والصرف كتعلم التفسير والحديث ، وأن إقرار الأخطاء اللغوية كإقرار المعاصى الدينية سواء بسواء » (٢).

---

(١) أنظر المرجع السابق ص ١٥٧ ومابعدها .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٩ .

٤- لم يكتف الغزو الثقافى بماسبق وإنما اتجه نحو الشريعة الإسلامية ليخلع عن رأسها التاج ويعزلها عن مكان الصدارة ، لقد كانت هذه الشريعة تحكم فى الدماء والأموال والأعراض وتحرس الحقوق الخاصة والعامة ، وتقرر الحدود فى العلاقات المحلية والعالمية ، والعجيب المدهش أن الرومان يفخرون بقانونهم ، ويخلدون مبادئه ومواده ! وما القانون الرومانى إلى جانب الشرع الإسلامى إلا كبئر (آسنة) إلى جانب النيل أو الفرات ، أو كأكوام تراب إلى جانب الجبال الشم !!

إن الفقه الإسلامى استبحر حتى فى حضارتنا ، واستوعب من مصالح الدنيا والدين مايبهر ويعجب ، وقد كتب الفقهاء والمسلمون ألوفا مؤلفة من المجلدات التى عمرت بالآراء الذكية والاجتهاد الحر وظل هذا الفقه يحكم المسلمين وغيرهم بين الأطلسى والهادى حكما راشداً كافيا مغنيا حتى دخل الاستعمار الحديث ، فأخذ ينفس عن حقده على الإسلام بمكر وخبث ، فألغيت شرائع الحدود والقصاص ، وعطلت المقررات الإسلامية فى شتى القضايا الحساسة وتركت إلى حين قوانين الأسرة ، وها قد بدأت فى بعض البلاد صيحات العملاء لتغيير أنصبة المواريث ، وتنصير بقية الصلات العائلات !! (١) .

لقد اتفقت جميع الدول الاستعمارية على إلغاء التشريع الإسلامى ، وقصدت بذلك إلى أمرين :

الأول : إبعاد الإسلام عن الحياة العامة وتجريده من سلطة الأمر والنهى وإتهامه بعدم الصلاحية للبت فى شئون الناس .

الأمر الآخر : تمزيق الضمير الدينى عند الرجل المسلم ، لأنه إذا رأى أمر الله معطلا فى شأن من الشئون هان عليه أن يعطل فى شأن آخر .. فإذا قرأ قول الله تعالى :-

(١) انظر ظلام من الغرب ص ١٥٩ . كما حدث فى مؤتمر السكان العالمى الذى عقد فى القاهرة فى الخامس من سبتمبر ١٩٩٤ .

« أحل الله البيع وحرم الربا »(١) .

ووعيد الله سبحانه بمقترف الربا كما جاء فى قوله سبحانه « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله »(٢) .

ورأى أن هذا المكتوب لايطبق ولا ينفذ سهل عليه أن يقرأ قول الله تعالى : «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا »(٣) .

دون أن ينفذ هذا المكتوب أيضاً .

وإذا قرأ قوله سبحانه : « كتب عليكم القصاص »(٤) .

ورأى هذا المكتوب لا ينفذ سهل عليه أن يقرأ قول الله تعالى : « كتب عليكم الصيام » دون أن ينفذ هذا المكتوب أيضاً .

إن الاحتلال جعل القانون الأجنبى لم يدمر الشريعة وحدها ، وإنما دمر كذلك عقائد وعبادات وماذا كسب المسلمون ، بل ماذا كسب الناس كلهم من تعطيل الأحكام السماوية ؟

---

(١) البقرة : ٢٧٥ .

(٢) البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٣) النساء : ٧.

(٤) البقرة : ١٧٨ .

لا شئ سوى انتشار الفوضى والمفاسد ، لقد أبيح الزنا ، والربا والخمر ، والقمار ، واختلطت الحرية الفكرية بحرية الهوى والقانون الوضعى وراء هذا كله [1] .

خامساً : كشف خبايا سماسرة الغزو الثقافى فى بلاد الإسلام :

قال حذيفة رضى الله عنه : كان الناس يسألون عن الخير ، وكنت أسأل عن الشر مخافة أن أقع فيه ! قلت : يارسول الله لقد كنا فى جاهلية وشر حتى بعثك الله بالخير فهل بعد هذا الخير شر ! قال : نعم ! قلت : فهل بعد هذا الشر من خير ؟

قال : نعم . وفيه دخل قلت : ومادخله ؟ قال : أناس يهدون بغير سنتى تعرف منهم وتنكر ، قلت : فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم .

دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها !! قلت : صفهم لنا !

قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا . وقلت ما تأمرنى إن أدركتهم ؟ قال : اعتزل هذه الفرق كلها .

ولو أن تعض على أصل شجرة حتى تموت على ذلك خير لك .. » .

التغريب الثقافى :

هناك عدد هائل من الدراسات المتخصصة التى أفاضت فى شرح هذا المفهوم: سواء من حيث الجذور والدلالة اللغوية ، أو من حيث معناه فى المجالات النفسية ، والسياسية والاجتماعية ، والفلسفية وغيرها .

إن التغريب يتمثل فى شعور الفرد بعدم الارتياح وعدم الاستقرار بما يعبر عن الانسلاخ عن المجتمع ، والابتعاد عن المشاركة الاجتماعية والثقافية ، وكذلك بمايعبر عن

(١) انظر ظلام من الغرب ص ١٥٩ ، ١٦٠ . وهذا كله نادى به مؤتمر السكان العالمى !!

عدم الانتماء والشعور بالقلق وعدم الترحاب من الآخرين .

كما ان التغريب حالة يعجز فيها الإنسان عن ممارسة السلوك السوى العادى ، ويعجز عن الاسهامات العادية فى حياة الجماعة ممايجعله غريبا عن نفسه ، وعن الجماعة وفى حاجة الى رعايتها ومن ثم فإن جوهر التغريب يتمثل فى عدة مظاهر هى:

فقدان علاقة خاصة عندما تكون هذه العلاقة متوقعة ، وظهور المواقف والاشخاص المألوفة للفرد على أنها غريبة عنه ، وشعوره بأن ذاته غير حقيقية ، ثم افتقاد الفرد الوعى بالعمليات النفسية الداخلية (١).

وإذا كان هذا التوضيح فيما يخص مصطلح التغريب ، فان مصطلح الثقافة – رغم شيوع استخدامه – كان ولايزال محل جدل وتناقص فى تحديد معناه ، ويكفى ان كروبير ، وكلوهان عالمى الأنثربولوجيا الأمريكيين قد صنفا قبل ربع قرن مالا يقل عن ١٦٠ مائة وستين تعريفا للثقافة ، ثم وضعوا لها تعريفا مفاده (٢) :

أنها تتألف من أنماط السلوك المكتسب ، والمنقول من خلال الرموز سواء كانت هذه الأنماط ظاهرة أم مستترة ، وتتضمن الثقافة أيضاً الانجازات المتميزة للجماعات التكوينية ، والأشياء المصنوعة ، ويتكون جوهر الثقافة من الافكار السائدة ، ومايتصل بها من قيم ، والنماذج الثقافية ماهى إلا نتاج السلوك ، وضرورة من ضروراته.

---

(١) نقلا عن مقال د . بركات عبد العزيز محمد بعنوان : أطفالنا بين مخاطر الاغتراب الثقافى وإدمان مشاهدة التلفاز . مجلة الوعى الاسلامى ع ٣٣٤٤ ربيع الأخر ١٤١٥ هـ سبتمبر ١٩٩٤ ص ٢٠ – ٢٣ بتصريف .

(٢) ليس فى هذا تناقضا لما سبق من تعريفات للثقافة ، ولا تكرارا ، وإنما من باب التدليل على التغريب الثقافى .

والثقافة بالمعني الاثنوجرافي الواسع هي :

ذلك المكون المعقد الذى يشمل : المعرفة ، والعقيدة والفن ، والاخلاق ،، والقانون والمادة ، وكافة المقومات الأخرى التى يكتسبها الإنسان كعضو فى المجتمع ، وربما تعريف بعض علماء الاجتماع لمصطلح الثقافة هو الاكثر وضوحا ودلالة ، فالثقافة عندهم عبارة عن :

مركب من أساليب الشعور ، والفكر ، والسلوك الذى يميز مجموعة من الناس ، ويتوارثونه جيلا بعد جيل ، وترتبط تلك العناصر مع بعضها بعلاقات تفاعل وتأثير متبادل ، ويؤدى كل عنصر فيها وظيفته الخاصة فى إطار الثقافة الكلية للمجتمع [1] .

فالثقافة بهذا المعنى الشامل ليست مجرد الأوضاع الاجتماعية ، والاقتصادية الظاهرة ، وإنما تشمل فى الوقت نفسه مايتجمع فى العقل من معارف ، وما يكمن فى الوجدان من انطباعات ، وما يترسب فيه من عادات وتقاليد ، ومايستقر فى الضمير من عقائد.

وتتسم الثقافة بأنها تتوارث جيلا بعد جيل كما ان عناصرها عرضة للتغير بصورة تختلف عمقا أو سطحية ، سرعة أو بطأ وفق عوامل ومؤثرات عديدة ، وفق المعنى المذكور لمصطلح التغريب .

أما تعريف التغريب الثقافي فمفاده :

بأنه اتباع الفرد أساليب وأنماط ثقافية خاطئة لا تتوافق مع الذاتية الثقافية للنظام الاجتماعى الذى ينتمى إليه ، كما تتناقض مع مقومات هذا النظام ، ومتطلبات

---

(١) محمد الجوهرى : علم الاجتماع ، وقضايا التنمية فى العالم الثالث ص ٢٧ القاهرة ط الثالثة . دار المعارف : ١٩٨٢.

ازدهاره وتطوره ، سواء كانت هذه الأساليب والانماط تتعلق بالادراك أو الشعور أو التفكير ، أو السلوك ، وتزداد خطورة التغريب الثقافى إذا ما اكتسبت المعنى المشار إليه اجتماعيا سواء بفعل الكثرة الكمية للذين يتبنون مظاهره ، أو بفعل تكوينهم النوعى كأن يكونا من نوى النفوذ والتأثير فى المجتمع ، والتغريب الثقافى بالمعنى المذكور يصبح أمراً خطيرا جدا ، خاصة أذا ماوقع فى المجتمع الاسلامى لأنه بمثابة محو للذاتية الثقافية الاسلامية ، وتصبح المسألة أشد ضرراً وأعظم خطراً إذا اغترب الأطفال المسلمون ثقافيا ، لأن المجتمع يكون فى حالة من التآكل السريع فى الحاضر ، والتدهور الحتمى فى المستقبل ، وهذا يدل على عجز مؤسسات التربية ، والتنشئة بل والمجتمع ككل عن القيام بأهم المسئوليات الاجتماعية والتربوية ..(١) .

تذكر إحدى الدراسات ان بعض الأطفال فى مصر ، بل وبعض الشباب فى العالم العربى ظلوا يقلدون أبطال مسرحية «مدرسة المشاغبين» مع ماتنطوى عليه هذه المسرحية من تمرد على النظام التعليمى وعدم احترام المدرس ، بل ان ابن ناظر المدرسة نفسه – كما تظهر لنا هذه المسرحية – يقدم أسوأ المثل فى علاقته بأبيه ومدرسيه ، وهنا تتجسد أنماط سلوكية غريبة عن الثقافة الإسلامية ، و تلك الثقافة التى تضمن قيمة احترام الوالدين فى أكثر من سورة (٢) .

كما تدل النصوص على احترام المعلم ، والوقوف احتراما لمكانته ، وتقديرا لدوره ورسالته الانسانية ، ومنزلته الرفيعة التى كادت أن تصل إلى مرتبة الرسل كما قال أمير الشعراء شوقى رحمه الله تعالى :

قم للمعلم وفه التبجيلا ..... كاد المعلم أن يكون رسولا .

(١) راجع أطفالنا بين مخاطر الاغتراب الثقافى ، وادمان مشاهدة التلفاز ص ٢٤ .

(٢) مثل : الاسراء الآيات : ٢٣ ، ٢٤ ، والعنكبوت : ٨ ، ولقمان : ١٤ ، ١٥ ، والأحقاف : ١٥ .

إن احترام الوالدين ، والبر بهما يمثل عنصرا أصيلا من عناصر ذاتيتنا الثقافية الإسلامية ، وهذا يناقض ثقافة الغرب ، التى لاتعط الوالدين أى تقدير أو احترام ، فعندما يقلد الأطفال والشباب عندنا بعض السلوكيات الغربية بناء على هذه المشاهد يصبح هؤلاء الأطفال والشباب مغتربين عن بعض عناصر الذاتية الثقافية الإسلامية ، مما يجعل المسلمين يحذرون من أثر التغريب السئ.

ركائز الثقافة الإسلامية

تقوم هذه الركائز على :

أولاً : الحقائق اليقينية الهادية .

ثانياً : المنهج الإلهي الشامل .

ثالثاً : رصيد الفطرة الإنسانية الأصيلة .

وإليك البيان :

أما الحقائق اليقينية الهادية فتشمل :

أ- مفاهيم الإسلام الصحيحة الواضحة عن « الكون ، والحياة ، والانسان » . أما الكون فقد أبدعه الله سبحانه على غير مثال سابق :

« بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم .

ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ فاعبدوه وهو على كل شئ وكيل [1] »

فهو سبحانه المبدع لهذه السماوات ومايقابلها ، وكل شئ مخلوق له سبحانه ، فما من شئ إلا وهو خالقه وعالمه ، ومن كان كذلك كان غنيا عن كل شئ ، والولد إنما يطلبه المحتاج [2] .

ثم تدبر فى قوله سبحانه : « إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم أستوى على العرش يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم

---

(١) الأنعام : ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) انظر تفسير النسفى : ٢ / ٢٦ .

مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين [1] » .

أى خلق السماوات والأرض ومابينهم .

وهذا إعلام بالتأنى فى الأمور ، ولأن إنشاء شئ بعد شئ أدل على عالم مدبر مريد يصرفه على اختياره ويجريه على مشيئته ثم استولى على العرش ، أضاف الإستيلاء إلى العرش وإن كان سبحانه مستوليا على جميع المخلوقات ، لأن العرش أعظمها وأعلاها ، والله سبحانه كان قبل العرش ولا مكان وهو الآن كما كان ، لأن التغير من صفات الأكوان ، والمنقول عن الصادق والحسن ، وأبى حنيفة ومالك رضى الله عنهم أن الأستواء معلوم ، والتكييف فيه مجهول ، والإيمان به واجوب والجحود له كفر ، والسؤال عنه بدعة [2] .

وقوله سبحانه :

« الله الذى خلق السماوات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم أستوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون . يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم [3] » .

فهذا تفصيل لما أجمل فى الآيات السابقة فى صورة الأعراف وقوله « ستة أيام» أى على التوزيع .

فخلق الأرض أولا فى الأحد والأثنين ، وخلق مافيها ثانيا فى الثلاثاء والأربعاء، وخلق السماوات ثالثا فى الخميس والجمعة .

---

(١) الأعراف : ٥٤ .

(٢) راجع تفسير النسفى ٢ / ٥٦ .

(٣) السجدة : ٤ - ٦ .

وعن هذه الأيام قال الإمام القرطبى : قال الحسن فى ستة أيام أى من أيام الدنيا ، وقال ابن عباس : إن اليوم من الأيام الستة التى خلق فيها الله مقداره ألف سنة من سنى الدنيا .

وقال الضحاك : فى ستة آلاف سنة ، أى : فى مدة ستة أيام من أيام الآخرة[1] .

وفى سورة فصلت مزيد من البيان يقول الله سبحانه :

« قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم [2] » .

« قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين .. الخ : الأحد والاثنين تعليما للأناة ، ولو أراد أن يخلقها فى لحظة لفعل ، وجعل فى الأرض جبالا ثوابت من فوقها، لتكون منافع الجبال ظاهرة لطالبيها وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال كلها مفتقرة إلى ممسك وهو الله عز وجل وجعل فيها البركة بالماء والزرع والشجر والثمر ، وقدّر أرزاق أهلها ومعايشهم ومايصلحهم فى أربعة أيام فى تتمة أربعة أيام بالتتمة اليومين تقول : سرت من البصرة إلى بغداد فى عشرة ، وإلى الكوفة ، فى خمسة عشر أى تتمة خمسة عشر ولابد من هذا التقدير ، لأنه لو أجرى على الظاهر لكانت ثمانية أيام، لأنه قال : خلق الأرض فى يومين ثم قال : وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ، ثم

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين : ٣ / ٤١٣ .

(٢) فصلت : ٩ - ١٢ .

قال : فقضاهن سبع سماوات فى يومين ، فيكون خلاف فى قوله فى ستة أيام فى موضع آخر وفى الحديث :

إن الله تعالى خلق الأرض فى يومين الأحد والأثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق يوم الأربعاء : الشجر والماء والعمران والخراب فتلك أربعة أيام ، وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة : النجوم والشمس والقمر والملائكة ، وخلق آدم عليه السلام فى آخر ساعة من يوم الجمعة - قيل هى الساعة التى تقوم فيها القيامة[1].

« ثم أستوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » .

قال ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال أول ماخلق الله تعالى : جوهرة طولها وعرضها مسيرة ألف سنة فى مسيرة عشرة آلاف سنة فنظر إليها بالهيبة فذابت واضطربت ، ثم ثار منها دخان بتسليط النار عليها فارتفع واجتمع زبد فقام فوق الماء فجعل الزبد أرضاً ، والدخان سماء ، ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وأمتثالها أنه أراد أن يكونهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما وكانتا فى ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع ، وإنما ذكر الأرض مع السماء فى الأمر بالإتيان ، والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين ، لأنه خلق جرم الأرض أولا غير مدحوة ثم دحاها بعد خلق السماء كما قال :

« والأرض بعد ذلك دحاها [2] » .

فالمعنى : أن ائتيا على ماينبغى أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ، ائتى ياأرض مدحوة قراراً ومهادا لأهلك ، وائتى ياسماء مقبية سقفا لهم ، ومعنى الإتيان

(١) تفسير النسفى : ٤ / ٨٩ .

(٢) النازعات : ٣٠ .

الحصول والوقوع كما تقول : أتى عمله مرضيا ، وقوله طوعا وكرها لبيان تأثير قدرته فيهما ، وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال كما تقول لمن تحت يدك : لتفعلن هذا شئت أو أبيت ، ولتفعلنه طوعاً أو كرها ، وانتصابهما على الحال بمعنى طائعتين أو مكرهتين .. « فى يومين » أى فى يوم الخميس والجمعة .

« وأوحى فى كل سماء أمرها » ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيران وغير ذلك .

« وزينا السماء الدنيا بمصابيح - بكواكب - وحفظا - وحفظناها من المسترقة بالكواكب حفظا - ذلك تقدير العزيز- الغالب غير الغلوب - العليم - بمواقع الأمور[1].

« قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين » قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن الله خلق يوما فسماه الأحد ، ثم خلق ثانيا فسماه الأثنين ، ثم خلق ثالثا فسماه الثلاثاء ، ثم خلق رابعاً فسماه الأربعاء ، ثم خلق خامسا فسماه الخميس ، فخلق الأرض يوم الأحد والأثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء ولذلك يقول الناس : أنه يوم ثقيل، وخلق مواضع الأنهار والشجر والقرى يوم الأربعاء ، وخلق الطير والوحوش والسباع والهوام والآفة يوم الخميس ، وخلق الإنسان يوم الجمعة ، وفرغ من الخلق يوم السبت[2].

فى حديث مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الأثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وخلق الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر يوم الجمعة فى آخر الخلق فيما بين العصر إلى الليل[3] .

---

(١) راجع تفسير النسفى : ٤ /٨٩ ، ٩٠ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين : ٤ / ٣٠ .
(٣) المرجع السابق : ٣ / ٣٠ .

قوله : « قدر فيها أقواتها» .

خص كل قوت بقطر من الأقطار ، فأضاف القوت إلى الأرض لكونه متولدا من تلك الأرض حادثا فيها وذلك لأنه تعالى جعل كل بلدة معدة كنوع من الأشياء المطلوبة حتى أن أهل هذه البلدة يحتاجون إلى الأشياء المتولدة فى تلك البلدة ، وبالعكس فصار هذا المعنى سببا لرغبة الناس فى التجارات واكتساب الأموال لتنظيم عمارة الأرض كلها باحتياج بعضهم لبعض فكان جميع ماتقدم من إبداعها ماذكر من متاعها دفعة واحدة على مقدار لايتعداه ، ومنهاج بديع دبره فى الأزل وارتضاه وقدره فأمضاه لاينقص عن حاجة المحتاجين أصلا ، وإنما ينقص توصلهم أو توصل بعضهم إليه فلا يجد له حينئذ مايكفيه ، وفى الأرض أضعاف كفايته [1] .

« فى تمام أربعة أيام » أى باليومين اللذين خلق فيهما الأرض فهو على حذف مضاف ولو لاهذا التقدير لكانت الأيام ثمانية : يومان فى الأول : وهو قوله تعالى : «خلق الأرض فى يومين » ويوما فى الآخر وهو قوله تعالى « فقضاهن سبع سماوات فى يومين » ، وأربعة فى الوسط وهو قوله تعالى « فى أربع أيام » فيخالف الآيات الدالة على أن المدة ستة أيام ، فحينئذ يحتاج الكلام إلى التوفيق بين الآيات .

فقال بعضهم : فى أربعة أيام – أى باليومين الماضيين ، كما تقول : بنيت بيتى فى يوم وأكملته فى يومين أى بإضافة الأول ، وقوله فى أربعة أيام سواء فيه زيارة فائدة على ما إذا قال خلق هذه الثلاثة فى يومين ، وهى أنه لو قال فى يومين لم يفد الكلام كون اليومين مستغرقين بتلك الأعمال بخلافه ، لما ذكر خلق الأرض وخلق هذه الأشياء ، ثم قال فى أربعة أيام سواء دل على أن هذه الأيام الأربعة صارت مستغرقة ومغمورة بتلك الأعمال من غير زيادة ولا نقصان ، فإن قيل لم جعلت مدة خلق الأرض بما فيها

(١) المرجع السابق : ٣/ ٣١ .

ضعف مدة خلق السماوات مع كون السماء أكبر من الأرض وأكثر مخلوقات وعجائب قلت : للتنبيه على أن الأرض هى المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين ، ومن كثرة المنافع فزادت مدتها ليكون ذلك أدل فى المنة على ساكنيها والاعتناء بشأنهم وشأنها .

وأيضاً زادت مدتها لما فيها من الابتلاء بالمعاصى والمجاهدات والمجادلات والمعالجات . وقال أبو البقاء : لعل زيادة مدة الأرض على مدة السماء جريا على مايتعارف من أن بناء السقف ، أخف من بناء البيت ، فإن قيل الله تعالى قادر على خلق الكل فى قدر لمحة البصر فما الحكمة فى تقدير هذه المدة ؟ أجيب بأن هذا تعليم لعباده كيفية التأنى فى الأمور وتدريبا لهم على السكينة والبعد عن العجلة وفى الأمور.

سؤال : فى كم يوم خلقت الأرض ومافيها ؟ فيقال : فى أربعة أيام [1] .

« وهى دخان » قال المفسرون : هذا الدخان بخار السماء ، وذلك أن عرش الرحمن كان على الماء قبل خلق السماوات والأرض كما قال ، «وكان عرشه على الماء»، ثم إن الله تعالى أحدث فى ذلك الماء اضطرابا فأزبد وارتفع فخرج منه دخان فأما الزبد فبقى على وجه الماء ، فخلق منه اليبوسة وأحدث منه الأرض ، وأما الدخان ، فارتفع وعلا فخلق منه السماوات ، فإن قيل هذه الآية مشعرة بأن خلق الأرض كان قبل خلق السماوات ، وقوله تعالى : «والأرض بعد ذلك دحاها» يشعر بأن خلق الأرض بعد خلق السماء ، وذلك يوجب التناقض .

أجيب بأن المشهور أنه تعالى خلق الأرض أولا ثم خلق بعدها السماء ، ثم بعد خلق السماء دحا الأرض ومدها وحينئذ فلا تناقض .

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين : ٤ / ٣٢ .

والمختار عند الإمام الرازى القول بأن خلق السماء مقدم على خلق الأرض ، وتأويل الآية أن يقال : الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد والدليل عليه : قوله تعالى « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

فلو كان الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين لصار تقدير الآية : أوجده من تراب ثم قال له : كن فيكون ، وهذا محال فثبت أن الخلق ليس عبارة عن الإيجاد والتكوين بل عبارة عن التقدير ، وإذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى : خلق الأرض فى يومين معناه أنه قضى بحدوثها فى يومين ، وقضاء الله تعالى بأن سيحدث كذا لايقتضى حدوث ذلك الشئ فى الحال فقضاء الله تعالى بحدوث الأرض فى يومين قد تقدم على إحداث الأرض ، وحينئذ يزول السؤال ، فعلى هذا تكون ثم للترتيب الأخبارى لا الزمانى .

والذى يفهم من كلام القرطبى فى سورة البقرة :

أن الذى خلق أولا هو الدخان الذى هو أصل السماء ، ثم بعده الأرض غير مدحوة ثم خلقت السماء مبسوطة متفاصلة طباقاً بعضها فوق بعض ، ثم دحيت وخلق مافيها من الأرزاق ، وغيرها [1] ، ا هـ

قوله : « ائتيا طوعاً أو كرها » تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما ، واستحالة امتناعهما من ذلك لا إثبات للطوع والكره لهما وقوله قالتا أتينا طائعين تمثيل لكمال تأثرهما بالذات عن القدرة الربانية وحصولهما كما أمرتا به .[2] ا هـ أبو السعود .

وفى القرطبى : فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها أى جيئا بماخلقت فيكما من المنافع والمصالح ، وأخرجاها لخلقى .

---

(١) راجع تفسير القرطبى عند شرحه لهذه الآية ، وحاشية الجمل على الجلالين : ٤ /٣٣ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين : ٤ / ٣٣ .

قال ابن عباس : قال الله تعالى للسماء : أطلعى شمسك وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض شقى أنهارك ، وأخرجى شجرك وثمارك طائعين، أو كارهتين قالتا أتينا طائعين ، وفى الكلام حذف أى أتينا أمرك طائعين ، وقيل : معنى هذا الأمر : التسخير أى كونا فكانتا ، كما قال تعالى : «إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون»[1] ، فإن قيل إن الله تعالى أمر السماء والأرض فأطاعتا ، كما أن الله تعالى أنطق الجبال مع داود عليه السلام فقال : « ياجبال أوبى معه والطير»[2] وأنطق الأيدى والأرجل فقال سبحانه : « يوم تشهد عليه ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون »[3] وقال تعالى : « وقالوا : لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ »[4] ، وإذا كان كذلك فكيف يستبعد أن الله تعالى يخلق فى ذات السماوات والأرض حياة وعقلا ، ثم يوجه الأمر والتكليف إليهما [5] .

أما عن الحياة :

فقد وردت مادة هذه الكلمة فى القرآن الكريم على مايربو على سبعين مرة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

(١) « زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين أمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب »[6] .

(٢) « كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرورة » [7] .

---

(١) النحل : ٤٠ .
(٢) سبأ : ١٠ .
(٣) النور : ٢٤ .
(٤) فصلت : ٢١ .
(٥) حاشية الجمل على الجلالين .
(٦) البقرة : ٢١٢ .
(٧) آل عمران : ١٨٥ .

(٣) « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولىّ ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم . بما كانوا يكفرون »[1].

(٤) « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون »[2].

(٥) « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون »[3] .

(٦) « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزل من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أونهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون »[4] .

(٧) « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء »[5] .

(٨) « ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا »[6] .

(١) الأنعام : ٧٠ .
(٢) الأعراف : ٣٢ .
(٣) يونس : ٧.
(٤) يونس : ٢٤ .
(٥) إبراهيم : ٢٧ .
(٦) الكهف : ٢٨ .

(٩) « وما أتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون»[١] .

(١٠) « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » [٢] .

(١١) « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدينا ولا يغرنكم بالله الغرور . »[٣] .

(١٢) « يأيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور»[٤] .

(١٣) « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » [٥] .

(١٤) « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور»[٦].

(١٥) « قالوا إن هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » [٧] .

---

(١) القصص : ٦٠ .

(٢) الروم : ٧٠ .

(٣) لقمان : ٣٣ .

(٤) فاطر : ٥ .

(٥) الزخرف :٣٥ .

(٦) الحديد : ٢٠ .

(٧) الأنعام : ٢٩ .

(١٦) إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومانحن بمبعوثين »[١] .

(١٧) « وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون »[٢] .

فكل ماسبق من الآيات حقائق تهدى الإنسان إلى طريق الهدى والرشاد .

إقرار الإنسان بالتوحيد :

كلم الله عز وجل الانسان فى عالم الذر ، قبل خلقه وعرفهم بذاته سبحانه والمطلوب منهم ، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق للإيمان به ، فاعترفوا آمنين مصدقين .

يقول الله عز وجل مخاطبا البشرية فى عالم الذر :

« وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى »[٣] .

وفى الخازن : روى أن الله تعالى قال لهم - أى البشر - جميعاً اعلموا أنه لا إله غيرى وأنا ربكم لارب لكم غيرى ، فلا تشركوا بى شيئا فإنى سأنتقم ممن أشرك بى ولم يؤمن بى ، وإنى مرسل إليكم رسلا يذكرونكم عهدى وميثاقى ، ومنزل عليكم كتبا فتكلموا جميعاً وقالوا : شهدنا أنك ربنا لارب لنا غيرك فأخذ بذلك مواثيقهم ، ثم كتب الله آجالهم وأرزاقهم ، ومصائبهم ، فنظر إليهم آدم عليه الصلاة والسلام . فرأى منهم الغنى والفقير ، وحسن الصورة ، ودون ذلك ، فقال رب : هلا سويت بينهم فقال : إنى أحب أن أشكر ، فلما قررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض أعادهم إلى صلبه ، فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ منه الميثاق[٤] . وللمزيد راجع الركيزة الثالثة ص ٥٢ ومابعدها .

---

(١) المؤمنون : ٣٧ .

(٢) الجاثية : ٢٤ .

(٣) الأعراف : ١٧٢ .

(٤) نقلاً عن حاشية الجمل على الجلالين : ٢ / ٢١٠ .

الركيزة الثانية: المنهج الإلهى الشامل

وتتضح هذه الركيزة من الأمور التالية:

أ – الربانية : فهى ثقافة معجونة بالجانب الإلهى، قد امتزجت فكرة الإيمان عامة، والتوحيد خاصة، بجوانبها كلها، وجرت فيها مجرى الدم فى الشعيرات ، أدبها وعلمها وفلسفتها، فى كتب اللغة وكتب الدين، وكتب العلم، على اختلافها، فيما تزيّن به المساجد، وفيما تجمَّل به المنازل.

قد يرتاب فيها بعض الملاحدة أو الشكاك، ولكنهم يمثلون الشذوذ الذى يثبت القاعدة ولا ينفيها. ومع هذا تجد نضح هذه الثقافة الربانية عليهم، أحبوا أو كرهوا.

ب – الأخلاقية : والعنصر الأخلاقى فيها مكان رحيب، وأثر عميق، برز ذلك العنصر حتى فى الجاهلية ذاتها، كما نلمسه فى شعر حاتم الطائى، وعروة ابن الورد، وعنترة العبسى [1]، وغيرهم.

ثم جاء الإسلام، فعمّق هذا العنصر أيما تعميق، ووسّعه أبلغ توسعة، وربط الأخلاق بأهداف أرحب وأرقى، وحوافز أنبل وأزكى، ووصلها بفكرة الإلزام والجزاء، جزاء الدنيا وجزاء الآخرة، وحررّها من غلوّ الجاهلية وغلوائها، ورفع الأخلاق مكاناً علياً حين جعلها غاية الرسالة: [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق] [2]، وندد بالعلم الذى لا يثمر خلقاً ولا سلوكاً حسناً.

وفصَّل آداباً للمعلم والمتعلم، والقارىء والسامع، والباحث والمناظر، بل آداباً لكل شىء فى الحياة، من أدب المائدة إلى بناء الدولة.

---

(١) انظر بعض أشعار هولاء فى ديوان الحماسة لأبى تمام.

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبى والبيهقى فى الشعب. كلهم عن أبى هريرة. وذكره فى صحيح الجامع الصغير (٢٣٤٩). ومن أخلاق ﷺ الخ

واعتبرت الأخلاق ثمرة الاعتقاد الصحيح والتعبد الخالص، وإلا كان فساد الخُلُق دليل فساد الإيمان، أو فساد العبادة.

ولا تعترف هذه الثقافة بتجزئة الأخلاق: أخلاق لمعاملة المسلمين، وأخرى لغير المسلمين؛ فالخير خير للجميع، والشر شر على الجميع، والحلال حلال للكلّ، والحرام حرام على الكلّ، لا كما جاء فى توراة اليهود.

كما لا تعترف هذه الثقافة بذلك المبدأ الخطر الشرير: أن الغاية تبرر الوسيلة، بل هى لا تؤمن إلا بالوسيلة النظيفة للغاية الشريفة، ولا تصل إلى الحق بالخوض فى الباطل. فإن الله تعالى طيّب لا يقبل إلا طيباً.

ومن ثَمَّ لا انفصال فى ثقافة الإسلام بين الأخلاق والعلم، ولا بين الأخلاق والاقتصاد، ولا بين الأخلاق والسياسة، ولا بين الأخلاق والحرب.

جـ - الإنسانية : ومن خصائص هذه الثقافة: الإنسانية. فلُحمتها وسداها احترام الإنسان، ورعاية كرامة الإنسان، وحقوق الإنسان، فهى تقوم على اعتبار أن الإنسان «مخلوق مكرّم» من ربه: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ) [1]

وأن الله جعله فى الأرض خليفة، وأنه تعالى سخَّر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه.

وهى تقوم على تكريم الإنسان من حيث هو إنسان، بغض النظر عن جنسه أو لونه، أو لغته أو موطنه، أو طبقته، بل عن دينه نفسه، فهو مكرم بإنسانيته قبل ديانته. ومن المواقف الرائعة ما رواه البخارى عن النبى ﷺ أنه قد مرت عليه جنازة ميت وهو جالس، فقام لها واقفاً، فقيل له: إنها جنازة يهودى؟ فقال: [أليست نفساً] ؟ بلى، ولكل

---

(١) الإسراء : ٧٠.

نفس في الإسلام حُرمة ومكان (١).

د - **العالمية**: وما دامت ثقافة لكل إنسان، فلا غرو أن تكون ثقافة عالمية المنزع، والوجهة لأنها تعتمد على المنهج الإلهي الشامل وقد عملت على تقريب الفوارق بين بني الإنسان، تلك التي فرقت البشر قديماً وحديثاً، ولهذا اشترك فيها عرب وعجم، بيض وسود، أغنياء وفقراء، ملوك وسوقة، مسلمون ونصارى ويهود ومجوس، ولا تنافي بين انتماء هذه الثقافة إلى العروبة والإسلام من ناحية، ووصفها بالعالمية من ناحية أخرى، فهي - كما قلنا - عالمية النزعة والوجهة، مفتوحة لكل الجماعات البشرية، غير مغلقة على نفسها، ولا متعصبة ضد غيرها، مثل الثقافة اليهودية المنغلقة، التي تقوم على تمجيد جنس خاص، وشعب معين، حتى وصفت الله سبحانه بأنه «ربّ إسرائيل»، واعتبرت الشعب الإسرائيلي - كجنس - شعب الله المختار.

أما الثقافة الإسلامية فهي وإن كتبت بالعربية، وانطلقت من الإسلام، فالإسلام نفسه عالمي الرسالة من أول يوم، جاء يقول: (يا أَيُّهَا النَّاسُ) (٢) لا «يا أيها العرب»، ويدعو إلى الله (ربِّ العَالَمِينَ) (٣) لا «رب المسلمين ولا رب العرب وحدهم»، ويعلن أن دعوته عامة لا خاصة: (ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (٤)، «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا» (٥).

هـ - **التسامح**: ومن دلائل هذه العالمية وجود خصيصة «التسامح» فيها، برغم ظهور العنصر الديني فيها وغلبته عليها، ولكن الدين الذي قامت عليه، يؤكد الإيمان

---

(١) انظر: خصيصة الإنسانية من كتاب «الخصائص العامة للإسلام» د/ يوسف القرضاوي طبع مكتبة وهبة، القاهرة، والرسالة، بيروت.

(٢) البقرة: ٢١ وغيرها.

(٣) الفاتحة: ٢ وغيرها.

(٤) الأنبياء: ١٠٧.

(٥) الفرقان: ١.

بحقيقتين أساسيتين على غاية من الأهمية، لتأثيرهما فى فكر الإنسان وسلوكه، وعلاقاته مع الآخرين المخالفين، وهما:

الأولى : أن اختلاف البشر فى الأديان وغيرها واقع بمشيئة الله تعالى المرتبطة بحكمته، ولا يملك أحد أن يرد مشيئة الله ويغيِّر سننه فى الكون يقول تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) [1].

الثانية: أن حسابهم على ما ضلُّوا فيه أو انحرفوا، إنما هو إلى الله يوم القيامة، وليس إلى الناس اليوم. وفى هذا يقول الله تعالى لرسوله فى شأن المخالفين (فَلِذَلِكَ فَادْعُ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ، وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) [2].

لهذا وسعت هذه الثقافة وهذه الحضارة غير المسلمين، وفسحت لهم مكاناً فى مجتمعاتها، وأعطتهم ذمة الله وذمة رسوله، وذمة جماعة المسلمين، على أن يكون لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، إلا ما اقتضاه اختلاف الديانة، وبقى هؤلاء على عقائدهم وعباداتهم وشعائرهم، وبقيت لهم معابدهم ومؤسساتهم، ولم يُجبروا على شىء يمنعهم دينهم منه، بل لم يجبروا على ترك ما يبيحه دينهم لهم كالخمر والخنزير[3]، بل شاركوا فى بناء الحضارة الإسلامية، وكان لهم فى أحيان كثيرة مناصب وزارية وإدارية ومالية؛ على خلاف ما تعانيه الأقليات والجاليات المسلمة فى كثير من المجتمعات الغربية اليوم، التى أقامت الدنيا وأقعدتها من أجل طالبات مسلمات يلتزمن الحجاب الذى فرضه عليهن

---

(1) هود : ١١٨ - ١١٩.

(2) الشورى : ١٥

(3) انظر د/ يوسف القرضاوى كتاب : «غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى»، فصل «تسامح فريد » ص ٤٧ - ٥٥، طبع مكتبة وهبة - الطبعة الثالثة.

الإسلام ، [1] وكذلك من أجل فتح كلية أوربية خاصة للدراسات الإسلامية، لتخريج أئمة ووعاظ للجاليات الإسلامية الكبيرة فى داخل أوروبا شرقها وغربها.

ز – **التنوع** : ومن خصائص هذه الثقافة «التنوّع»؛ فهى ليست مجرد ثقافة دينية لاهوتية كما يتصور البعض بل إنها ثقافة واسعة متنوعة، فيها الدين بفروعه المتعددة، واللغة والأدب والفلسفة، والعلوم الطبيعية والرياضية، والعلوم الإنسانية والفنون المختلفة.

فيها فقه أبى حنيفة، وأصول الشافعى، وكلام الأشعرى، وتفسير الطبرى، ورواية البخارى ومسلم وأدب الجاحظ، ومعجم الخليل، ونحو سيبويه، وبلاغة عبد القاهر وطب ابن سينا، وشعر المتنبى، ومقامات الحريرى ، وبصريات ابن الهيثم، ورياضيات البيرونى، وتصوف الغزالى، وفلسفة ابن رشد، وتحليل ابن خلدون، وخط ابن مقلة، وألحان الموصلى.

فيها ابن طفيل من الأندلس، وابن أبى زيد من تونس، وابن حجر من مصر، وابن الوزير من اليمن، والشيرازى من إيران، والزمخشرى من خوارزم، والدهلوى من الهند، وجلال الدين الرومى من تركيا.

فيها صلاح أهل السلوك، وخلاعة أهل البطالة.

فيها «نهج البلاغة»، و«ألف ليلة وليلة».

---

(١) قال سبحانه : «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن..» الآية ٣١ من سورة النور ويتضح أن الأمر هنا من الله سبحانه وقد ساقه بصيغة النهى عن إظهار الزينة، وبلام الأمر فى «وليضربن بخمرهن» فعلم أن المسلمة المحجبة إنما تنفذ أوامر الله عز وجل لأنه هو القائل، وطاعة الله عز وجل واجبة «ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ». الأحزاب:٧١.

فيها زهديات أبى العتاهية، وخمريات أبى نواس.

فيها مرثيات الخنساء، ومجون ابن أبى ربيعة .

فيها سلفية ابن تيمية ، وصوفية ابن عربى .

فيها ظاهرية ابن حزم، ومقاصدية الشاطبى.

فيها عقلانية الفلاسفة، والتزام الفقهاء.

فيها اجتهاد المجددين، وتزمّت المقلدين.

فيها الفرّق المختلفة من أهل الملّة، والفرق المنشقّة عن الملّة.

فيها الكتب المقروءة التى امتلأت بها المكتبات، والصور المشهودة التى ازدانت بها الجوامع والمدارس والقصور (الأموى فى دمشق، والحمراء فى الأندلس، والأزهر فى مصر، والسلطان أحمد فى استانبول، وتاج محل فى الهند).

إنه التنوّع الشامل أو الشمول المتنوّع.

هـ - **الوسطية** : يكمل خصيصة «التنوّع» خصيصة أخرى هى «الوسطية» أو «التوازن»،فهذه الثقافة تمثل المنهج الوسط، للأمة الوسط، بين إفراط الأمم المختلفة وتفريطها ، ومع أن الطرفين قد يوجدان داخلها ، إلا أن الصبغة العامة لها، والطابع الغالب عليها هو الوسطية، التوازنية، المستمدة من وسطية الإسلام، ووسطية أمّته : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ [1] .

تجد هذا واضحاً فى الوسطية المتوازنة: بين العقل والوحى، بين العلم والإيمان، بين المادة والروح، بين الحقوق والواجبات، بين الفردية والجماعية، بين الإلهام والالتزام، بين النص والاجتهاد، بين المثال والواقع، بين استلهام الماضى والتطلع إلى المستقبل.

---

(١) البقرة : ١٤٣.

ك - التكامل : ومن خصائص هذه الثقافة أيضاً: التكامل ، التكامل فيما بين بعضها وبعض، فالثقافة اللغوية تخدم الثقافة الدينية، وهذه تغذى الثقافة الإنسانية، وكل هذه تستفيد من الثقافة العلمية.

ومثل ذلك تكاملها مع الثقافات الأخرى ، فهى لا تدعى أنها تنشىء كل شيء من عدم، وتبدأ رحلة الثقافة من الصفر، بل أعلنت نصوصها المقدسة أنها جاءت متممة لما كان قبلها لا مبتكرة، مكملة للبناء الذى بدأه رسل الله من قبل، مصححة للمسيرة التى داخلها بعض التحريف أو الانحراف. ومن ثم قال محمد عليه الصلاة والسلام: [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق] (١) ، فهو متمم لا مبتدىء ، ومكارم الأخلاق لم تقطع جذورها من الدنيا، بل هى موجودة، وإن كان فيها قصور وتناقص، ومهمته ﷺ أن يتممها ويكملها.

وموقف الثقافة الإسلامية مع الثقافات الأخرى كموقف نبوة محمد ﷺ مع النبوات الأخرى، والذى عبّر عنه الحديث الصحيح : [إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلاّ وُضِعت هذه اللَّبنة؟ وأنا خاتم النبيين] (٢) .

ومقتضى هذا التكامل الذى اتصفت به الثقافة الإسلامية، أنها لا تجد مانعاً شرعياً يمنعها من اقتباس الحكمة، والتماس العلم النافع، والعمل الصالح عند غيرها، ولو كانوا خصومها . وفى الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجه: [الكلمة الحكمة ضالة المؤمن،

---

(١) سبق تخرجه .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة، كما فى (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، حديث رقم (١٤٧٣).

فحيث وجدها فهو أحق بها] [1]، والحديث ضعيف من حيث سنده، ولكن معناه صحيح، بإجماع علماء الأمة. وهو ما استقر عليه الفقه والعمل.

وقد طلب الرسول الكريم ﷺ من أسرى المشركين الذين يحسنون الكتابة، ولم يتيسر لهم دفع الفدية في غزوة «بدر» أن يفدوا أنفسهم بتعليم كل واحد منهم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة حتى يحذقوا، فتعلم منهم عدد كان منهم زيد بن ثابت كاتب الوحي، وأحد علماء الصحابة رضي الله عنهم [2].

---

(١) رواه الترمذي في أبواب العلم عن أبي هريرة (٢٦٨٨) وقال: حديث غريب، وذكر أن فيه راوياً يضعّف في الحديث من قِبَل حفظه. ورواه ابن ماجه في الزهد (٤١٦٩).

(٢) رواه ابن سعد عن الشعبي مرسلاً، كما في الطبقات: ٢٢/١ ، طبع بيروت، وراجع الثقافة العربية والإسلامية بين الأصالة والمعاصرة ص ٢٦-٣٣. بتصرف واختصار .

الركيزة الثالثة : رصيد الفطرة الإنسانية الأصيلة

وتتجلي هذه الفطرة في قول الله عز وجل :

«فأقم وجهك للدين حينفاً فطرت الله التى أفطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[1] .

قوله تعالى : «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله» أى فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذى هداك الله لها وسميت الفطرة ديناً لأن الناس يخلقون له قال جل وعز: «وما خلت الجن والإنس إلا ليعبدون»[2]، ويقال «عليها» بمعنى لها كوله تعالى : «وإن أسأتم فلها »[3]، والخطاب بـ «أقم وجهك» للنبى صلى الله عليه وسلم، أمره بإقامة وجهه للدين المستقيم، كما قال : «فأقم وجهك للدين القيم »[4] وهو دين الإسلام، وإقامة الوجه هو تقويم المقصد والقوة على الجد فى أعمال الدين، وخص الوجه بالذكر لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه ويدخل فى هذا الخطاب أمته بأتفاق من أهل التأويل، و «حنيفا» معناه معتدلا مائلا عن جميع الأديان المحرفة المنسوخة وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول ﷺ : «ما من مولود إلا يولد على الفطرة – وفى رواية على هذه الملة – فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء[5] هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم «فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله »[6]

---

(١) الروم : ٣٠.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) الإسراء .

(٤) الروم : ٤٣.

(٥) أى سليمة من العيوب مجتمعة الأعضاء كاملتها.

(٦) تفسير القرطبى ص ٥١٠٦ وراجع تفسير ان كثير ٣٢/٣ ط الحلبى .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكرا وإما كفورا » (١). واختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعددة، منها: الإسلام، قال أبو هريرة وابن شهاب وغيرهما، قالوا: وهو المعروف عند عامة السلف من أهل التأويل، واحتجوا بالآية وحديث

أبى هريرة، وعضدوا ذلك بحديث عياض بن حمار المجُاشعى أن رسول الله ﷺ قال للناس يوما: ألا أحدثكم بما حدّثنى الله فى كتابه ؟ أن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين وأعطاهم المال حلالا لا حرام فيه فجعلوا مما أعطاهم الله حلا وحراما (٢) الحديث. وبقوله ﷺ: خمس من الفطرة.. فذكر منها قص الشارب، وهو من سنن الإسلام، وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث: أن الطفل خلق سليماً من الكفر على الميثاق الذى أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه..

وقال آخرون: الفطرة هى البداءة التى ابتدأهم الله عليها، أى على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ. قالوا: والفطرة فى كلام العرب البداءة والفاطر: المبتدىء، واحتجوا بما روى عن ابن عباس أنه قال: لم أكن ما أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان فى بئر، فقال أحدهما أنا فطرتها، أى ابتدأتها . (٣)

وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر: الفطرة هى الخلقة التى خلق الله عليها المولود فى المعرفة بربه سبحانه، فكأنه قال: كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه عز وجل إذا بلغ مبلغ المعرفة، أى خلقة مخالفة لخلقة البهائم التى لا تصل بخلقتها إلى معرفته.

(١) استشهد به الإمام بن كثير فى تفسيره ٣/٤٣٢.
(٢) استدل به القرطبى فى تفسيره ص ٥١٠٦ ط الشعب.
(٣) نفس المصدر السابق.

واحتجوا على أن الفطرة هى الخلقة، والفاطر هو الخالق لقول الله عز وجل: «الحمد لله فاطر السماوات والأرض» . يعنى خالقهن.

وبقوله سبحانه : «ومالى لا أعبد الذى فطرنى» يعنى الذى خلقنى.

أما أن المولود يفطر على كفر وإيمان، أو معرفة أو إنكار فهذا ما لا سبيل اليه لأنه لو كان الأطفال يفطرون على شىء من الكفر والإيمان فى أولية حياتهم ما انتقلوا أبدا، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون، ويستحيل فى المعقول أن يكون الطفل فى حين ولادته يعقل كفرا أو إيمانا؛ لأن الله تعالى أخرجهم فى حال لا يفقهون معها شيئا قال الله تعالى:

«والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا» (١)

فمن لا يعلم شيئا استحال منه كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار الدليل: قول الله تعالى: «إنما تجزون ما كنتم تعملون» (٢).

«كل نفس بما كسبت رهينة» (٣). ومن لم يبلغ وقت العمل لم يرتهن بشىء. وقوله سبحانه : «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» (٤).

ويستحيل أن تكون الفطرة المذكورة الإسلام، كما قال ابن شهاب؛ لأن الإسلام والإيمان قول باللسان وإعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، وهذا معدوم من الطفل، لا يجهل ذلك ذو عقل، وأما قول الأوزاعى: سألت الزهيرى عن رجل عليه رَقَبة أيجزىء عنه الصبىّ أن يعتقه وهو رضيع؟ قال نعم، لأنه وُلد على الفطرة يعنى الإسلام فإنما أجزى

(١) النحل : ٧٨.
(٢) الطور : ١٦.
(٣) المدثر : ٣٨.
(٤) الرسراء : ١٥.

عتقه عند من أجازه لأن حكمه حكم أبويه، وخالفهم آخرون فقالوا: لا يجزى فى الرقاب الواجبة إلا من صام وصلى [1] .

قال ابن عطية: والذى يعتمد عليه فى تفسير هذه الفظة أنها الخلقة والهيئة التى فى نفس الطفل التى هى معدة مهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن به؛ فكأنه تعالى قال : أقم وجهك للدين الذى هو الحنيف، وهو فطرة الله الذى على الإعداد له فطر البشر، لكن تعرضهم العوارض، ومنه قول النبى ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه [2] فذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض الكثيرة.

وأن ذلك بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا ، وتأكدت حجة الله عليهم بما نصب من الايات الظاهرة من خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والبر والبحر واختلاف الليل والنهار، فلما عملت أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعتهم إلى اليهودية والنصرانية فذهبت بأهوائهم يميناً وشمالا، وأنهم إن ماتوا صغارا فهم فى الجنة، أعنى جميع الأطفال، لأن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه فى صورة الذّرّ أقرّوا له بالربوبية وهو قوله تعالى : «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا» [3] ثم أعادهم فى صلب ادم بعد أن أقروا له بالربوبية، وأنه الله لا إله غيره «فطرة الله التى فطر الناس عليها» .

«لا تبديل لخلق الله» أى هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق.

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص ٥١١٠ ط الشعب.

(٢) راجع تفسير ابن كثير : ٤٣٢/٣ ط الحلبى.

(٣) الأعراف: ١٧٢.

وقال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها.

قال مجاهد: المعنى لا تبديل لدين الله؛ وقاله قتادة وابن جُبير والضحاك وابن زيد والنخعى قالوا، هذا معناه فى المعتقدات. وقال عكرمة:

وروى عن ابن عباس وعمر بن الخطاب: أن المعنى لا تغيير لخلق الله من البهائم أن تخصى فحولها، فيكون معناه النهى عن خصاء الفحول من الحيوان. «ذلك الدين القيم» أى ذلك القضاء المستقيم، قاله ابن عباس. «ذلك الدين القيم » أى دين الإسلام هو الدين القيم المستقيم. «ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أى لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقاً معبوداً، وإلهاً قديما سبق قضاؤه ونفذ حكمه [1] . وبهذا يتضح أن مفاهيم الإسلام – وهى ثقافته تتفاعل فى النفس الإنسانية مع الفطرة النقية التى لو تركت وأصالتها – من غير محاولة إفسادها وتشويهها – لما انحرفت عن عهد الله سبحانه، أو زاغت عن هداه ، أو ضلت عن سبيله .. فإذا كان نور الحق مركوزا فى فطرة الإنسان ، فإن ثقافة الإسلام إنما ترتكز على هذا الرصيد الكبير النقى فى إقامة الوجود الحق الكريم للإنسان ، وهى تنفرد بذلك عن أى ثقافة أخرى لا تملك هذا الرصيد [2] يقول سبحانه : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ...» [3] .

فالفطرة البشرية محكومة بذلك الناموس الذى تصرفه المشيئة الإلهية ، وهو ناموس التوحيد ، فهى تدركه بطبيعتها ، لأنه مستقر فى صميمها .. وإن من فضل الله سبحانه على هذا الإنسان أن زوده .. بالعقل الواعى ليميز به الحق من الباطل ، وبالعين

(١) تفسير القرطبى : ٦/٥١١٣، وتفسير ابن كثير ٣/٤٣٢.
(٢) راجع دراسات فى الثقافة الإسلامية ، مدخل الى الدين الإسلامى ص ٦٠.
(٣) راجع الآيات ١٧٥ – ١٧٨ من سورة الأعراف .

المبصرة التى تشهد دلائل الهدى فى الكون والحياة ، وبالأذن المدركة التى تسمع مايتلى عليها من عظات ودلائل باهرات ، فمن سلمت فطرته ، وتيقظت بصيرته، واستخدم ماأنعم الله به عليه من وسائل المشاهدة ، فسلك طريق الحق كان من المهتدين ، وإلا كان من الضالين الغافلين .

قال الله عز وجل « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون »[1] .

فمن عطل حواسه عن الكون من حوله كان أضل من الأنعام ، وذلك هو الفرق الجوهرى بين ماترتكز عليه ثقافة الإسلام من الفطرة التى تسمو بالإنسان .. وبين الثقافات الأخرى التى لاتقيم وزنا لهذه الفطرة وموجباتها ، فتهبط بالإنسان إلى ظلمات الضلال والفساد[2] .

ووصف الثقافة بأنها إسلامية دعوة إلى من يدرسها أن يدقق فى معنى الإسلام إذا الإسلام تسليم النفس إلى الحق الذى جاء من عند الله بلسان جميع أنبيائه ورسله من لدن آدم إلى خاتمهم محمد ﷺ .

قال الله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله »[3] .

فعلى المسلم الذى يعيش مع هذه الثقافة أن « يوطن نفسه على أن تكون منقادة للحق الذى تولت رسالات الله الدعوة إليه ورفعت لواءه فى أجيال الإنسانية من أقدم عهودها[4] » التى مرت بها .

---

(١) الأعراف : ١٧٩ .

(٢) انظر دراسات فى الثقافة الإسلامية ص ٦١ ، ٦٢ . بتصرف واختصار .

(٣) البقرة : ٢٨٥ .

(٤) السيد محب الدين الخطيب : منهج الثقافة الإسلامية ص ٩ .

عناصر الثقافة الإسلامية

للثقافة الإسلامية عناصر ثابتة ، ماإن تتآلف حتى تعطى ثقافة أصيلة مستنيرة تؤتى ثمارها بإذن ربها على أحسن مايكون العطاء ، أما عناصرها فمنها :

أولاً : أنها تتسم بالشمول والإحاطة ، بحيث تجد فيها الإنسانية مقومات حياتها ، لأنها وليدة دين شامل أحاط باحتياجات الإنسان وضرورياته .

ثانياً : إنها متكاملة فى أجزائها ، وتراكيبها تتلاحم لتكون حصيلة ثقافية كاملة ولهذا فهى لا تعتمد على :

أ- العنصر المادى وحده ، وإلا لوقعت فى المادية البغيضة التى نهى الإسلام عنها .

ب- ولا على العنصر الروحى وحده ، فتظل بعيدة عن واقع الإنسان المتطور بل تظل قابعة فى ركن المثاليات الخيالية التى لا تقبل التطبيق فى واقع البشر ، فتفقد الصفة التى جاءت من أجلها .

جـ- كما أنها لا تعتمد على العنصر العقلانى المجرد فتتحول إلى نوع من الفلسفات التى لاتوجد عند التطبيق إلا فى عقول أصحابها الفلاسفة .

ثالثاً : إنها تتسم بالمتانة والعمق إذهى منبثقة عن الإسلام الذى يتنافى مع السطحية ، ويتسم بطابع العمق العميق فى : العقيدة ، والعبادة ، وبناء المجتمع ، ومن ثم تتسم الثقافة .. بطابع العمق والمتانة ، والشئ من معدنه لايستغرب .

وبما أن الإسلام دين شامل بحيث يجعل الإنسانية لوسارت على نهجه لعاشت حياة أقرب إلى الكمال ، فلا تحتاج إلى ثقافة بشرية قاصرة ، أو مفرضة ، والثقافة بهذا الامتداد تنأى بنفسها عن الزلل والانحراف ، كما أنها تأبى الإفراط ، أو التفريط ،

أو المغالاة ، لأنها مستنبطة من الإسلام المعتدل الذى يكره الإسراف وينهى عنه ، فهى تحرص على توازن الجوانب الإنسانية حتى لا يطغى جانب على حساب جانب آخر ، وتدبروا قول الله تعالى :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنسى نصيبك من الدنيا[1] ..»

فهذه الآية الكريمة جمعت بين المادة والروح فى حياة الإنسان .

ثم انظر إلى قول الله سبحانه « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »[2] .

فهذه سمات أمة الإسلام ، وتلك علاماتها .

إن الثقافة الإسلامية جاءت لتربط الانسان بخالقه الأعظم سبحانه عن طريق القرآن والسنة ، أما عناصرها فتتسم بطابع التيسير والإيجابية ، تستوعب أى ظاهرة من ظواهر الفكر المفيد . فالثقافة بهذه المثابة هى المرفأ ،الأمن الذى تأوى إليه البشرية من عناء النصب خوفا من الانحراف والزلل ، وطمعا فى الاستقامة والاعتدال[3] .

لماذا وصفت الثقافة بالإسلام ؟

تمايزا لها عن غيرها من الثقافات الأخرى التى تعتمد على العقل البشرى المحض الذى يقبل التعديل والتغيير ، أو الزيادة والنقصان .

---

(١) القصص : ٧٧ .

(٢) البقرة : ١٤٣.

(٣) انظر : دراسات فى الثقافة الإسلامية مدخل إلى الدين الإسلامى ص ٢ ومابعدها بتصرف.

ووصف الثقافة بأنها إسلامية دعوة إلى من يدرسها أن يدقق فى معنى الإسلام إذا الإسلام تسليم النفس إلى الحق الذى جاء من عند الله بلسان جميع أنبيائه ورسله من لدن آدم إلى خاتمهم محمد ﷺ .

قال الله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله »[1] .

فعلى المسلم الذى يعيش مع هذه الثقافة أن « يوطن نفسه على أن تكون منقادة للحق الذى تولت رسالات الله الدعوة إليه ورفعت لواءه فى أجيال الإنسانية من أقدم عهودها[2] » التى مرت بها .

(١) البقرة : ٢٨٥ .

(٢) السيد محب الدين الخطيب : منهج الثقافة الإسلامية ص ٩ .

اثر اختلاف الثقافات بين الامم

لكل أمه لغتها كما أن لها ثقافتها ، واللغة روح الأمة وحياتها .

والثقافة فى كل أمة لها لون قومى خاص تستمده من مألوفها ، ومن ذوقها ، ومن مواريثها الأدبية والدينية ومن ظروفها الجغرافية ، ومن ضروراتها الإقليمية ، وحاجاتها الاجتماعية [1] .

ولهذا نرى الثقافة الفرنسية تختلف عن الثقافة الألمانية ، بل نرى الثقافة الإنجليزية تختلف عن الثقافة الأمريكية مع العلم بأن اللغة والأدب بين الأمتين متحدة ، كما نجد الصينيين يتفقون مع اليابانيين فى الكثير من المقومات ، وكانوا بين الحربين العالميتين فى حاجة إلى عنصر قوى يستعينون به لمقاومة الاستعمار المحيط بهم من كل جانب ، ومع ذلك فإن اختلاف الثقافتين أنشب الحرب بين الصين واليابان سنين طويلة قبل الحرب العالمية الثانية وفى خلالها ، ولو لم تكن الثقافة من الفوارق الجوهرية بين الأمم لكان من المعقول أن تتعاون الصين واليابان ، وتتحد وجهتهما ، وكانت تكون منهما حيئذ قوة رهيبة لعلها تكتسح الأمم وذلك ماكان ينذر به امبراطور المانيا قبل الحرب العالمية الأولى ويسميه : « الخطر الأصفر » [2] .

إن « تاريخ الأمم من عناصر ثقافتها آداب الأمة من صميم ثقافتها ، أخلاق الأمة فى كل عصر من عصورها حلقة من سلسلة الأخلاق القومية التى هى من ميراث الماضى ، وقد يكون فى ميراث الأمة من أخلاق ماضيها الكثير من الخير والكثير مما ينافيه ، فعليها أن تصلح بخيرها المتوارث ماينافيه من الأخلاق التى تحتاج إلى إصلاح ، فإذا

---

(١) و (٢) منهج الثقافة الإسلامية ص ١٣ .

حاولت الأمة أن تتنكر للطيب من تراثها الأخلاقي بتطعيمه بأخلاق أجنبية عنها أضاعت نفسها، وفقدت أصالتها، وصارت إلى هجنة [1] تنافي الأصالة، ويحتقرها الأصلاء من أصحاب تلك الأخلاق الأجنبية.

وإليك كلمة حكيمة لبسمارك كان قالها لغليوم الثاني لما كان لايزال ولي عهد الأمبراطورية الألمانية حينما أرسلوه إلى روسيا ليمثل ألمانيا في مناسبة من المناسبات فقد قال له بسمارك: « إنك ذاهب إلى بلاد شرقية، فإذا رأيت الشرقي المتمسك بزيه الأصيل فاعلم أنه لايزال على ميراث من فطرة الشرق وأصالته، وإذا رأيت الشرقي الذي لبس البنطلون تقليدا للغرب، فاعلم أنه فقد مواريثه في الفضائل ولم يكتسب أخلاق الغرب وفضائله [2] ».

---

(١) الهُجنة: غلظ الخَلْق، والهجين من الخيل: ماتلده بِرْذونة من حصان عربي، ومن الناس الذي أبوه عربي وأمه أعجمية. المعجم الوسيط مادة: هجنت.

(٢) منهج الثقافة الإسلامية ص ١٤.

مكانة الدين فى البناء الجديد لحياة الإنسان[1] :

إن الدين فى التشكيل الجديد للحضارة يتعلق بالدستور الطبيعى، وهو صوت الطبيعة الذى ينمو ويتطور بقوة شاعرة. فالهداية التى تلقاها الإنسان منذ بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام تقوم على المقومات التالية:

١ - الحذر من الصراعات المعادية : بعضكم لبعض عدو»[2].

٢ - إدراك عالم الغيب :

وقد أخبر الإنسان بعالم آخر غير مدرك بالقوى المحسوسة، وهو عالم الغيب: «عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم»[3].

وأمور عالم الغيب ليست مخالفة للعقل بل هى ما وراءه[4]، فالعلم والعقل اللذان منحهما الله لإدراك المحسوسات عجزا عن إدراك عالم الغيب فلا غرابة فى ذلك، وهو لا يضيرهما فإنه خارج نطاقهما. وعدم القدرة على إدراك شىء لا يقوم دليلا على عدم وجوده !!.

ومن عادة الإنسان الغريبة أنه يتصدى لتكذيب شىء لا يستطيع فهمه، مع أن هناك أشياء كثيرة وراء طاقات الإنسان وإمكانات عقله. وما قد يكون داخل نطاقه قد لا يكون مفهوما لدى شخص معين أو لدى عصر كامل من العصور[5]. وهو نفسه قد يكون

---

(١) نقلا عن الإسلام تشكيل جديد للحضارة للأستاذ محمد تقى الدين الأمين ص ٤٩.

(٢) البقرة : ٣٦ .

(٣) الحشر : ٢٢ .

(٤) هنا يشير المؤلف إشارة سيجليها فيما بعد إلى الفرق بين مخالفة الأشياء للعقل.. وبين أن يكون الشىء، فوق طاقة العقل.. أو وراء حدود العقل .

(٥) على سبيل المثال فإن كثيرا من مبتكرات عصرنا من المؤكد أن العصور السابقة كانت تعدها ضربا من الأوهام والأباطيل كالطيران، والتلفاز، والمذياع، والهاتف!! .

معروفا مسلما به لدى شخص آخر أو عصر آخر، فاعتبار عدم إدراك شيء ليس دليلا على عدمه، إنما هو محض جهل وغرور، يقول الله تعالى: «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ولما يأتهم تأويله، كذلك كذب الذين من قبلهم» (١) .

٣ - وجوب الإيمان بالغيب :

فالإيمان بحقيقة (عالم الغيب) واجب على المكلف لتدعيم الصلة به، وأهمه وأوله الإيمان بالقوة الربانية، التى لها تأثير فى التكوين النفسى، وبها تتفتح طرق الارتقاء غير المحدودة، وتوجد المطابقة بين التكوين النفسى والتشكيل العلمى(٢).

٤ - الحاجة إلي القوة الربانية :

وهذه القوة الربانية أزلية أبدية، علمها محيط، ورحمتها واسعة، وطاقتها غالبة، وحكمها شامل، وعدلها عام، وربوبيتها ربوبية على الجميع ويتساوى أمام مقاييسها الجميع، كما جاء فى القرآن الحكيم: «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين»(٣).

فالجميع فقراء إليه وهو الغنى، وهو الحكيم الصمد الذى لا شريك له: «قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد»(٤).

إنه فرد فى ذاته وصفاته: «ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير» (٥) .

٥ - أثر الإيمان بهذه القوة :

وبالإيمان بهذه القوة يدرك الإنسان نفسه التى لم تدرك عن طريق السعى

(١) يونس : ٣٩ .

(٢) الإسلام تشكيل جديد للحضارة ص ٦٠ .

(٣) سورة الفاتحة : ٢ - ٤ .

(٤) سورة الإخلاص .

(٥) الشورى : ١١.

(بالوسائل المادية).. ذلك السعى الذى استمر آلاف السنين. ثم بعد هذا الإدارك لا ينحصر نطاق عمل الإنسان فى العالم المادى، بل ترتفع آفاقه نحو عالم آخر سوى عالم المادة، إنه عالم أعلى وأقوى من هذه الدنيا كلها إنه عالم الروح .

٦ - الحياة الدنيوية في الحضارة الغربية :

إن الحضارة الغربية تنظر إلى الحياة الدنيا على أنها مرحلة نهائية للحياة والارتقاء، وليس بعدها إلا الموت والفناء المحض، وبذلك تقتصر العقائد والنظريات والأفكار الأهداف على هذه الدنيا، ولا تمتد إلى عالم آخر، ولا تهدى الإنسان للتطلع إليه !! فعطلت بذلك فكر الانسان فيما وراء الماد فشقى فى الدنيا ، وليس له فى الآخر من نصيب .

فكان الإنسان بقى اليوم فى نفس المنزلة التى كان عليها قبل خمسين قرنا، وكأن نور العلم لم ينجح فى تبديد ظلام الجهل الذى أحاط بذاته، وهكذا كانت تعتقد الجاهلية الإولى عندما نزل نور الإسلام: وقالوا « إن هى إلا حياتنا الدنيا، وما نحن بمبعوثين» [١] وقال فى موضوع آخر: « وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا» [٢] .

٧ - الحياة الآخرة :

بيد أن الإيمان واجب بالحياة الاخرة والعلم الآخر فى تشكيل الإنسان الجديد، (القائم على بناء الإسلام للحضارة)، والوصول إليهما يجب عبور جسر هو الموت، ومعنى ذلك أن الحياة مستمرة لا تنتهى بالموت، بل تنتهى المرحلة الأولى لتبدأ المرحلة الأخرى، وهذه المرحلة ليست غريبة عن الإنسان، بل إنه يعرفها ويشعر بالرجوع إليها يوما ما، هذه الحياة الأخرى مركوزة فى فطرته، ممتدة فى مسيرته: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه رجعون»[٣].

(١) المؤمنون : ٣٧ .

(٢) الإسراء : ٩٨ .

(٣) البقرة : ٢٨ .

وهذه المرحلة ليست مرحلة الماديات، بل هى مرحلة المعنويات التى وراء المادة، وفيها تظهر نتائج الأعمال الإنسانية، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، كما تظهر فى الدنيا خواص الأشياء ونتائج الحوادث: «جزاء بما كانوا يعملون» (١)

وهذه الأعمال الصالحة والسيئة تحفظ خواصها ونتائجها: «وإن عليكم لحافظين، كراما كاتبين، يعلمون ما تفعلون»(٢).

وسائل العلم الغربى :

ومن سوء الحظ أن الغرب لا يملك وسيلة تخبره بما هو كائن بعد الموت، ولا يرجع ميت حتى يخبر بما يحدث بعد الموت !!

ومن ثم فإن وسائل العلم التى يملكها الغرب كلها مختصة بالمحسوسات، وأحوال ما بعد الموت تتعلق بما وراء المحسوسات. وبناء على ذلك يجهل الغرب هذه الأحوال مع نهضته المادية الشاملة. لكنهم فقط « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الاخرة هم غافلون » وينطبق عليهم أيضاً : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (٤).

والإنسان عجول بطبيعته، فحينما لا يستطيع معرفة شىء يسرع فى الحكم عليه بالعدم، ولكنه ينسى أن هذا الشئ الذى يحكم عليه بالعدم سوف يظهر فيما بعد كحقيقة ثابتة صارخة .

ولو أننا أخذنا بهذا المقياس السطحى لانسدّ باب النهضة العلمية قبل قرون، ولما صارت مئات الأشياء التى كان العلم – حينها – يحكم باستحالتها ممكنة موجودة أمام العيون. فكما وقع الآن ما حكم بامتناعه فى الماضى، فكذلك يمكن وقوع ما نعده الآن ممتنعا لأن القياس مضطرد وليس هناك مايمنع اضطراده.

---

(١) السجدة : ١٧ .

(٢) الانفطار : ١٠ – ١٢ .

(٣) الروم : ٧ .

(٤) الإسراء : ٨٥ .

والحق أننا نرى لبعض المفكرين الأوروبيين (كالأستاذ جود وغيره) إشارات تدل على أنهم معنيون بطلب المرحلة القادمة للحياة والارتقاء، وقد وصل بهم الأمر إلى الإيمان بأن المرحلة القادمة للإنسان معنوية لا مادية . ومن ثم بدأ الغرب يرنوا بفكره وبصره نحو الإسلام يمعن فكره ، إما محبا وإما مبغضاً

أ – علم ما وراء المحسوسات :

وفي التشكيل الإسلامي الجديد للحضارة توجد وسيلة علمية توضح المرحلة القادمة، وتستطيع الوصول إلى ما وراء المحسوسات، وهذه الوسيلة هي (الوحي) الذي يجب الإيمان به، وهدايته تتعدى حدود العلم والإدراك، وتمتد إلى ما وراءها .

والعلم الحاصل (بالوحي) لا يكون ظنيا، بل يقينا، وهو يجعل ساكن هذه الأرض عارفا بأسرار السماء: «قل إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير»[1].

والموضوع الحقيقي للوحي هو الإنسان، وبحوثه – في مجملها – تدور حول الحياة الإنسانية التي من مراحلها الموت وما بعد الموت.

ب – أهمية علم الوحي :

إن الحق الذي نؤمن به أنه لو حرمت الحياة هداية الوحي لما عرف الكون، ولا حلت مشكلات الإنسانية المعقدة. ولذلك أخبر الوحي الإنسان بهذه الهداية في البداية، فقال لبني آدم: «فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون»[2].

وقد قيل للإنسان في البداية : «يابني آدم، إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[3].

(١) البقرة : ١٢٠ .
(٢) البقرة : ٣٨، ٣٩.
(٣) الأعراف : ٣٥ .

حـ - علم الوحي وماهية الإنسان:

وبعلم الوحى تعرف أسرار الحياة وماهية الإنسان التى عجز الإنسان عن علمها بالنظر والفكر الماديين، فذهب الإنسان - مختارا أو مكرها - يطبق أصوله ونظرياته الموضوعة على الإنسان الذهنى المتخيل .

أما (أسرار الحياة) فمودعة فى الأوتار الداخلية، وأما (ماهية الإنسان) فإنها تخفى فى إقامة صلتها بقوة شاعرة، فلا يصل إليهما الإنسان الذى اخترعه العقل والهوى، وزيفته الصناعة، وجعله البحث ماديا بحتا [1] .

د - الحضارة والدستور الطبيعي :

والحضارة التى تتشكل حسب (علم الوحى) يعتنى فيها ببناء الشخصية، وبالتصرف فى الكون حسب الدستور الطبيعى .

وبما أن الإنسان يتضمن (المادية والماورائية) [2]، والأمر أمر ذاته التى تعجز فيها طاقاته فى الأغلب، فإنه لابد لبناء شخصيته من هداية غنية عن العقل والتجربة، تصلح لهداية الإنسان فى عالم المادة وما وراء المادة!!

ولو اكتفينا بهداية العقل والتجربة فإن ذلك لا يشمل إلا الجزء المادى، أما الجزء الخاص بما وراء المادة فيتعرض للتوجيه المنحرف، ويجعل الحياة (هاربة من الحياة) والحضارة (مختصرة)، كما تشاهد الآن فى الحضارة الغربية الحديثة!!

وبصرف النظر عن هذا فالمعروف أن العقل والتجربة يتذبذبان بسرعة، ويتغيران فى كل عصر. بل إن التغير يقع بين أفراد عصر واحد ومن أحوال شخص بعينه. فلو

(١) الإسلام تشكيل جديد ص ٢٢٤ - ٢٢٧ بتصرف يسير .
(٢) أى وراء الكون أو الغيب .

اكتفينا بهداية العقل والتجربة فإننا لا نأمن على مصير الحياة والحضارة، وخاصة إذا تعذر التمييز بين ما هو من العقل وما هو من الهوى، وتكون التجارب والآراء معرضة للتلون بلون كل شخص« أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم [1] »

هـ الإنسان والتصرف الكوني :

إن أمر التصرف الكونى أسهل بالنسبة للإنسان، فالإنسان بنفسه حاكم ومتصرف، وبرغباته وحاجاته المتجددة ظهرت النهضات المختلفة ، فإن العقل والتجربة يقومان بالهداية بعد تحديد المركز والأساس الذى تقوم عليه الحضارة، والوعى بالأصول والكليات، ومن ثم يستمر الارتقاء، ففى القرآن الحكيم: «قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة»[2].

و- منبع علم الوحي :

منبع علم الوحى هو القوة الربانية، والاستفادة منها لا تتم إلا بالاستعداد وتربية الجزء الخاص بما وراء المادة. فالذى ينزل عليه الوحى لا يمكنه أن يكون مجرد (ناقل أخبار) على غرار وكالة الأنباء، بل لابد أن يتمتع من البداية ببصيرة مودعة فى جزئه المذكور، ليشاهد بها الغيب، وليدرك الأمور التى يعجز عنها العقل.

وسائل العلم :

تنقسم وسائل العلم إلى قسمين : أولهما الوسائل المادية ، وثانيهما الوسائل غير المادية، أما الوسائل المادية فمركزها الجسم – والوسائل غير المادية مركزها ما وراء الجسم. والأولى تنقسم إلى الحسيات والبديهيات والعقليات وغيرها، وتنقسم الثانية إلى الكشف والإلهام والوحى وغيرها.

---

(١) الجاثية : ٢٣ .

(٢) سبأ : ٤٦ .

وحيث تنتهى حدود الأولى تبدأ الثانية، وحيث تنتهى حدود الثانية تبدأ ما وراء الورى، أى أن نهاية الأولى عند (العقليات) التى مركزها الجسم، ولكنها قريبة جدا من (الماورائية)، ونهاية الوحى، ومركزه (الماورائية) ولكنه قريب جدا من(ما وراء) الورى.[1]

أ – الوحي :

يعتبر الوحى المرحلة النهائية لوسائل العلم غير المادية، وهذه الوسائل غير المادية هى التى تنتهى عندهاجهود الإنسانية، ثم يأتى بعدها – الوحى – مستقى من المنحة الربانية المحضة التى لا أثر فيها لجهد إنسانى، بل هى فضل إلهى محض، وفيما يلى بيان ذلك من القرآن الكريم: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[2] وفى موضع آخر : «الله أعلم حيث يجعل رسالته»[3].

وهذه المنحة الربانية تقتضى ظرفا خاصا، ومتلقيها يكون موضع تربية وعناية ربانية، كما ورد فى القرآن الحكيم: «وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى، واصطنعتك لنفسى»[4].

والمفهوم «القدر» فى الآية هو الظرف الذى يصلح لتلقى الوحى والاندماج فيه، وقال المفسرون فى توضيح معنى «القدر»: قدرنا لك سبيل المعرفة ووقتها، فجئت على ذلك القدر .

وقيل: «على حد من الكمال المقدر بحسب استعدادك».

---

(١) الإسلام تشكيل جديد ص ٢٩ .

(٢) المائدة : ٥٤ .

(٣) الأنعام : ١٢٤ .

(٤) طه : ٤٠ ، ٤١.

والتهيئة الظرف يجب المرور بالحالات التى لا تعرض للآخرين، أو التى لا يستطيعون الصبر عليها، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سئل: «أى الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل».

ومن ذلك كان صوم موسى عليه السلام على (الطور) قبل تلقى الكتاب، وصوم عسى عليه السلام وبقاؤه فى القفر الموحش، وخلاء النبى صلى الله عليه وسلم وعبادته وتنسكه فى غار حراء.

د – الفيض الرباني :

ويبدأ الفيض الربانى (الوحى) بعد التهيئة والتربية وفق نظام خاص، ولا مدخل فى وقوعه للوسائل المادية، والقرآن الحكيم يذكر أساليب وصورا لهذا الفيض فى قوله تعالى: «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم»[1].

وهذا هو الفيض الذى ورد ذكره فى الهداية وفى مخاطبة الجيل الإنسانى البدائى، وبدونه لا يحصل الانسجام بين الإنسان ونظام الكون، ولا يتم التوازن بين المادية والماورائية. فقد ورد فى القرآن الكريم: «أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون»[2].

وأمر الفيض الربانى هذا كان مستمرا فى كل أمة وطائفة، وبه تم أمر الهداية وبناء الحضارة :« لكل قوم هاد»[3]

وقال القرآن فى موضع آخر: «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» [4] .

(١) الشورى : ٥١ .

(٢) آل عمران : ٨٣ .

(٣) الرعد : ٧.

(٤) فاطر : ٣٤ .

وهذا الفيض الربانى كان مستمرا عبر أحقاب التاريخ : «ثم أرسلنا رسلنا تترا». (١) «ما ننسخ (٢) من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها» (٣) . إلى أن بلغت البشرية غاية كمالها بهذا الاستمرار والتطور، فتوقف الفيض، وحدد ما هو إلهى وما هو إنسانى، ونصبت العلامة على حدود الأنوار الماورائية، يقول القرآن الكريم: «ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين»(٤) .

وبالتالى فإن هذا الفيض الإلهى لا يحتمل التبديل ولا التغيير: «لامبدل لكماته»(٥). وذلك لأن التبديل إما أن يكون إلى الأعلى أو إلى الأدنى، والأول لا يمكن لأنه يستحيل تصور ما هو الأعلى منه، وأما الثانى فلا يعقل أن يتقهقر الإنسان بعد الرقى والتقدم !!

والأمر الذى لا شك فيه أن هذا الفيض (الوحى) يكون عند الحد النهائى للبشرية، وله درجات ومنازل، وفى نهايتها معراج كمال الفيض، ولكن مع ذلك فإن كل حامل للوحى يكون بشرا غير مشارك فى القوة الربانية، ولا تتبدل خلقته إلى أعلى أو أدنى، كما فى القرآن الكريم: «قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده»(٦) .

وقد أمر القرآن الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يوضح منزلته الحقيقية فى سائر الأحوال، فقيل له: «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما ألهكم إله واحد»(٧).

(١) المؤمنون : ٤٤ .

(٢) هذا تفسير جديد لمعنى النسخ، وهو تعاقب الرسالات السماوية إلى أن وصلت إلى القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(٣) البقرة : ١٠٦

(٤) الأحزاب : ٤٠ .

(٥) الكهف: ٢٧.

(٦) إبراهيم : ١١ .

(٧) الكهف : ١١٠ .

وفى موضع آخر: «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه»[1] .

والحق أن منزلة (البشرية) هذه دقيقة، وفى الوقت نفسه هى ضرورية لابد منها، فلو لم يكن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى ثوب البشرية لما أمكن لهم الهداية وفق المتطلبات البشرية - من جانب - ولو لم تكن هناك الحدود النهائية التى تأتيهم عن طريق الوحى لما أمكن الأخذ والاستفادة من الهداية الأبدية - من جانب آخر.

ولعل خطورة هذه (المنزلة) هى التى جعلت من الناس من قدسها إلى أن أنزل الرسول منزلة نظير الآله، وجعله بمثابة مظهره وصورته، ثم ابنه[2]، ومنهم من انحط بها إلى أن أنزل الرسول منزلة الكاهن، حتى ولو لم يكن ذلك الكاهن معصوما طاهر الأخلاق!!

حـ- خطورة هذه المنزلة :

منزلة ارتقاء الإنسانية هذه تنتهى حيث يعجز الخلق عن الوصول إلى الغيب فضلا عن (الخلق المادى) ففى الحديث: «ثم رفعت إلى سدرة المنتهى»، وسدرة المنتهى هى الموضع الذى لا يستطيع الوصول إليه خلق آخر: «ولم يتجاوزها أحد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم».

ولكن مع ذلك فإن هذه المنزلة هى (العبْدية) والبشرية، ولا صلة لها بالألوهية، يقول القرآن : «سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا»[3].

---

(١) فصلت : ٦ .

(٢) مثل مذاهب الهند المعروفة كالبوذية والجينية والكونفوشية والمسيحية .

(٣) الإسراء : ١.

وتذكر الآية التالية القُرب من (ما وراء الورى) مع بقاء منزلة العبدية والبشرية: «فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى» (١).

د – قواعد ما وراء الورى :

وبالقرب من ما وراء الورى - الغيب - ترتفع القوانين المادية، وتلغى قيود الزمان والمكان وترفع الحجب، ويتم الأخذ والاستفادة من القوة الربانية مباشرة.

فالظاهر أن وسائل العلم المادية لا تكفى لفهم هذه المنزلة، وإن أية محاولات تبذل للوصول إلى الحقيقة بهذه السوائل لابد أن تعود بالفشل، تماماً مثلما نفشل فى فهم (عقل الانسان) بمحسوسات الحيوان، ولعل القرآن عند هذه النقطة أوجز الكلام فقال: «لنُريه من آياتنا»(٢) .

وفى موضع آخر : «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» (٣) .

ومع أن سلسلة الفيض (الوحى قد انتهت عند هذه المنزلة القصوى لارتقاء البشرية، فإن الحاجة إلى الوحى تبقى دائماً وفى كل عصر، فإن الانسان يميل بطبعه إلى خواص الأجزاء التركيبية، وينشغل بسهولة بآثار الحيوانية ومظاهرها، وقد يشدُّ هذا الانشغال إلى أن يتغير الادراك والشعور فيجد الانسان مرارةً من الحلاوة ، ولذلك فإن الحاجة تبقى ماسةً إلى برنامج منسق يقوم على إثارة القوة النورانية المعنوية والمحافظة على التوازن بين هذه القوة المعنوية والقوة البهيمية. أجَلْ فإن أوتار الحياة لا تحدث الصوت المنشود إلا بضرب الايجابى والسلبى منها !!

ولإحداث هذا الصوت لابد من الوحى، وطالما وجد الانسان على الأرض فإنه سيظل محتاجاً إليه، وفى القرآن الكريم: «هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو

(١) النجم : ٩، ١٠.
(٢) الاسراء : ١.
(٣) النجم : ١٨.

عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة »(١) .

وفى موضع آخر: «لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة »(٢).

وفى موضع ثالث: «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»(٣)

وبما أن الوحى كان لهداية من يأتى إلى يوم القيامة، فقد تولى الله سبحانه وتعالى الحفاظ عليه بذاته، يقول القرآن: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(٤) ثم جعلت الحياة (٥) صاحب الوحى أسوةً؛ ليتجلى هذا الوحى إلى الأبد فى صورة عملية حية متحركة. وقد حوفظ عليها أيضاً: «لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »(٦)

والذين تأسوا بهذه الأسوة جعلت حياتهم أسوةً لمن بعدهم: «ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس »(٧).

وفى موضع آخر : «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً »(٨).

---

(١) الجمعة : ٢ .

(٢) آل عمران : ١٦٤ .

(٣) الحديد : ٢٥.

(٤) الحجر : ٩.

(٥) أى تجلى صاحب الوحى من خلال سلوكه وتطبيقاته لنصوص الوحى، فأصبح أسوة حسنة راجع الاسلام تشكيل جديد للحضارة ص ٧٣ هامش .

(٦) الأحزاب : ٢١.

(٧) الحج : ٧٨.

(٨) البقرة: ١٤٣.

وهكذا يستمر فيض الوحى وأثره، بعد وصوله إلى قمة ارتقائه عند سدرة المنتهى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»[1].

وعندما تجدب الحياة من توجيهات الوحى، ويسود الحرمان منه بتأثير القوى البهيمية تفنى أنشودة الحياة بل تهرب الحياة من نفسها.

والمصير نفسه إذا لم يتم الانتفاع (بالوحى) فى بناء الحضارة والاهتمام بالثقافة (أية حضارة وأية ثقافة) حيث لا يستقيم الاتصال بما وراء الورى؛ وحيث يتعذر تلقى الهداية والانسجام بين ما هو معنوى وما هو مادى، فهنا - عند هذا المفترق- تفقد هذه الحضارة الاعتدال والتوازن وتفقد روحها وتضطر إلى الانتحار[2]. فالإسلام إنما جاء ليكون صمام الأمان للبشرية فهل تعى هذه الحقيقة ؟

(١) آل عمران : ١١٠.

(٢) والآية القرآنية: «ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى» ترجمة لهذه الحقيقة الرائعة الخالدة . من الإسلام تشكيل جديد للحضارة . بتصرف واختصار.

خصائص الثقافة الإسلامية

تمتاز الثقافة الإسلامية عن الثقافات الأجنبية بصفات تجعلها متفردة فى بابها ، حيث إنها تعتمد على المصدرين الأساسين : القرآن الكريم ، والسنة : فالقرآن المصدر الأول للتشريع والسنة هى المصدر الثانى للتشريع .

ومن ثم فإن خصائص الثقافة الإسلامية تقوم على الصفات التالية :ـ

أولاً : إنها ربانية الغاية والوجهة ، بمعنى أن هذه الثقافة تعتمد على الإسلام الذى رضيه الله عز وجل لعباده المسلمين « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا [1] »

فيجعل الإسلام غايته ووجهته :

حسن الصلة بالله تبارك وتعالى ، والحصول على مرضاته ، فالثقافة الإسلامية ليست كغيرها من الثقافات الأخرى التى يقررها تفكير العقل البشرى .

واتصاف الثقافة بالربانية يهدف إلى أمور منها :

أ- أن الإسلام يقوم على الأحكام التشريعية ، والمعاملات الدينية التى يقصد منها تنظيم حياة الناس ، ليبرأوا من الصراع على متاع الحياة ، ويفرغوا لمعرفة الله سبحانه وعبادته والسعى فى مرضاته .

ب- غاية الجهد فى الإسلام : « حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله » [2] .

---

(١) المائدة : ٣ .

(٢) الأنفال : ٣٩ .

جـ- حث الاسلام على المشى فى مناكب الأرض ، والأكل من طيباتها ، والغاية هى شكر الله على نعمه. « كلوا من رزق ربكم واشكروا له [1] » .

د- ماجاء فى الإسلام من تشريع ، وتوجيه ، وإرشاد القصد منه إعداد الإنسان ليكون عبدا خالصاً لله شاكر لأنعمه لا لأحد سواه ، ومن ثم كان روح الإسلام وجوهره هو التوحيد .

فما معني التوحيد ؟

أن يعلم الإنسان علما جازما : أن لا إله إلا الله ، وأن يفرده سبحانه وتعالى بالعبادة والاستعانة ، فلا يشرك به أحدا ، ولايشرك معه شيئاً ، وهذا هو المفهوم من قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » [2] .

ولما خاطب الله سبحانه محمدا ﷺ بهذه الحقيقة أمره أن يبلغها للناس فقال : «قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين ، قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ..لا شريك له [3] » .

إن الإنسان لم يخلق لمجرد الأكل والشرب أو اللهو واللعب ، ثم يموت أو ينفق كما تنفق الدابة ، كلا ، فإن القرآن يقرر هذه الحقيقة بوضوح :

« وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » [4] .

(١) سبأ : ١٥ .
(٢) الفاتحة : ٥ .
(٣) الأنعام : ١٦٣ ، ١٦٤ .
(٤) الذاريات : ٥٦ - ٥٨ .

كما يبين القرآن أن خلق العالم كله علوية وسفلية ، سمائه وأرضه لم تكن الغاية منه إلا أن يعرف الناس ربهم وخالقهم القادر على كل شئ العليم بكل شئ ، وهذه المعرفة هى باب كل هدى ومفتاح كل خير كما يقول سبحانه :

« الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علماً [١] » .

لم يخلق الإنسان إذن لنفسه ، فكل ما فى الكون مسخر لخدمته كما قال سبحانه وتعالى : « ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة »[٢] .

فكل ما فى الكون قد خلق للإنسان ، أما الإنسان نفسه فقد خلق لله جل جلاله لمعرفته وعبادته ، وأداء أمانته فى الأرض ، كفى بهذا شرفا وفخراً ، فهو سيد فى الكون، عبد لخالقه وحده [٣] .

ثانياً : آثار الربانية :

لهذه الربانية آثار نذكر منها :

أ- أن يعرف الإنسان أن لوجوده غاية ، ولحياته رسالة ، ولسيره وجهة ، فيحس أن لحياته قيمة ومعنى ، ولعيشه طعما ومذاقاً ، فليس هو ذرة تافهة ، ولا مخلوقا سائبا ، ولا هو من الذين جحدوا الخالق الأعظم سبحانه ، أو تشككوا فيه .

---

(١) الطلاق : ١٢ .

(٢) لقمان : ٢٠ .

(٣) انظر للدكتور يوسف القرضاوى : الخصائص العامة للإسلام ص ٩ بتصرف ط السابعة .

وعليه أن يقتدى بما قاله القرآن الكريم على لسان إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم . « فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » (١) .

ب- الأهتداء إلي الفطرة :

أى يهتدى الإنسان إلى فطرته التى فطر الله سبحانه الناس عليها ، وهى تتطلب الإيمان بالله تعالى : « فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٢) .

واهتداء الإنسان إلى فطرته ليس أمرا هيناً ، بل هو كسب كبير ، به يعيش الانسان فى وئام مع نفسه .. والحقيقة أن فى فطرة الإنسان فراغاً لا يملؤه علم ولاثقافة ، ولافلسفة ، إنما يملأها الإيمان بالله عز وجل .

وستظل فطرة الإنسان متوترة يملأها الجوع والظمأ حتى تهتدى إلى الله سبحانه وتؤمن به وتتوجه إليه (٣) .

جـ- سلامة النفس من التمزق والصراع :

وهذه أيضاً إحدى ثمرات الربانية فسلامة النفس البشرية من التمزق والصراع الداخلى ، فقد اختصر الإسلام الطريق على الإنسان وجعل غايته الأولى والأخيرة هى إرضاء الله عز وجل وركز همومه فى هم واحد هو العمل على مايرضيه سبحانه وتعالى(٤).

---

(١) الشعراء : ٧٧ - ٨٢ .

(٢) الروم : ٣٠ .

(٣) راجع الخصائص العامة للإسلام ص ١٣ .

(٤) انظر المرجع السابق ص ١٣.

إن عقيدة التوحيد التى يؤمن بها المسلم ، قد منحته يقينا بأن لا رب إلا الله يخاف ويرجى والمؤمن بين الخوف من عقاب الله سبحانه ، والرجاء لعفوه ، يذكر أن الله سريع الحساب ، وأنه شديد العقاب و فيغلب عليه الخوف ، ويذكر أنه غفور رحيم، وأنه أرحم الراحمين ، فيغلب عليه الرجاء ، فإن ملأ قلبه الخوف وحده يكون قد يئس من رحمة الله سبحانه القائل : « أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون »(١) .

وإن ملأ قلبه الرجاء وحده يكون قد أمن مكر الله سبحانه .

مع أنه « .. لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون »(٢) .

والخوف من الله سبحانه ليس كالخوف من مخلوقاته ، فلا يمكن دفع قضائه إذا كتبه عليك ، أما الخوف من المخلوق فيمكنك دفعه بشتى الوسائل .

وينبغى على المؤمن أن يعيش بين الخوف والرجاء ، فإذا وقف فى الصلاة فقرأ « الرحمن الرحيم » استشعر الرجاء ، وإذا قرأ « مالك يوم الدين » أحس بالخوف ، وأكثر المسلمين اليوم غلبوا الرجاء على الخوف والأمل بالعفو على توقى العقاب ، مع أن الله سبحانه إذا قال فى سورة الحجر : « نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم » أتبعها بآية تالية لها مباشرة قائلاً : « وأن عذابى هو العذاب الأليم »(٣) .

على أن المسلم إذا أتى الفرائض ، واجتنب المحرمات يكون من الخائفين المتقين(٤) .

---

(١) يوسف : ٨٧ .

(٢) الأعراف : ٩٩ .

(٣) الحجر : ٤٩ ، ٥٠ .

(٤) راجع للشيخ على الطنطاوى : تعريف عام بدين الإسلام ص ٨٩ ، ٩٠ . ط الثالثة عشر ١٤١٠ -١٩٨٩ دار الوفاء المنصورة .

د- التحرر من العبودية الإنسانية وعدم الإستسلام لمطالبها المادية ورغباتها الشخصية إن الإنسان الربانى يقفه إيمانه بالله وباليوم الآخر موقف الموازنة بين رغبات نفسه ومتطلبت دينه .

فليس الإنسان الربانى هو الإنسان الملاك ، وإنما الإنسان الربانى هو الإنسان الأواب الذى يشعر بالتقصير كلما زلّ ويرجع إلى الله سبحانه كلما أذنب « فإنه كان للأوابين غفورا »(1) .

ليس عجيباً أن يتورط الإنسان - ذكرا كان أو أنثى - فى معصية الله سبحانه ، وتغلبه شهوته وهواه ، فقديما عصى آدم أبو البشرية ربه وغره الشيطان بوسوسته ، حتى ارتكب مانهاه الله سبحانه عنه من الأكل من الشجرة ، ولكنه أناب ، وقرع باب ربه سبحانه بالاعتراف والإستغفار .

« ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »(2) .

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم »(3) .

لقد عصى آدم وعصى إبليس فغفر لآدم ولم يغفر لإبليس لأن معصية آدم كان سببها .الضعف والنسيان « فنسى ولم نجد له عزما »(4) .

ثم كانت التوبة النصوح :

« ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »(5) .

---

(1) الإسراء : ٢٥ .

(2) الأعراف : ٢٣ .

(3) البقرة : ٣٧ .

(4) طه : ١١٥ .

(5) طه : ١١٢ .

أما معصية أبليس فكان سببها الكبر والتمرد على أمر الله سبحانه : « قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين »[1] .

كما أصر على الضلال والإضلال : « قال : فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين »[2] .

إن الإنسان الرباني قد تتاح له الشهوة الحرام .. فيدعها حياء من الله . وقد يتاح له المال الحرام .. فيرفضه راضيا بالقليل قانعاً بالحلال . وقد يتاح له الجاه والمنصب عن طريق غير مشروعة ، فيأبى عليه دينه وينهاه إيمانه أن يسطو على حق غيره . وقد يتاح له التمكن من خصمه ، ولكن ربانيته تأبى عليه تنفيذ ذلك[3] فيقول ماقال يوسف لإخوته : « لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »[4] .

ثالثاً : إنها ربانية المصدر والمنهج :

بمعنى أن المنهج الذى تسير عليه الثقافة الإسلامية ، رسمه الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه منهج رباني خالص ، لأن مصدره وحى الله سبحانه إلى خاتم رسله ﷺ .

ومن مميزات هذا المنهج : أنه لم يأت نتيجة لإرادة فرد ، أو أسرة ، أوطبقة ، أو حزب أو عشيرة .. الخ وإنما جاء لإرادة الله سبحانه ، الذى أراد به الهدى والنور ، والبيان ، والبشرى ، والشفاء والرحمة لعباده الدليل قول الله تعالى :

(١) ص : ٧٦ .
(٢) الأعراف : ١٧ .
(٣) راجع الخصائص العامة للإسلام ص ١٢ ومابعدها بتصرف .
(٤) يوسف : ٩٢ .

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا »[1] .

« ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربك وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين »[2] .

وخطاب الله سبحانه لرسوله ﷺ :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »[3] .

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين »[4] .

« كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد »[5] .

رابعاً : دور الرسول ﷺ فى هذا المنهج :

الله جل جلاله صاحب هذا المنهج ، وواضعه ، ومحدده ، وناصره ، ومن ثم أضافه إليه فيقال « منهج الله » أو « صراط الله » أو « دين الله » .

أ- أما دور الرسول ﷺ : فهو الداعى إلى هذا المنهج والأمين عليه ، والمبين للناس ما اشتبه عليهم من أمره يدل على هذا قول الله سبحانه فى التنزيل العزيز :

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلنا نورا نهدى به من نشأ من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله

(١) النساء : ١٧٤ .

(٢) يونس : ٥٧ .

(٣) الأنبياء : ١٠٧ .

(٤) النحل : ٨٩ .

(٥) إبراهيم : ١ .

الذى له ما فى السماوات ومافى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور »[١] .

وقوله سبحانه :

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى إنى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون »[٢] .

ومن تدبر ماجاء فى التنزيل العزيز ، وجد أن دور الرسول ﷺ ، أنه عبد مأمور تخاطبه قوة أعلى منه محيطة به ، قادرة عليه تملك عتابه ولومه إذا اجتهد فأخطأ فى بعض الأمور ، كما ورد فى قصة ابن أم مكتوم ، وأسرى بدر ، والمنافقين المتخلفين فى غزوة تبوك ودور الرسول ﷺ : دور التلقى بدليل :

« سنقرئك فلا تنسى »[٣] .

ب- ثم دوره ﷺ فى التبليغ والدعوة :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته»[٤] .

ثم التفسير والبيان :

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون »[٥] .

---

(١) الشورى : ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) يونس : ١٥ ، ١٦ .

(٣) الأعلى : ٦ .

(٤) المائدة : ٦٧ .

(٥) النحل : ٤٤ .

أما السنة الشريفة فهي مبينة للقرآن ، وهي نفسها وحي الله : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » . ولكنه وحي غير متلقى ، ولا معجز كالقرآن الكريم ، ولا متعبد بتلاوته .

جـ- ما اجتهد فيه الرسول ﷺ ، فإن الله عز وجل إما أن يقره ، ويثبته عليه ، أو يصححه له ويصوبه .

د- الثقافة الإسلامية تتصف بتقبلها للعلوم والأفكار الصحيحة النافعة ، مثال ذلك :

١- الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت ، وحيث إن الحكمة تنطوي على مختلف العلوم والحقائق ، فعلى المسلم أن يبحث عنها ليقف عليها ويعيها .

٢- إن الإسلام دين العلم ، أي أنه يقوم على التفكير السليم المؤيد بالوحي .

٣- يبغض الإسلام الانكماش والإنحسار عن الأخذ من زاد العلوم الثابتة .. النافعة ، وضرر هذا الانكماش أنه يؤدي بأصحابه إلى الجهل ، والتخلف عن ركب الحياة الحضاري .

٤- يدعو الإسلام إلى العلم والاستفادة من معانية وحقائقه ، وينهى عن الإدبار عنه وعدم الاستفادة منه : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » .

والمراد : بالعلم مايرفع الجهل ، وينمي العقل ، وينبه ملكات النفس ، ويكشف الحقائق الموجودة في الكون ودليلنا على ذلك لفت القرآن للناس إلى البحث عن أسرار الكون ، وهو مستقر كل علم ومستودع كل سر كقوله سبحانه : « قل انظروا ماذا في السماوات والأرض »[1] .

---

(١) يونس : ١٠١ .

وقوله سبحانه : « وكأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »[1] .

« وقل ربى زدنى علما »[2] .

٥- تدعو الثقافة الإسلامية بتدبر كل حكمة[3] نافعة ورأى سديد بمنظار من التقدير والاحترام ، ومن ثم فإن من تعلم لغة قوم أمن من مكرهم .

ومن ثم كان لرسول الله ﷺ كُتَّاب يكتبون الرسائل إلى الملوك والأمراء والأكاسرة والقياصرة فعلام يدل هذا ؟ يدل بدون ريب على أن الثقافة تتقبل كل نافع مفيد ، وما دور الترجمة عن هذا القصد ببعيد .

ثم ترجمة معانى القرآن الكريم ، ومعانى الأحاديث الشريفة إلا من هذا الباب ، وترجمة الكتب الأخرى المفيدة تؤدى إلى ما عند القوم من علم نافع يستفيد منه المتعلمون فإن كان فاسدا علم فساده ووجب تجنبه .

(١) يوسف : ١٠٥ .
(٢) طه : ١١٤ .
(٣) ولو كانت من لغة العجم .

الفرق بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأجنبية

الثقافة الإسلامية تستمد أصولها ، وآفاقها ، وملامحها من :

القرآن والسنة : ومن المصادر المنبثقة عنهما مثل :

الإجماع ، القياس ، الاستحسان ، المصالح المرسلة ، سد الذرائع الاستصحاب[1] . الحيل الشرعية وكل من هذه الأمور حجة شرعية في إفادة الدليل عند جمهور العلماء .

---

(١) وإليك نبذة عن هذه المصادر :

الإجماع : ثالث الأدلة الشرعية عند جمهور المسلمين دليله : قول الله سبحانه : « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » النساء ١١٥ .

ووجه الدلالة « غير سبيل المؤمنين » أى السبيل الذى هم عليه من الدين ، لأن الله تعالى جمع بين أتباع غير سبيل المؤمنين ، وبين مشاقة (مخالفة) الرسول ﷺ فى الشرط وجعل جزاءه الوعيد الشديد ، فكان اتباعهم واجبا كموالاة الرسول ﷺ .

« نوله ماتولى » .

نجعله واليا لما تولى من الضلال ، وندعه وما اختاره فى الدنيا فيكون عقاب من ترك الإجماع الإصلاء فى جهنم ، وساءت مصيرا ، تفسير النسفى جـ١ ص ٢٥١ الحلبى . والفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين تاليف سليمان عمر العجيلى الشهير بالجمل جـ ص ٤٢٥ ط . الحلبى . بدون تاريخ .

أما دليل السنة : ماورد فى الحديث : « لا تجتمع أمتى على ضلالة » رواه الترمذى وله طرق لا تخلو من مقال ، ولكن بعضها يقوى بعضاً .

تعريف الإجماع لغة : هو مصدر أجمع بمعنى العزم ومنه « فاجمعوا أمركم » أى اعزموا .

واصطلاحا : اتفاق المجتهدين من أمة محمد ﷺ فى عصر من العصور على أمر من الأمور

=

ومن التوضيح الآتى يظهر الفرق بين الثقافتين :

أ- ترتكز ثقافة الإسلام على الإيمان بالغيب ، والحث على التفكر والبحث العقلى القائم على التجربة .

أما الثقافة الأجنبية فتنكر الغيب ، وتهدف بمذاهبها الجديدة جر البشر خلفها حتى تبعدهم عن الدين الذى سوف يموت تلقائيا فى تصورها .

=

الشرعية بعد وفاة النبى ﷺ فالحكم العادى أو العقلى لا مدخل له هنا إذ البحث فى الإجماع كدليل من أدلة الشرع الشريف .

والإجماع : قطعى ، وظنى فالقطعى : مايعلم وقوعه من الأمة بالضرورة ، كالإجماع على وجوب الصلوات الخمس ، تحريم الزنا .. والربا .. الخ

والظنى : ملا يعلم إلا بالتتبع والإستقراء ، وقد اختلف العلماء فى إمكان ثبوته ، وأرجح الأقوال ماذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله . حيث قال فى العقيدة الواسطية :

والإجماع الذى ينضبط ماكان عليه السلف الصالح إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة - راجع الأصول من علم الأصول ص ٤٤ ط الرابعة ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

ومن ثم كان الإجماع عند علماء الأصول : هو اتفاق أهل الحل والعقد من علماء هذه الأمة فى أمر من الأمور الشرعية ومعنى الاتفاق : الاشتراك إما فى القول أو الفعل أو الاعتقاد . وأما أهل الحل والعقد : فهم المجتهدون فى الأحكام الشرعية ويعتبر الإمام مالك ان الأمر المجتمع عليه سند يسوغ له أن يفتى به وقد ورد الاحتجاج به كثيرا في كتاب الموطأ فى المسائل التى لايعتمد فيها على النص .

ومن أمثلة الإجماع :

ماجاء فى ميراث الأخوة لأم فقد جاء فى الموطأ : قال مالك الأمر المجتمع عليه عندنا أن الأخوة للأم لا يرثون مع الولد ، ولامع ولد الإبن ذكرانا كانوا أو إناثا ، ولا يرثون مع الأب ، ولا مع الجد أبى الأب شيئاً ، وأنهم يرثون فيما سوى ذلك ، يفرض للواحد منهم السدس ذكرا كان أو أنثى ، فإن كانا اثنين فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث يقتسمونه بينهم بالسواء للذكر مثل حظ الأنثى .

=

ب- تقوم ثاقة الإسلام فى وجودها الحق على وجود الله تبارك وتعالى ، فوجوده من أوجب الواجبات « أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون » الطور : ٣٥ ، ٣٦ .

أما الثقافة الأجنبية ، فلا تعترف بغير الوجود المادى ، أى هى ثقافة الحادية لا تؤمن بإله ولا بنبوة ، ومن ثم لا تعترف بتكاليف ولا عبادات شرعية .

=

أما سند الاجماع فقد اتفق العلماء - كماسبق - أنه يجوز أن يكون نصا من الكتاب أو السنة متواتره ، أو ظاهرا من الكتاب أو خبر (احاد) ، ومايكون ظنيا فى دلالته أو ثبوته إذا كان سندا للإجماع ، وانعقد الإجماع على الحكم ، بمقتضاه أصبح الحكم بذلك قطعيا ، راجع : الأمام مالك : حياته ، وأراؤه ، وفقهه جـ٢ ص ١٨١ ، ١٨٢ د/ محمود عبد المتجلى خليفة عضو لجنة الفتوى بالأزهر . ذو القعدة ١٤١٣ هـ . هدية من مجلة الأزهر ، وراجع للشيخ مناع القطان التشريع والفقه فى الإسلام ص ٣١١ ومابعدها ، مؤسسة الرسالة . بيروت ط الثالثة ١٤٠٢ - ١٩٨٢ .

القياس : رابع الأدلة الشرعية . تعريفه لغة : التقدير والمساواة أى تسوية شئ بشئ آخر بمثاله ، واصطلاحا : حمل معلوم على معلوم لمساواته فى علة حكمه عند الحامل ، أو تسوية فرع بأصل فى حكم لعلة جامعة بينهما ، فالمعلوم ، أو الفرع هو المقيس ، والأصل : هو المقيس عليه .

مثاله : « فإن أتين بفاحشية فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب » أى : إلا ماء والآية من سورة : النساء : ٢٥ .

وما جاء فى (الموطا) من : أن مالكا رحمه الله تعالى سئل عن الحائض تطهر فلا تجد ماء هل تتيمم ؟ قال : نعم ، لتتيمم ، فإن مثلها مثل الجنب إذا لم يجد ماء تيمم، فمالك رحمه الله هنا يقيس الحائض حين تطهر على الجنب فى التيمم ، عند فقد الماء الذى ثبت بالنص القرآنى فى قوله تعالى:

« أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا » النساء : ٤٣ .

ومن الأدلة : قول الله تعالى : « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان « الشورى : ١٧ .

والميزان : ماتوزن به الأمور ، ويقايس به بينها .

وقوله سبحانه : « كما بدأنا أول خلق نعيده » الأنبياء : ١٠٤ .

=

فهى بهذا الموقف عطلت الجانب الروحى فى الإنسان .

جـ- أما ثقافة الإسلام فترتكز على المعرفة اليقينية التى جاء بها الوحى الذى « لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ، فصلت : ٤٢ .

« كتاب أحكمت أياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » هود : ١ .

=

فشبه الله سبحانه إعادة الخلق بابتدائه .

« الله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » . فاطر : ٩ .

شبه الله سبحانه إعادة الخلق بابتدائه ، وشبه إحياء الأموات بإحياء الأرض وهذا هو القياس . راجع الأصول من علم الأصول ص ٤٦ .

أما السنة : فقوله ﷺ لمن سألته عن صيام أمها بعد موتها :

« أرأيت لو كان على أمك دين قضيته أكان يؤدى ذلك عنها ؟ قالت : نعم قال : فصومى عن أمك» متفق عليه .

ولما جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله ولد لى غلام أسود فقال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم ، قال : ما ألوانها ؟ قال حمر ، قال هل فيها من أورق ؟

قال : نعم ، قال : فأنى ذلك ؟ قال : لعله نزعه عرق ، قال : فلعل ابنك نزعه عرق . متفق عليه .

وهكذا يتضح أن القياس اعتبار الشئ بنظيره .

ومن أقوال الصحابة : ماجاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى كتابه إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى القضاء . قال : الفهم الفهم فيما أدلى عليك مما ورد عليك مماليس فى قرآن ولا سنة ، ثم قايس الأمور عندك ، واعرف الأمثال ، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله ، وأشبهها بالحق .

قال ابن القيم رحمه الله : وهذا كتاب جليل تلقاه العلماء بالقبول .

وحكى المزنى : أن الفقهاء من عصر الصحابة إلى الآن أجمعوا على أن نظير الحق حق ، ونظير الباطل باطل ، واستعملوا المقاييس فى الفقه فى جميع الأحكام . راجع الأصول من علم الأصول ص٤٧ .

=

أما المعرفة المعتبرة فى الفكر الغربى فهى المعرفة التجريبية ، والعقلية وفى بعض المدارس المذهبية تضاف المعرفة الحدسية .

أما الوحى العاصم فلا مكان له عندهم بوصفه مصدر المعرفة الاعتقادية والشرعية والأخلاقية ، فهم قد نفضوا أيديهم منه .

=

ومن ثم فإن القياس فى الفقة الإسلامى هو : إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه لعلة جامعة بينهما مشتركة فيهما .

فهو من باب الخضوع لحكم التماثل بين الأمور الذى يوجب التماثل فى أحكامها ، لأن قضية التساوى فى العلة أوجدت التماثل فى الحكم ، فكان لابد من التساوى فيه .

وإذا كانت المسائل لا تتناهى ، والحوادث تقع كل يوم ، فلا بد من فهم النصوص وتعرف مراميها القريبة والبعيدة وإشاراتها وإيماءاتها إلى علل الأحكام ، والبواعث لشرعيتها ليمكن أن يصل الى سعة شمولها ، فيعرف حكم مايقع مما لم يرد فيه سنة مشهورة ، ولافتوى عن الصحابة ، ولا يشمله ظاهر عموم النص ، وإن كانت الغاية من النص تومئ إليه ، والعلة الباعثة تشير إليه أو تعرف به .

لذلك كان القياس أمر لابد منه ... وإذا كان الفقه فى أدق معانيه هو نفاذ بصيرة الفقية لتعرف المراد من الألفاظ الدالة على الأحكام ، فمعرفة عللها وتعرف غاياتها هو من هذا الباب .. فالتماثل بين الأمور يوجب التماثل فى أحكامها ، والتساوى بين الأشياء ذوات الخصائص الواحدة يوجب التساوى فيما تحمل من أحكام.

راجع : الإمام مالك : حياته وآراؤه ، وفقهه جـ ٢ ص ١٨٥ ، ١٨٦ ، د. محمود عبد المتجلى خليفه عضو لجنة الفتوى بالأزهر ذو القعدة ١٤١٣ هـ .

وحيث ضاقت دائرة الأخذ بالحديث كان التوسع فى الأخذ بالقياس ، حتى أن الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه ، كان يعمل رأيه فى المسألة ويجتهد فى استنباط حكمها دون أن يتقيد بقول سابق للصحابة أو التابعيين ، مالم يتبين له صحة من نقل عن رسول الله ﷺ ، فقد روى عنه قوله : « إنى آخذ بكتاب الله إذا وجدته ، فمالم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله ﷺ ، والآثار الصحاح عنه التى فشت فى أيدى الثقات فإذا لم أجد فى كتاب الله ولا سنة رسول الله أخذت بقول من شئت من أصحابه ،

=

د- تقوم ثقافة الإسلام على أن حقائق الدين ثابتة ، لا تتغير ولا تتبدل . أما فى الفكر الغربى فهم يعتقدون بأن كل شئ يتطور ويتغير .

هـ- تتسم ثقافة الإسلام بأنها تؤمن بالبعث بعد الموت وبالحساب أما فى ثقافة الغرب وأفكارهم فقد كفروا بذلك منذ زمن بعيد مما سبق يتضح الفرق بين الثقافتين : الإسلامية والأجنبية من العقيدة .

=

وادع من شئت ، ثم لا أخرج من قولهم إلى غيرهم ، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم ، والشعبى ، والحسن ، وابن سيرين وسعيد ابن المسيب ، فعلى أن أجتهد ما اجتهدوا » ، نقلا عن التشريع والفقة فى الإسلام . ص ٢٧٢ .

الاستحسان : يعد الإستحسان أصلا من أصول الأدلة عند أبى حنيفة ، وبالغ بعض علماء الأحناف فقالوا إن المجتهد له أن يستحسن عقله ، لكن المتأخرين منهم على أن الإستحسان عبارة عن دليل يقابل القياس الجلى الذى تسبق إليه الأفهام ، ومثاله مانص عليه فقهاء الأحناف من أن الواقف إذا وقف أرضا زراعية يدخل حق المسيل ، وحق الشرب ، وحق المرور فى الوقف تبعاً بدون ذكرها استحسانا .

والقياس : أنها لا تدخل إلا بالنص عليها كالبيع ، ووجه الاستحسان : أن المقصود من الوقف انتفاع الموقوف عليهم ، ولا يكون الانتفاع بالأرض الزراعية إلا بالشرب والمسيل والطريق ، فتدخل فى الوقف بدون ذكرها ، لأن المقصود بالإنتفاع بها كالإجارة . راجع التشريع والفقة فى الإسلام ص ٢٧٢ .

فالاستحسان : هو الأخذ بمصلحة جزئية في مقابل دليل كلى . وليس المراد مطلق مصلحة ، بل المصلحة التى تجعل الاستدلال بها أقوى أى أن الاستحسان هو العمل بأقوى الدليلين .

المثال : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » البقرة : ١٨٥ .

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج » الحج : ٧٨ .

وفى الحديث : « لا ضرر ولا ضرار » . رواه مالك فى الموطأ وابن ماجه .

والدين جاء لصالح الناس فى الدنيا والآخرة ، فيكون الأخذ بالاستحسان هو لب الإسلام وصميم فقهه .

=

أما فى الجانب الأخلاقى فتتسم الفضيلة الخلقية فى الإسلام بالإيثار وقد وردت الآيه الكريمة توضح هذا الأمر :

« والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » الحشر : ٩ .

أما الأخلاق فى الثقافة الأجنبية فإنها تمجد الأنانية ، والفردية ، والنفعية .

و- أما فى الجانب الاجتماعى ، فإن الثقافة الإسلامية تقوم على بناء المجتمع الإنسانى الذى يتسم بالأخوة الصادقة التى لاتنظر إلى اللون ، أو العرق ، كما لاتعرف العنصرية ولا القبلية .

=

ومن الأمثلة أيضاً تضمين الصناع فى الأعيان بصفتهم .

وتضمين الحمالين للطعام والإدام دون غيرهم ، لأن الصناع يمكنهم تغيير المصنوع فلا يعرفه صاحبه .

والطعام يكثر الطمع فيه ، ولشدة تعلق النفس به قد تمتد إليه اليد . ومن الأمثلة أيضاً :

القرض : فإنه فى الأصل ربا ، لأنه مبادلة النقود بالنقود إلى أجل ، ولكنه أبيح استحسانا ، لما فيه من الرفق والتوسعة بين الناس .

ومنها الاطلاع على عورات الناس فى التداوى ، فإن القاعدة العامة فى العورات تحريم رؤيتها ، ولكن استحسنت لدفع الضرر والضرورة .

ومنها المزارعة والمساقات :

فإن القاعدة العامة توجب منع عقودها لجهالة المبدل فيهما ولكن استحسنت استحسانا .

فالمزارعة : الشركة فى الزرع .

والمساقات إعطاء الحديقة لمن يعمل فيها على جزء محدد من ثمارها كثلث أو ربع . ومن الأمثلة الجلية فى الاستحسان أيضاً المسألة المشتركة فى الميراث : وهى : توفيت زوجة عن : زوج ، وأم ،

=

« إنما المؤمنون إخـو فـأصلحـوا بين أخـويكم واتقـو الله لعلكم ترحـمـون » الحجرات: ١٠ .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » الحجرات : ١٣ .

« ليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى » .

أما فى الثقافة الأجنبية فهم يحتضنون القومية والعرقية ، والتفرقة العنصرية .

ز- الثقافة الإسلامية تبيح تعدد الزوجات وتدعو إلى الحياء ، وصون العفة وتحريم الزنا واتخاذ الخليلات .

أما فى الثقافة الأجنبية فهم يحرمون تعدد الزوجات ، ويتخذون الخليلات وإباحة الزنا ، واللواط ، والسحاق !!! حتى كثرت فيهم الأمراض الخبيثة كالسيلان والزهرى ، وطاعون العصر : مرض الإيدز . وقانا الله وإياكم شره .

=

واخوين لأم ، واخوين شقيقين : فالقياس : للزوج النصف فرضاً وللأم السدس فرضاً ، وللأخوين لأم الثلث ولاشئ للإخوة الأشقاء ، لأنهما من العصبة التى ترث مابقى بعد أصحاب الفروض ، ولم يبق لهم شئ مع أنهما مشتركان مع الأخوين لأم فى ولادة الأم ، فكان غريبا ألا يأخذوا شيئا والأخوان لأم يستبدان بالثلث ، لذلك اشركهم عمر رضى الله عنه معهم فى الثلث باعتبار أن الجميع أولاد أم واحدة فكان ذلك استحسانا منه رضى الله عنه ، وبذلك سن سنة الاستحسان المقيم للعدالة لدفع الحرج .

راجع الأمام مالك : حياته ، آراؤه ، وفقهه ص ١٨٧ ومابعدها .

سد الذرائع :

الذرائع : جمع ذريعة ، وهى الوسيلة إلى الشئ هذا عند القرافى فى « الفروق » أما عند الشاطبى فهى : « التذرع بفعل جائز إلى عمل غير جائز ، وكل ما ورد فى معناها يؤول إلى ماكان ظاهر الإباحة ، ويتوصل به إلى فعل محظور .

=

ح- أما في الجانب الاقتصادى : فقد أولاه الإسلام الاهتمام فأحل البيع ، وحرم الربا بقصد القضاء على جريمة أكل أموال الناس بالباطل ، كما أباح القرض الحسن .

« من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » البقرة : ٢٤٥ .

=

والمراد بسد الذريعة :

الحيلولة دونها ، والمنع فيها ، لأن مايؤدى إلى المفسدة – وإن كان مباحا – يكون مفسدة ، فيجب الامتناع عنه ، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، ولما أكثر الإمام مالك رضى الله عنه بالعمل بسد الذرائع اعتبره بعض العلماء أن العمل بها من خصوصيات مذهبه .

يقول الشاطبى فى الاعتصام : كان مالك رحمه الله شديد المبالغة فى سد الذرائع ومن الأمثلة على ذلك قوله لمن رأى هلال شوال وحده ألا يفطر لئلا يكون ذريعة إلى إفطار الفساق محتجين بما احتج به ، ولما هم أبو جعفر المنصور بأن يبنى البيت وفق مارواه ابن الزبير على قواعد إبراهيم ، شاور مالكا فى ذلك فقال له مالك أنشدك الله ياأمير المؤمنين ألا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك ، لا يشاء أحد منهم أن يغيره لا غيره ، فتذهب هيبته من قلوب الناس فصرفه عن رأيه لما ذكر من أنها تصير سنة متبعة .

راجع الموطأ والمدونة الكبرى ، وراجع التشريع والفقة فى الإسلام للشيخ مناع القطان ص٢٩٤.

ولما كان الإمام مالك رحمه الله كثير الاستنباط الفقهى .

فكان يعتمد على موضوع « سد الذرائع » .

والذريعة معناها الوسيلة إلى الشئ .

ومعنى سد الذرائع رفعها فوسيلة المحرم محرمة ، ووسيلة الواجب واجبة ، فالفاحشة حرام ، والنظر إلى عورة الأجنبية حرام ، لأنه يؤدى إلى الفاحشة ، والجمعة فرض والسعى إليها فرض أيضاً، والحج ، والسعى إلى البيت الحرام وسائر مناسك الحج فرض لأجله .

القرآن وسد الذرائع : قال الله تعالى : « ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » الأنعام : ١٠٨ .

=

وأمر بإنظار المعسر « وأن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة » . البقرة : ٢٨٠ .

كما أمر بإعطاء كل وارث حقه من تركة المورث فقال سبحانه « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا » النساء : ٧ .

=

يروى أن المشركين : قالوا : لرسول الله ﷺ لتكفن عن سب آلهتنا ، أو لنسبن إلهك .

وقوله سبحانه : « ياأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » البقرة : ١٠٤ .

فقد كان قصد المسلمين حسنا ، ولكن اليهود أخذوه ذريعة إلى شتمه عليه الصلاة والسلام لأن الكلمة سب من الرعونة ، وهى الحماقة والجهل ، وقلة العقل .

السنة وسد الذرائع :

منها ماورد عن كف النبى ﷺ من قتل المنافقين ، لأنه ذريعة إلى قول الكفار : إن محمدا يقتل أصحابه .

ومنها أن النبى ﷺ نهى المقرض عن قبول الهدية من المدين إلا أن يحسبها من الدين .

والنهى عن ذلك حتى لاتتخذ ذريعة إلى تأخير الدين لأجل الهدية ، فتتحول إلى ربا لأنه يعود إليه ماله ، وقد اكتسب الفضل الذى آل إليه بالإهداء .

ومنها أن النبى ﷺ نهى أن تقطع الأيدى فى الغزو لئلا يكون ذريعة إلى هروب المحدود إلى معسكر الأعداء فرارا من الحد .

ولأجل هذا المعنى لاتقام الحدود فى الغزو حتى لاتدفع حرارة القرب إلى أرض الضلال وهو منها قريب .

فالذرائع ينظر فيها إلى نتائجها ، فإن كان فسادا وجب منعها ، لأن الفساد ممنوع فيمنع مايؤدى إليه .

وإن كان مصلحة طلب الأخذ بها ، لأن المصلحة مطلوبة ويسمى ذلك فتح باب الذرائع كما يسمى الأول سد باب الذرائع .

ومن هنا كان وجوب الصناعات باعتبارها ذرائع لمصالح الناس التى يقوم عليها شأن العمران ، ووجوبها على سبيل الكفاية لا على أنها فرض عين .

=

أما الثقافة الأجنبية ، فقد أباحت الربا ، وشيدت اقتصادها على المعاملات الربوية ، وعلى ماتستنزفه من الدول التى استعمرتها ، وأعطيت الميراث لأكبر الأولاد .

ط- ترتبط الثقافة الإسلامية باللغة العربية لغة القرآن ، وبفهمها وإتقانها يفهم القرآن ، وبجهلها يضيع على المسلمين الكثير من الخير والفضل العظيم .

=

انظر : الإمام مالك .. ص ١٩٦ ومابعدها باختصار ، ومن أراد المزيد فليرجع إلى أصل المذهب فى فقه الإمام مالك .

المصالح المرسلة :

أصل من أصول مذهب الإمام مالك التى اعتمد عليها وهى :

جلب منفعة ، أو دفع مضرة لم يشهد لها الشرع بإبطال ولا باعتبار معين ، لأن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها فى الخلق ضرورية كانت أم حاجية ، أو تحسينية ، والضرورية هى التى لا بد منها فى قيام مصالح الدين والدنيا فى الضروريات الخمس الثابتة فى الملل جميعا وهى :

حفظ الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال ، والعقل ، أما الحاجية فهى التى تؤدى إلى رفع الضيق والحرج ، والمشقة ، أما التحسينية فهى المتعلقة بمكارم الأخلاق ، وكون هذه المعانى مقصودة عرف بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة ، مما يدل على مقاصد الشرع ، ولهذا ذهب الإمام مالك إلى أن هذه المصلحة تكون حجة .

يقول الشاطبى فى الاعتصام إن مالكا يكثر من بناء الأحكام عليها ، فهى معتبرة فى مذهبه .

ومن الأمثلة : قول مالك فى الزعفران المغشوش ، إذا وجد بيد الذى غشه قال يتصدق به على المساكين قل أو كثر .

ويقول الشاطبى : إنه يماثل إراقة عمر للبن المغشوش بالماء ، ووجه ذلك التأديب للغاش ، وهذا التأديب لانص يشهد له لكن من باب الحكم على الخاصة لأجل العامة ومن ذلك إجازة بيع المفضول مع وجود الأفضل إذا خيف اضطراب أمور الناس ، وعدم إقامة مصالحهم ، إذا لم يبايع المفضول عندئذ.

انظر : التشريع والفقه فى الإسلام تاريخا ومنهجا ص ٢٧٢ . ومن أراد المزيد فليرجع إلى أصل المذهب فى فقه الإمام مالك إذن فالمصالح المرسلة من قواعد الاستنباط عند الإمام مالك رضى الله عنه

=

وأصحاب الثقافات الغربية والأجنبية يحاولون جاهدين أن نهجر اللغة العربية إلى العامية، أو إلى أى لغة أخرى ، وهناك محاولات لتغيير العادات الإسلامية وإحلال العادات الأجنبية محلها مثل أساليب الطعام ، والسلام ، والتحية ، والأعياد ، والعطلات ، والعلاقات بين الأسر .. ، وحفلات الزفاف ، وما يسبقها من خطبة وشبكة .. الخ .

ومن هذه الفروق بين الثقافة الإسلامية والثقافة الأجنبية ، يتضح أن الثقافة الإسلامية تعتمد على مبادئ وقيم ، وكلها تستند إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ولهذا يركز جانب كبير من المفكرين الأجانب على الدعوة إلى الإلحاد ، ويشد أزرهم جانب آخر من المستغربين المحليين .

= ، وتسمى أيضاً بالاستصلاح ، وهى المصالح التى لم يشهد لها – من الشرع – بالبطلان ، ولا بالاعتبار نص معين ، وكانت ترجع إلى حفظ مقصود شرعى يعلم كونه مقصودا بالكتاب أو السنة ، أو الإجماع .

ولاخلاف فى اتباعها إلا عند تعارضها مصلحة أخرى .

مثال ذلك : زوجة المفقود إذا لم يعلم موته ولا حياته وانقطعت أخباره ومكثت زوجته سنين وتضررت بالعزوبة .

قضى مالك بأنها تتزوج – بعد أربع سنين من انقطاع الخبر – بعدما تعتد عدة وفاة أربعة أشهر وعشرا .

فقد رجح مالك مصلحة الزوجة على مصلحة الزوج الغائب .

مثال آخر : المرأة إذا طلقت وكانت من ذوات الحيض ، وامتد طهرها ، أفتى مالك بأنها تعتد بثلاثة أشهر بعد مضى مدة الحمل الغالبة وهى تسعة أشهر فالمجموع سنة ، راعى فى ذلك مصلحة الزوجة لئلا تتضرر بطول المدة وقدم العمل بذلك على ظاهرة قوله تعالى :

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » ، البقرة : ٢٢٨ .

عمل المصالح المرسلة : مقصور على العادات لا فى العبادات ، لأن الأصل فيها التعبد .. أما العادات فهى ماتتصل بمعاملة بنى الإنسان بعضهم مع بعض فالأصل فيها هو الألتفات إلى المعانى والبواعث التى شرعت من أجلها الأحكام ، فإن التكاليف فى هذه الأمور إنما كانت لتكوين مجتمع فاضل أساسه العدل والفضيلة .

والمصالح المرسلة تخضع لقيود منها : =

فلنضع نصب أعيننا خطر الإلحاد على المجتمعات الإسلامية والعربية ، وأن هدف الثقافة الوقوف أمام هذا الخطر حماية لعقيدة الإسلام ودعوته .

الفكر الثقافى الغربى :

وإليك نماذج من الثقافات الأجنبية : يعتمد الفكر الغربى المعاصر على المذاهب الإجتماعية البشرية ، وهى مذاهب يغلفها ويحشوها الانحراف والهوى ، فالنظام الاقتصادى يعتمد على الفكر الرأسمالى الفردى ، أما الفكر الماركسى ، فيعتمد على الفكر الجماعى مع إباحة الربا فى كل ، أما فى نظام التربية ، فيقوم على فصل الدين والأخلاق عن مفاهيم التربية والتعليم ، أما فى النظم السياسية فتعتمد على فصل الأخلاق عن السياسة.

=

الأول : المواءمة بين المصلحة التى أخذ بها وبين مقاصد الشرع .. بحيث لا تتنافى أصلا من أصوله ، ولا دليلا من أدلته . القطعية .. بل تكون قريبة من المصالح قصدها الشارع . أو من جنسها وليست غريبة عنها .

الثانى : أن تكون معقولة فى ذاتها ، بحيث إذا عرضت على أهل العقول كانت مقبولة لديهم .

الثالث : أن يكون فى الأخذ بها رفع حرج لازم فى الدين ، وإلا وقع الناس فى حرج والله سبحانه وتعالى يقول :

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج » الحج : ٧٨ .

هذه القيود لابد من مراعاتها حتى لاتسير أمور الناس على مقتضى الشهوات والأهواء ، واللجوء إلى هذه المصالح لا يخالف نصا مقطوعا به إلا للضرورة الملجئة فإن حال الأضطرار تجيز إسقاط بعض الواجبات اللازمة فى حال الاختيار وذلك ثابت بالنصوص القاطعة ، راجع : الإمام مالك : حياته وأراءه ، وفقه جـ٢ ص ١٩٣ ومابعدها ، ومن أراد الإستزادة فليرجع إلى أصول المذهب فى فقه الإمام مالك .

الاستصحاب :

من قواعد استنباط الأحكام عند الإمام مالك رضى الله عنه الاستصحاب ، فهو يأخذ به ويجعله حجة .

=

أما فى الجانب الأخلاقى : فهو عبارة عن قيم ذاتية منفصلة عن الدين وليس لها إلزام خلقى ، أما عن الفن : فهو عبارة عن انطلاق كامل من مختلف القيود الأخلاقية والاجتماعية .

=
والاستصحاب : هو استدامة إثبات ما كان ثابتاً ، أو نفى ماكان منفيا أى بقاء الحكم الثابت نفيا أو إثباتا حتى يقوم دليل على تغيير الحالة .

فهذه الاستدامة لم تثبت بدليل إيجابى ، بل ثبتت لعدم وجود دليل مغير . فهو اعتقاد كون الشئ فى الماضى أو الحاضر يوجب ظن ثبوته فى الحال أو الاستقبال .

الأمثلة :

من ثبتت له الملكية بسبب من أسبابها بالبيع أو الميراث فإن الملكية تستمر إلى أن يوجد ماينفيها .

ومثل من علمت حياته فى زمن معين ، فإنه يغلب على الظن وجوده فى الحاضر والمستقبل حتى يقوم الدليل على غيره ، فيحكم باستمرار حياته حتى يوجد مايثبت الوفاة ، فالمفقود يحكم بحايته حتى يوجد مايثبت الوفاة ، أو تقوم الأمارات التى توجب غلبة الظن بأنه توفى ويحكم القاضى بالوفاة .

الدليل : على أن الاستصحاب حجة أن غالب الظن أن الحال القائمة تستمر قائمة حتى يوجد ما ينفيها ، والظن الغالب هنا حجة فى العمل كالشهادات ، فإنها تثبت ظنا راجحا ، وهى حجة ملزمة لكافة الناس ، ولو أهملت ولم يعمل بها تضيع حقوق ، إذ لا يكون ثمت طريق لإثباتها .

راجع الإمام مالك : حياته ، وآراؤه ، وفقهه ص ١٩٢ .

ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى أصل المذهب فى فقه الإمام مالك .

الحيل الشرعية :

ينسب كثير من الباحثين إلى فقه إبى حنيفه الحيل الشرعية وأنها كانت باباً واسعاً من ابواب الفقه فى مذهبه ، وقد تكلم ابن القيم عن الحيل فى كتابه « أعلام الموقعين » وشنع على من توسع فيها ، وقال :

(إن المتأخرين أحدثوا حيلا لم يصح القول بها عن أحد من الأئمة ونسبوها إلى الأئمة وهم مخطئون فى نسبتها إليهم » .

واعتبر هؤلاء الباحثون من أصول أبى حنيفة باب الحيل ، ويسمونه المخارج من المضايق ، وفى القاموس وشرحه ، الاحتيال والتحول ، والتحيّل : الحذق وجودة النظر والقدرة عى دقة التصرف .

=

أما عن القانون : فهو تحرر كامل فى مجال العلاقة بين الرجل والمرأة ، وإطلاق الحرية الشخصية بلا حدود .

موقف الغرب من الدين :

أما الدين عندهم فهو شئ غامض كدين الطبيعة ، أو الألحاد ، أو الوثنية ، أو المادية ، وإليك بعض آراء متخصصيهم فى الدين :

=

وقال صاحب المصباح : الحيلة : الحذق فى تدبير الأمور ، وهو تقليب الفكر حتى يهتدى إلى المقصود ، وأصلها الواو – وإنما قلبت واوها ياء لانكسار ماقبلها . وقال ابن القيم فى « اعلام الموقعين » إن مباشرة الاسباب حيلة على حصول مسبباتها ، فالأكل والشرب واللبس والسفر حيلة على المقصود منه ، والعقود الشرعية واجبها ومستحبها ومباحها كلها حيل على حصول المعقود عليه، والأسباب المحرمة كلها حيل على حصول مقاصدها منها .

وقد غلب إطلاق الحيلة على مايكون من الطرق الخفية التى يتوصل بها إلى حصول الغرض بحيث لا يتفطن لها إلا بنوع من الذكاء وبعد النظر ، والحيلة بهذا المعنى لاتحمد على الإطلاق ، ولا تذم على الإطلاق ، بل تتبع فى ذلك الطرق المسلوكة إليها ، والمقاصد التى تراد بها .

فالطرق والوسائل الخفية التى تستحل بها المحارم وتسقط بها الواجبات ظاهراً ، وكل حيلة تتضمن إسقاط حق الله تعالى أو لأدمى فهى من الحيل المذمومة شرعاً ، وهذا هو الذى عناه جمهور الفقهاء والمحدثين بالذم .

والحيل عند فقهاء الحنفية تطلق على المخارج من المضايق بوجه شرعى جاء فى شرح الاشباه والنظائر للحموى :

الحيل : جمع حيلة ، وهى الخدمة وجودة النظر ، والمراد بها هنا مايكون مخلصاً شرعياً لمن ابتلى بحادثة دينية ، ولكون المخلص من ذلك لايدرك إلا بالحذق وجودة النظر أطلق عليه لفظ الحيلة.

ومادامت الوسائل مشروعه ، وتؤدى إلى مقاصد مشروعة ، فإن ذلك يكون جائزا ، وجمهور الفقهاء ولاسيما المالكية والحنابلة لا يسوغون الحيل بأى صورة من الصور لأنهم يقولون بسد الذرائع، وهو أصل مناقض للحيل تمام المناقضة والله اعلم . ص ٢٧٤ .

يقول دور كايم : الدين ليس فطرة ، ويرى : (أن الدين ظاهرة اجتماعية فرضت سلطانها على الأفراد فرضاً . كما يرى أن الوجود ، أو المجتمع هو الذى أوحى إلى الإنسان فكرة التقديس الألوهية ، وهو الذى دفع الإنسان إلى الإيمان بقوة أسمى فوق إداركه » .

أما ماركس : فيرى أن الدين أفيون الشعوب ، وأنه مجموعة من الأساطير صنعها الاقطاعيون والرأسماليون لتخدير الشعوب الكادحة ، وبعض البشر لمصالحهم وأغراضهم الشخصية .

أما فرويد : فيرى أن الدين ناشئ عن الكبت ، ومن عقدة أوديب من العشق الجنسى .

أما نيتشة : فيقول إننا اخترعنا (الله) الدين لكى نغطى مالدينا من ضعف ، ونغطى مافى تجربتنا من ثغرات .

كما يقول : إن فكرة الله تسقط ظلال الخطيئة على براءة الأرض وإنه لا بد للمؤمنين بالحس الأرضى أن يهووا بمعاولهم على هذه الفكرة . [1] .

والحقيقة أن هذه النظريات التى اعتنقها الغرب نظريات بشرية محضة قد ثبت فشلها ، والدليل ماحل بالمجتمعات البشرية المقيمين بها من خلل أسرى وتفكك خلقى ، وغياب الترابط الخلقى .

(١) راجع أضواء على النظم والثقافة الإسلامية ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

إن هذه المفاهيم ثبت خطؤها ، لأنها نظرت إلى الإنسان من جانب واحد فقط هو الجـانب المادى ، وأهملت الجـانب الآخـر وهـو الجـانب الروحى ، فـحل بهم مـاحل من الضيـاع والأمراض . أما الإنسان فى تعاليم الإسلام فـهو : مـادة وروح يشير إلى هذا قول الله سبحانه :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولاتبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » (١) .

(١) القصص : ٧٧ .

الفرق بين العلم والثقافة

إذا اختلفت الأمم فى لون الثقافة التى تتمسك بها . فإن العلم لا تختلف حوله الأمم حيث إنه شئ والثقافة شئ آخر :

العلم عالمى لاتختص به أمة دون أمة ، ولاتحتكره قارة دون أخرى من قارات الأرض فيكون غيرها عالة عليها فيه ، وإنه مشاع كالهواء الذى نتنفسه والبحار التى تحيط باليابسة ، وتمخر فيها ألوف السفن حاملة مئات الأعلام .

إن العلم تراث إنسانى مامن أمة إلا ولها فيه جهاد وجهود ، وكل درجة ارتقاها العلم فى أى عصر من عصوره على يد أمة من الأمم فى بلد من بلدان الناس ، إنما كان ذلك بفضل درجة أخرى قبلها كان العلم قد وصل إليها فى عصر آخر قبل ذلك العصر ، وعلى يد أمة أخرى من الأمم ، فى بلد غير ذلك البلد الذى وصل العلم فيه إلى الدرجة التى تلى هذه الدرجة (١) .

لكن ماهو العلم ؟ وماهى الثقافة ؟ ولماذا كانت غيره ، وكان هو غيرها ؟ أما الثقافة فقد سبق الحديث عنها أما العلم فـ « هو مجموعة الحقائق التى توصل إليها العقل البشرى فى مراحل تفكيره وتجاربه وملاحظاته المتسلسلة بتسلسل الزمن ، والمحررة بالامتحانات المتكررة ، فلا تختلف بتفاوت الأذواق ولاتتغير بتطور المصالح»(٢).

---

(١) منهج الثقافة ص ١٠

(٢) نفس المرجع .

إن جدول الضرب من المعارف الإنسانية العريقة فى القدم وسيبقى حاجة من الحاجات الأولية لطلاب علم الحساب فى كل وطن وفى كل زمن ولولا ماكان معروفا قبل العرب والمسلمين من علم الحساب ، لما توصل العرب والمسلمون إلى إتحاف الإنسانية بالحقائق الأولية من قواعد علم الجبر والمقابلة ، ولولا علم الجبر والمقابلة (١) الذى توصل علماؤنا إليه قبل مئات السنين لما تقدمت فى العصور الأخيرة العلوم الرياضية الأخرى التى وصلت بها الأعمال الهندسية إلى ماوصلت إليه الآن من التقدم .

فالعلوم الرياضية والحقائق الهندسية من العلم العالمى المشاع بين البشر ، والذى اشتركت عقول البشر فى تقدمه ، وارتقائه منذ العصور العريقة فى القدم ، ولاغضاضة على أمة فى أن تطلب العلم به حيث تجده وكذلك الطب ، وعلوم الطبيعة ، وكل ماتمس إليه حاجة الأمم فى قوتها وأسباب عزتها وتوفير حاجات أوطانها .

والمسلمون على الخصوص توجب عليهم ثقافتهم الدينية أن يتعلموا ماتدعو حاجتهم فى مرافقهم إلى تعلمه من العلوم التى إن لم يحذقوها تولاها عنهم الأغيار . وكان جهلهم بها من أسباب ضعفهم القومى والملّى .

هذا النوع من المعارف الإنسانية هو « العلم » وهو واحد فى كل أمة ، وهو اليوم سبيل القوة فى الحرب والسلم ، وهو الذى ينبغى للمسلمين أن يكون – دائما – العدد الكافى من العالمين به ليتولوا مرافق بلادهم بأنفسهم ، ويحققوا أسباب قوتهم الصناعية والزراعية والاقتصادية بأيديهم ، وإذا لم يتحقق ذلك إلا بإرسال البعثات (٢) إلى البلاد

---

(١) سنذكر إن شاء الله تعالى اسهامات المسلمين الأوائل فى هذه العلوم ، وما لحق بها من الطب والفلك إلخ .

(٢) هذا الأمر لم يعد يجدى إذ المبعوث بعد قضاء فترة بعثته يعود بفكر غير الفكر الذى ذهب به، فيرجع ناقما على وطنه ، فقد حدث له غسيل مخ ، فيعود وقد حمل فى قلبه ، شر وحقد على أبناء وطنه والأمثلة على ذلك كثيرة .

التى تفوقت به ، فعليهم أن يوالوا إرسالها إلى أن يتوافر عندهم من أبنائهم رجال الكفاية لسد هذه الحاجة على قدرها .

ومما سبق يتضح أن العلم شئ والثقافة شئ آخر [1] .

إذن « العلم عالمى ، والثقافة قومية وملية . العلم لا لون له ، والثقافة ، ذات ألوان ، وكذب من قال إن فى الدنيا ثقافة عالمية ، ولايمكن أن تكون فيها ثقافة عالمية » [2] .

ومن الجدير بالذكر أن على كل أمة أن تتمسك بثقافتها ، لأن فيها مقومات شخصيتها وبقائها كما أنها تبعث فيها أسباب الحيوية بوصل مابين ماضيها وآيتها خصوصا نحن المسلمين الذين لانكون مسلمين بارتياد الجامع فقط ، ولا بتصحيح العقيدة فقط ، بل إن إسلامنا يتناول البيت كما يتناول الجامع ، ويفرض سننه وأحكامه على المجتمع ، كما يفرضها على الفرد وسنن الإسلام وأحكامه مصدر كريم من مصادر ثقافتنا ، فلا يكفى أن نعرف كيف نصلى ، بل يجب أن نعرف كيف نكون أفرادا مسلمين فى مجتمع إسلامى ، وأن نعرف كيف نكون رعايا مسلمين لدولة إسلامية [3] فـ.. ليس الدين هو الإيمان فقط ، أو الإسلام فقط ، أو الاحسان فقط ، والاستقامة والصلاح فحسب ، وإنما هو كل ذلك مجتمعاً .

فالشخص الذى يعتنق الإسلام ينبغى أن يكون مؤمنا ، ومسلما ، ومستقيما ، ومحسنا ، وصالحاً ... فلم يضع مبادئ الدين فى ناحية ، وأداء المسلم لها فى ناحية أخرى ، ولكنه مزج بينهما ، ونظر إلى سلوك المسلم فى دينه وربط الإيمان بالإسلام فلم يفصل بينهما » .

---

(١) منهج الثقافة الإسلامية ص ١١ ، ١٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٥ .

فالدين وحدة متماسكة البناء ويجرى مع روح الاسلام الواقعى ، فالإيمان والإسلام جملة لشئ واحد .. الإحسان روحه ، والاستقامة عصبه ، والصلاح صفته [1] .

وبعد :

فإن الإسلام – وهو الدين الاجتماعى – ثقافة واسعة شاملة فى هذه الأمور وفى كل الأمور ولأهمية الثقافة فى الأمة ، وأنها تحافظ على شخصيتها من الذوبان فى شخصية أمة أخرى ، وستطاع « دانلوب » الحاكم الإنجليزى فى مصر أن يحرم المتعلمين من التعرف على ثقافتهم الإسلامية أو التعمق فيها ، فسارع إلى تجرد مدارس الدولة منها ، فنتج جيل غريب عن ثقافة أمته كان السبب فى التأخر والانهزام [2] .

الأمل المنشود :

يأمل كل غيور على أمته أن تعنى الوزارات بالتربية الإسلامية وتعريف الجيل بها، لأن التربية من أهم عناصر الثقافة ، ومادمنا فى بلد إسلامى عربى فيجب أن تكون ثقافتنا إسلامية عربية ، وتربية أبنائنا تربية إسلامية عربية ، وهذا لا ينافى فى إرسال بعثات إلى أوربا ، وإلى أمريكا لتخريج مهندسين من الطبقة الأولى ، وكيماويين وأطباء فى الذروة العليا ، وعلماء معادن ، وجيولوجيا من الطراز الأول ، لأن هذه المعارف من العلم العالمى الذى لا لون له ونحن فى حاجة إليها فى مرافقنا ، وتعدين معادننا ، واستنباط البترول من تربتنا ، وإصلاح زراعتنا وتوسيعها ، وتجهيزها بوسائل الرى والصرف ، وإقامه المصانع لكل مانحتاجه فى حربنا وسلمنا .

هذا العلم يجب أن نأخذه حيث وجدنا .

(١) نقلا عن خصائص مدرسة النبوة ص ٣٣ ، ٣٤ .
(٢) انظر منهج الثقافة الإسلامية ص ١٦ .

أما المعارف التى لها لون قومى لأقوام غير أقوامنا ، ولها لون وطنى لأوطان غير أوطننا ، ولها لون ملّى لملل غير ملتنا فذلك مايسمى ثقافة ، ونحن فى غنى عنه بثقافتنا التى يجب أن نستمدها من مألوفنا ، ومن ذوقنا ، ومن مواريثنا الأدبية ، وظروفنا الجغرافية ، وضروراتنا الإقليمية ، وحاجتنا الاجتماعية ولهذه الثقافة مثل فى تاريخنا وتراجم أسلافنا ، فيجب أن نعرفها بمعرفتهم ، وأن ندرسها بدراسة تراجمهم ، وأن نحييها بالتخلق بأخلاق أهلها واتخاذهم قدوة لنا وأسوة .

نحن فى مرحلة حاسمة من حياة أمتنا ، ومن النصح للأمة أن نتعاون على معرفة الطريق الذى نسلكه إلى مرحلتنا الجديدة ، وعندى أنه الطريق الذى يجمع بين تعلم كل ماعند غيرنا من العلوم العالمية التى لا لون لها .

والاحتفاظ بكل مايحفظ علينا إسلامنا وعروبتنا ومصريتنا من الثقافة التى نحن أغنى أمم الأرض بها ، ماعلينا إلا أن نستأنف دراستها وإحياءها والعمل بها ، ويومئذ تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين [1] .

---

(١) انظر : منهج الثقافة الإسلامية ص ١٦ ، ١٧ .

حفظ الله عز وجل للقرآن الكريم

القرآن : كلام الله سبحانه وتعالى بمعناه ومبناه المنزل على محمد ﷺ بواسطة أمين الوحى جبريل عليه السلام ، المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه المبتدئ بسورة الفاتحة والمختتم بسورة الناس .

أنزله الله عز وجل منجماً ، وكان ابتداء نزوله فى السنة الحادية والأربعين من مولده الشريف ﷺ فى غار حراء الذى كان يتحنث فيه .

وهو قرآن ، وهو كتاب : فكونه قرآن أى متلو بالألسن ، وكونه كتابا أى مدونا بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية شئ بالمعنى الواقع ، وفى تسميته بهذين الأسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا فى موضع واحد ، أعنى أنه يجب حفظه فى الصدور والسطور جميعا ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى فلاثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التى وضع عليها أول مرة ، ولاثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ماهو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التى بعثها الله فى نفوس أمة الإسلام اقتداء بنبيهما بقى القرآن محفوظا فى حرز حريز، إنجاز الوعد الله الذى تكفل بحفظه حيث يقول :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » [1] .

---

(١) الحجر : ٩ .

فلم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله سبحانه بحفظها ، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال سبحانه : «والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله .. »[1] .

أى بماطلب اليهم حفظه ، والسرفى هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جئ بها على التوقيت ، لا التأبيد ، وأن هذا القرآن جئ به مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليها ، فكان جامعا لما فيها من الحقائق الثابتة ، زائدا عليها بما شاء الله زيادته ، وكان سادا مسدها ، ولم يكن شئ منها ليسد مسده ، فقضى الله سبحانه أن يبقى حجة إلى قيام الساعة ، وإذا قضى الله سبحانه أمر أ يسرله أسبابه ، وهو الحيكم العليم[2] .

وكان من أسباب التحدى فى القرآن ، أن العرب امتنعوا من قبوله والانصياع له ، فجاء دور التحدى على التدريج معهم حتى لايجدوا مخرجا أو مهربا ، لعدم الاقرار والاعتراف أنه من عند الله سبحانه .

أ- فتحداهم مع مظاهرة الجن لهم ، واتحاد كل منهم مع الآخر على الاتيان بمثل القرآن قال سبحانه وتعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[3].

فعجزوا

ب- خفف من حدة التحدى فجعله فى عشر مثله .

---

(١) المائدة : ٤٤ .

(٢) راجع للدكتور : محمد عبد الله دراز : البنا العظيم ص ١٣ ، ١٤ ط الرابعة ١٣٩٧ هـ . ١٩٧٧م.

(٣) الإسراء : ٨٨ .

فقال سبحانه : « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين »(١) .

فعجزوا

جـ- ثم طلب منهم الإتيار بسورة من مثله ولو كانت أقصر سورة منه قال الله تبارك وتعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا علي عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين »(٢) .

وقوله سبحانة فى التنزيل العزيز : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين »(٣) .

فعجزوا

ففى أية الاسراء : أى لوا أعان كل منهما الآخر و وتظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى بلاغتة ، وحكمه وشموله ، ورصانته ، وحسن نظمه وتأليفه لعجزوا عن الإتيان بمثله(٤) .

وفى أيه هود : تحداهم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة ، و« مفتريات» صفة لعشر سور ، لما قالوا : افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله تعالى أرخى معهم العنان ، وقال : هبوا أنى اختلقته من عند نفسى ، فأتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم فأنتم عرب فصحاء مثلى « وادعوا من استطعتم من دون الله » إلى المعاونة على المعارضة « إن كنتم صادقين » أنه مفترى (٥) .

---

(١) هود : ١٣ .

(٢) البقرة : ٢٣ .

(٣) يونس : ٣٨ .

(٤) راجع تفسير النسفى جـ٢ ص ٣٢٧ ط الحلبى .

(٥) تفسير النسفى جـ ٢ ص ١٨٢ .

وفى سورة يونس : يقولون اختلقه « قل » إن كان الأمر كما تزعمون « فأتوا » أنتم على وجه الافتراء « بسورة مثله » أى شبيهة به فى البلاغة وحسن النظم فأنتم مثلى فى العربية « وادعوا من استطعتم من دون الله » أى وادعوا من دون الله من استطعتهم من خلقه للإستعانة به على الاتيان بمثله « إن كنتم صادقين « إنه افتراء[1] .

وفى أيه سورة البقرة : كانوا يقولون : لو كان هذا من عند الله لم ينزل هكذا نجوما سورة بعد سورة .. على حسب النزول ، وعلى سنن مانرى عليه أهل الخطابة والشعر مفرقا حينا فحينا ، شيئاً فشيئا ، فلو أنزله الله لأنزله جملة ، « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة »[2] .

فقيل : إن ارتبتم فى هذا الذى وقع إنزاله هكذا على تدريج « فأتوا بسورة» أى فهاتوا أنتم نجما فردا من نجومه سورة من أصغر السور ، والسورة الطائفة من القرآن أقلها ثلاث آيات ، وسميت سورة لاحتوائها على فنون من العلم ، وأجناس من الفوائد ، كاحتواء سور المدينة على مافيها ، .. « من مثله » فأتوا بسورة مما هو على صفته فى البيان الغريب ، وعلو الطبقة فى حسن النظم « وادعوا شهداءكم» جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة « من دون الله » أى غير الله ، أى ادعوا الذين اتخذتموهم آلهة من الله ، وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق « إن كنتم صادقين » إن ذلك مختلق ، وأنه من كلام محمد ﷺ وجواب الشرط محذوف والتقدير إن كنتم صادقين فى دعواكم ، فأتوا أنتم بمثله واستعينوا بآلهتكم على ذلك . « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة » .

فإذا لم تعارضوه وبان عجزكم ، ووجب تصديقه فآمنوا وخافوا العذاب المعد لمن كذب وعاند »[3] .

---

(١) تفسير النسفى جـ ٢ ص ١٦٤ .

(٢) الفرقان : ٣٢ .

(٣) تفسير النسفى : جـ ١ ص ٣١ .

فيؤخذ مما سبق مايلى :-

(أ) علمتم أن محمدا ﷺ أمى لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء ، فاتوا بمن هو على حاله ، وقصد إلى مثله ونظيره هنالك .

(ب) الحديث فى المنزل ، وهو القرآن - لا فى المنزل عليه وهو مسوق إليه أى فإن شككتم فى أن القرآن منزل من عند الله سبحانه فهاتوا أنتم نبذا مماثلة ، مما أنزل على محمد ﷺ .

(جـ) فيما سبق دليلان :

١- إثبات النبوة وصحة كون المتحدى به معجزا .

٢- الاخبار بأنهم لن يفعلوا وهو غيب لا يعلمه إلا الله .

(د) لما كان العجز عن المعارضة قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لاتكالهم على فصاحتهم واعتمادهم على بلاغتهم ، أتى بإن التى تفيد الشك دون إذا التى للوجوب... وجملة « وإن تفعلوا .. » اعتراضية ، وحسن هذا الاعتراض أن لفظ الشرط للتردد فقطع التردد بقوله : « وإن تفعلوا » ولا وإن اختان فى نفى المستقبل إلا أن فى لن [1] تاكيد .

(هـ) وإنما علم أنه إخبار عن الغيب على ماهو به حتى صار معجزة لأنهم لو عارضوه بشئ لاشتهر .

---

(١) لا وإن أختان فى نفى المستقبل ، إلا أن فى لن تاكيدا ، وعند الخليل أصلها : لا أن ، وعند الفراء: لا أبدلت الفها نونا ، وعند سيبويه حرف موضوع لتاكيد نفى المستقبل . انظر تفسير النسفى جـ ١ ص ٣٢ .

(و) وإذا لم يأتوا بها وتبين عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق الرسول ﷺ، وإذا صح عندهم صدقه ثم لزموا العناد ، وأبوا الانقياد استوجبوا النار ، فقيل لهم : إن استبنتم العجز فاتركوا العناد ، فوضع فاتقوا النار موضعه ، لأن اتقاء النار سبب ترك العناد .[1] .

دور رسول الله ﷺ في القرآن الكريم :

كان جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن على محمد ﷺ ، فهو قول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين : ذلكم هو جبريل عليه السلام ، تلقاه من لدن حكيم عليم ، ثم أنز له بلسان عربى مبين على قلب محمد ﷺ .

فتلقنه محمد ﷺ منه كما يتلقن الطالب من استاذه نصا من النصوص ، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا :

١- الوعى والحفظ .

٢- الحكاية والتبليغ .

٣- البيان والتفسير .

٤- ثم التطبيق والتنفيذ ، وهذا هو الدور الثانى لرسول الله ﷺ [2] .

أما ابتكار معانية وصياغة مبانية فما هو منها بسبيل ، وليس له من أمرهما شئ، إن هو إلا وحى يوحى .

هكذا سماه القرآن حيث يقول : « وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها ، قل إنما أتبع مايوحى إلى من ربى »[3] .

---

(١) راجع تفسير النسفى جـ١ ص ٣١ ، ٣٢ .

(٢) راجع الدور الأول ص ٨١

(٣) الأعراف : ٢٠٣ .

ويقول : « قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى»[1] .

وأمثال هذه الآيات كثير فى شأن إيجاد المعانى ، ثم يقول فى شأن الإيحاء اللفظى :

« إنا أنزلناه قرآنا عربيا »[2] .

« سنقرئك فلا تنسى »[3] .

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه »[4] .

« اقرأ .. » أول سورة العلق .

«واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا»[5].

« ورتل القرآن ترتيلا »[6] .

فانظر – رحمك الله – كيف عبر بالقراءة ، والإقراء ، والتلاوة ، والترتيل ، وتحريك اللسان ، وكون الكلام عربيا غير ذى عوج ، وكل أولئك من عوارض الألفاظ لا المعانى البحتة .

---

(١) يونس : ١٥ .

(٢) يوسف : ٢ .

(٣) الأعلى : ٦ .

(٤) القيامة : ١٦ ، ١٧ .

(٥) الكهف : ٢٧ .

(٦) المزمل : ٤ .

القرآن إذن صريح في أنه :

« لا صنعة فيه لمحمد ﷺ ولا لأحد من الخلق ، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه »[1] .

ويعترف رسول الله ﷺ قائلا :

« قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون»[2] .

رد على القائلين المبغضين الذين لا يرجون لقاء الله سبحانه ... « ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى أن أتبع إلا مايوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم »[3] .

والحق أن هذه القضية لو وجدت قاضيا يقضى بالعدل لا كتفى بسماع هذه الشهادة التى جاءت بلسان صاحبها على نفسه ، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل ، ذلك أنها ليست من جنس « الدعاوى » فتحتاج إلى بينة ، وإنما هى من نوع « الاقرار » الذى يؤخذ به صاحبه ، ولا يتوقف صديق ولا عدو فى قبوله منه .. إذ أى مصلحة لمن يتحدى الناس ويأتى بالأعاجيب والمعجزات فى أن ينسب بضاعته لغيره ، على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد أحداً من البشر يعارضه ويزعمها لنفسه .

---

(١) النبأ العظيم ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) يونس : ١٦ .

(٣) يونس : ١٥ .

إن أحداً من البشر ينسب لغيره أنقى آثار عقله ، وأغلى ما تجوبه قريحته ، فهذا مالم يلده الدهر بعد ، [1] هذه مقدمة وجيزة عن القرآن الكريم ، أما ماجاء فيه عن فضل العلم والعلماء فهو مما يعلى قدر العلم والعلماء كما فى قوله سبحانه :

« شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحيكم» [2] .

قال القرطبى رحمه الله تعالى فى تفسيرة هذه الآية الكريمة دليل أكيد على فضل العلم وشرف العلماء ، فإنه لوكان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله عز وجل باسمه ، واسم ملا ئكته المقربين ، كما قرن العلماء أما شرف العلم ففى قوله سبحانه لنبيه ﷺ : « وقل رب زدنى علما » [3] .

فلو كان شئ أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه ، كما أمره أن يستزيده من العلم [4] .

(١) راجع النبأ العظيم ص ٢١ ، ٢٢
(٢) آل عمران : ١٨ .
(٣) طه : ١١٤ .
(٤) راجع تفسير القرطبى ص ١٢٨٣ .

مكانة العلم والعلماء فى القرآن والسنة

أولا : فى القرآن الكريم

للعلم والعلماء فى القرآن مكانة عظيمة، لا تخفى على المشتغلين بالدراسات الإسلامية، وشهادة القرآن للعلم لها دلالتها ، لأن دوره فى حياة البشر سيكون عظيما، وأن خطره سيكون كبيرا، لقد جاء ذكر العلم فى القرآن فى أكثر من سبعمائة مرة، فما دلالة ذلك؟ دعوة المسلمين الى الاهتمام به والعناية بمتطلباته، وأن يكون شغلهم الشاغل فى كل أطوار حياتهم.

وإليك نماذج من الايات التى تحث على العلم:

قال الله العليم الخبير: «إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم (١) »، «ن والقلم وما يسطرون»(٢).

وقوله سبحانه: «وقل رب زدنى علما »، (٣) .

وقوله عز اسمه: «شهد الله أنه لا إله إلا هو الملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط»(٤).

وقوله تبارك وتعالى : «يرفع الله الذين أمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات»(٥).

«قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٦) ».

---

(١) العلق: ١-٥.

(٢) القلم : ١

(٣) طه: ١١٤.

(٤) آل عمران: ١٨.

(٥) المجادلة : ١١ .

(٦) الزمر : ٩.

«وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون [1] ».

ففى أوائل سورة العلق تظهر المنة على بنى آدم إذ علمهم مالم يكونوا يعلمون، كما فى قوله سبحانه : «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » [2].

كما تظهر أيضا هذه الفوائد الجمة من سورة العلق:

أ- ماروى عن ابن عباس، ومجاهد هى أول سورة نزلت، لكن الجمهور على أن الفاتحة أول ما نزل، ثم سورة القلم.

ب- اقرأ مفتتحا باسم ربك كأنه قيل: قل باسم الله ثم اقرأ الذى خلق أى الذى حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه.

جـ- «خلق الإنسان» تخصيص للإنسان بالذكر من بين الخلق لشرفه «من علق» جمع هنا لأن الإنسان فى معنى الجمع.

«اقرأ وربك الأكرم» الذى له الكمال فى زيادة كرمه على كل كريم ينعم على عباده النعم ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبه مع كفرهم وجحودهم لنعمه.. «الذى علم» الكتابة «بالقلم علم الإنسان مالم يعلم» فدل على كمال كرمه بأنه سبحانه علّم عباده مالم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، كما نبه على فضل الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبط أخبار الأولين، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هى لما استقامت أمور الدين والدنيا . [3] .

---

(١) العنكبوت: ٤٣.

(٢) النحل : ٧٨.

(٣) راجع تفسير النفى: ٣٦٨/٤ ط الحلبى، وحاشية الجمل على الجلالين: ٤/ ٥٦٢.

د- قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى في الاتقان:

إن أول سورة «اقرأ» مشتمل على نظير ما اشتملت عليه الفاتحة: من براعة الاستهلال لكونها أول ما نزل من القرآن، فإن فيها الأمر بالقراءة، وفيها البداءة باسم الله تعالى، وفيها الإشارة إلى علم الأحكام، وفيها ما يتعلق بتوحيد الله سبحانه، وإثبات ذاته وصفاته: من صفة ذات، وصفة فعل، وفي هذا إشارة إلى أصول الدين، وفيها ما يتعلق بالأخبار من قوله سبحانه «علم الإنسان مالم يعلم»، ومن ثم قيل: إنها جديرة أن تسمى عنوان القرآن؛ لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله [1] .

نزول القرآن: تجلت عظمة الله سبحانه وعنايته بالقرآن ونزوله، فقد ذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا، ثم فرقه على النبي ﷺ في عشرين سنة، فكانت السورة تنزل في أمر يحدث، والآية تنزل جوابا لمستخبر يسأل، ويوقف جبريل عليه السلام النبي ﷺ على موضع السورة والآية.

فانتظام السورة كانتظام الايات، والحروف فكله عن رسول الله ﷺ خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام عن رب العالمين، فمن أخر سورة مقدمة، أو قدم أخرى مؤخرة كمن أفسد نظم الايات، وغير الحروف والكلمات. ثم إن هذا الترتيب أخذ عن رسول الله ﷺ، وقد كان يقول: «ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن»، وكان جبريل عليه السلام يوقفه على مكان الايات [2] .

(١) نقلا عن تفسير الجمل على الجلالين: ٤/٥٦٠.

(٢) المرجع نفسه.

القلم أبلغ خطيب:

في قوله سبحانه : «نّ والقلم وما يسطرون»(١).

جاء في تفسير القلم ما يلى : قيل: المراد جنس القلم الشامل للأقلام التى يكتب بها الناس فى الأرض. كما ورد فى القلم المقسم به قولان.

أحدهما: أن المراد به الجنس، وهو واقع على كل قلم يكتب به فى السماء والأرض بدليل «وربك الأكرم الذى علم بالقلم» ولأنه ينتفع به كما ينطق الإنسان. لقوله سبحانه: «خلق الإنسان علمه البيان »(٢).

فالقلم يبين كما يبين اللسان فى المخاطبة بالمكاتبة للغائب والحاضر ومن ثم قيل للقلم: أحد اللسانين.

ثانيهما: أن القلم الذى جاء فى الخبر عن ابن عباس أول ما خلق الله تعالى القلم، ثم قال له: اكتب قال: ما أكتب؟ قال اكتب ما كان وما يكون وماهو كائن إلى يوم القيامة من عمل أو أجل، أو رزق، أو أثر فجرى القلم ما هو كائن إلى يوم القيامة.

«وما يسطرون» أى الملائكة فى صحفهم يكتبون فيها المقادير التى تقع فى العالم ينتسخون ذلك من اللوح المحفوظ (٣) .

إن دلالة «القلم» عظيمة، ومن ثم أقسم الله سبحانه به لما فيه من المنافع، والفوائد التى لا يحيط بها الوصف، إن القلم الذى هو إحدى ايات الله سبحانه الذى يسطر بها، جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحى، وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة، وحفظت به

---

(١) القلم: ١.

(٢) الرحمن: ٣، ٤.

(٣) راجع حاشية الجمل على الجلالين: ٢٨٢/٤، وتفسير النسفى : ٢٧٩/٤.

العلوم، وقامت به مصالح العباد فى المعاش والمعاد، فوطدت به الممالك، وأمنت به السبل والمسالك وأقام فى الناس أبلغ خطيب وأفصحه وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظا تشفى مواعظه القلوب من السقم، وطبيبا يبرىء بإذنه من أنواع الألم يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد.

يخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك، والعلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع، فينسج حلل المعانى فى الطرفين فتعود أحسن من الوشى المرقوم، ويودعها حكمة فتصير بوادر الفهوم، والأقلام نظام للأفهام، وكما أن اللسان بريد القلب، فالقلم بريد اللسان، وكما تولد الحروف المكتوبة عن اللسان، تولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب ورسوله، وترجمانه ولسانه الصامت(1).

ودلالة نزول سورة القلم التى ذكر فيها المولى عز وجل، ما من به على الانسان من تعليمه مالم يعلم، فذكر فيها فضله بتعليمه، وتفضيله بما علمه إياه، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم.

فقال فى التنزيل العزيز : «اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم (2) ».

فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم، وذكّر خلقه خصوصا وعموما: فقال: «الذى خلق خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم».

وخص الإنسان من بين المخلوقات، لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على

---

(1) انظر التبيان فى أقسام القرآن لابن قيم الجوزية صححه وعلق عليه الشيخ محمد حامد الفقى من علماء الأزهر ص ٢٠٦.

(2) العلق : ١- ٥.

ربوبيته، وقدرته، وعلمه، وحكمته، وكمال رحمته، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، وذكر هنا مبدأ خلقه من علق لكون العلقة مبدأ الأطوار التى انتقلت إليها النطفة، فهى مبدأ تعلق التخليق، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبرا عن نفسه بأنه الأكرم، وهو الأفعل من الكرم، وهو كثرة الخير، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه..

أما تعليمه عموما وخصوصا: فقال: «الذى علم بالقلم» فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس، ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصا فقال: «علم الإنسان مالم يعلم ».

فاشتملت هذه الكلمات على أنه سبحانه معطى الموجودات كلها بجميع أقسامها:

مراتب الوجود :

للوجود أربع مراتب :

إحداها: مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله « خلق ».

ثانيها: المرتبة الذهنية المدلول عليها بقوله: «علّم الإنسان مالم يعلم».

ثالثها: المرتبة الخطية وهى المصرح بها فى قوله: «الذى علم بالقلم».

رابعها: المرتبة اللفظية وهى من لوازم التعليم بالقلم فإن الكتابة فرع النطق، والنطق فرع التصور، فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها، وأنه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه، فهو سبحانه الخالق المعلم، وكل شىء فى الخارج فبخلقه وجد، وكل عليم فى الذهن فبتعليمه حصل، وكل لفظ فى اللسان، أو خط فى البنان فبإقداره وخلقه، وتعليمه، وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

والمقصود أنه سبحانه تعرف إلى عباده بما علمهم إياه بحكمته من الخط، واللفظ والمعنى، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه سبحانه، بل من أعظمها وأظهرها، وكفى بهذا

شرفا وفضلا له.[1]

أما قوله تبارك وتعالى: «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة.. الخ فقد ورد فى فضل هذه الاية الكريمة قول النبى ﷺ:

«يجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقول الله عز وجل: إن لعبدى هذا عندى عهداً، وأنا أحق بمن وفى بالعهد، أدخلوا عبدى الجنة».

وهو دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله.

وقال الكلبى: قدم على النبى ﷺ حبران أى عالمان من أحبار الشام، فقالاله: أنت محمد؟ قال: نعم، قالا: فإنا نسألك عن شىء، فإن (أخبر تنابه) آمنا بك وصدقناك، فقال ﷺ: «سلا» فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله؟ فأنزل الله سبحانه هذه الآية فأسلم الرجلان .[2] .

وفى المدارك: من قرأها عند منامه، وقال بعدها: أشهد بما شهد الله، وأستودع الله هذه الشهادة، وهى عنده وديعة، يقول الله عز وجل يوم القيامة: إن لعبدى هذا عندى عهدا، وأنا أحق بمن وفى العهد، أدخلوا عبدى الجنة.

وشهادة الله سبحانه مغايرة للملائكة، وأولى العلم، والمشهود به أمرين: .

أ – الوحدانية.

جـ والقيام بالقسط.

والتكرار هنا للتأكيد؛ لأن الأول قول الله تعالى، والثانى: حكاية قول الملائكة، والثالث: أولى العلم، وشهادة الملائكة بما عاينوا من عظيم قدرته، «وألوالعلم» أى الأنبياء

(١) مفتاح دار السعادة حـ١ ص ٥٨ لابن قيم الجوزية .

(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين: ١/٢٥٢.

والعلماء «وقائما بالقسط» أى مقيما للعدل فى الأرزاق، والآجال، وفيما يثيب ويعاقب، وفيما يأمر عباده من انصاف بعضهم لبعض، وانتصاب «شهد» على أنه حال مؤكدة من اسم الله تعالى، والعزيز الذى لا يغالب، الحكيم الذى لا يعدل عن الحق قط . [1].

وقوله سبحانه: «يرفع الله الذين آمنوا منكم.. الخ.

فى هذه الآية رفع لدرجة العالمين بالله، وبسننه الكونية، وبما جاء به محمد ﷺ. أما الدرجات ففيها قولان: الأول: فى الدنيا فى المرتبة والشرف.

الآخر: فى الدار الآخرة، وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية، ولترغبكم فى العلم.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: خير سليمان عليه السلام بين العلم والمال والملك، فاختار العلم، فأعطى المال والملك معه.

وعن هذه الآية الكريمة «شهد الله أنه ا إله إلا هو ... الخ.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى فى كتابه القيم: مفتاح دار السعادة [2] ما يلى:

أولا: استشهد الله سبحانه بأولى العلم على أجلّ مشهود وهو توحيده سبحانه

ثانيا: دلالة فضل العلم وأهله لأنه سبحانه:

أ - استشهد بهم دون غيرهم من البشر.

ب - اقتران شهادتهم بشهادته سبحانه وتعالى.

---

(١) المرجع نفسه، وتفسير النسفى : ١٤٩/١.

(٢) حـ١ ص٤٨ وما بعدها.

جـ - اقترانها بشهادة الملائكة.

د - تزكية العلماء، وتعديلهم، فإن الله سبحانه لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف عن النبى ﷺ:

«يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين »[1].

هـ - وصفهم بكونهم أولى العلم، وهذا يدل على اختصاصهم به، وأنهم أهله وأصحابه أى ليس بمستعار لهم.

و - إنه تعالى وتعظم استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه ، وأكبره وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم.

ز - إنه جل وعلا جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهودبه، فثبت الحق المشهود به، فوجب على الخلق الإقرار به.. وكل من ناله الهدى بشهادتهم، وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره.

ح - إنه جل جلاله أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم، وجعل ذلك كالشهادة منهم فقال فى التنزيل العزيز:

«وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون»[2]. وأهل الذكر: هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء.

---

(١) سيأتى تخريج لهذا الحديث فى ص ١٤٩ .

(٢) النحل : ٤٣.

ط – أنه عز وجل مدح أهل العلم، وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه ايات بينات فى صدورهم وهذه خاصية ومنقبة لهم دون غيرهم فقال سبحانه: «وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به، ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون. وما كنت تتلومن قبله من كتاب ولاتخطه بيميتك إذا لارتاب المبطلون. بل هُو ايات بينات فى صدور الذين أوتوا اعلم وما يجحد باياتنا إلا الظالمون »(1) .

يفهم من هذه الايات أنه سواء كان القرآن مستقراً فى صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ، وهو فى نفسه ايات بينات، أو كان المعنى أنه آيات بينات فى صدورهم، أى كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت فى صدورهم، والقولان متلازمان ليسا بمختلفين.

وعلى التقديرين فهو مدح لهم، وثناء عليهم فى ضمنه الاستشهاد بهم فتأمله.

ى – إنه تبارك وتقدس استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار، ففى التنزيل العزيز: «ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون. وقال الذين أوتوا العلم والأيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون »(2) .

ك – أنه جل وعظم أخبر عن أمثاله.. التى يضربها لعباده يدلهم على صحة ما أخبربه، أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها فقال سبحانه: «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون »(3) .

(1) العنكبوت : ٤٧ – ٤٩ .

(2) الروم : ٥٥ ، ٥٦.

(3) العنكبوت : ٤٣.

وفى القرآن الكريم بضعة وأربعون مثلا، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكى، ويقول: لست من العالمين.

ل – أنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل فى الأرض خليفة قالوا له: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال: إنى أعلم مالا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين.

قالوا: سبحانك اعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم» (١)

فقد أمر الله سبحانه بالسجود لآدم عليه السلام فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس، فلعنه وأخرجه من السماء.

وبيان فضل العلم من هذه القصة كما يلى:

١ – أنه سبحانه رد على الملائكة لما سألوه كيف يجعل فى الأرض من هم أطوع له منه فقا : «إنى أعلم مالا تعلمون» فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها مالا يعلمون وهو العليم الحكيم، فظهر من هذا أن الخليفة من خيار خلقه، ورسله وأنبيائه وصالحى عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات أهل العلم من الإيمان من هو خير من الملائكة، وظهر من إبليس من هو شر العالمين، فأخرج سبحانه هذا وهذا، والملائكة لم يكن لهم علم لا بهذا ولا بهذا، ولا بما فى خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة.

٢ – أنه تبارك وتعالى لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه، وفضله ميزه عليهم بالعلم فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال: «أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين» .

(١) إلى آخر القصة كما وردت فى سورة ، البقرة : ٣٠ – ٣٣ .

جاء فى التفسير– فى سبب النزول – أنهم قالوا: لن يخلق ربنا خلقا هو أكرم عليه منا فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذى يجعله الله فى الأرض فلما امتحنهم بعلم ما علمه هذا الخليفة أقروا بالعجز وجهل مالم يعلموه فقالوا: «سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم».

فحينئذ أظهر لهم فضل ادم عليه السلام بما خصه به من العلم فقال: « يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم.. الخ» أقروا له بالفضل.

٣ – أنه سبحانه لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم: «ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون» فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم، وأنه أحاط علما بظاهرهم وباطنهم، وبغيب السماوات والأرض فتعرف إليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم وعجزهم عما آتاه ادم من العلم، وكفى بهذا شرفا للعلم، وفضلا.

٤– أنه سبحانه جعل فى آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات، وأراد سبحانه ان يظهر لملائكته فضله وشرفه، فاظهر لهم حسن ما فيه وهو علمه فدل على أن العلم أشرف ما فى الانسان، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم، ونظير هذا ما فعله يوسف الصديق عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

لما أراد الله سبحانه إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم أظهر للملك، وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير فحينئذ قدمه ومكنه، وسلم إليه خزائن الأرض، وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه، وجمال صورته، ولما ظهر حسن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس، ومكنه فى الأرض، فدل على أن صورة العلم عند بنى آدم أبهى، وأحسن من الصورة الحسية ولو كانت أجمل صورة.

م – أن العلم حياة ونور، والجهل موت وظلمة ، والشر كله سببه عدم الحياة، والنور والخير كله سببه النور والحياة، فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء، ويبين مراتبها،

والحياة هى المصححة لصفات الكمال الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال، فكل تصرف من الحياة فهو خير كله كالحياء الذى سببه كمال حياة القلب وتصوره حقيقة القبح ونفرته منه وضده الوقاحة والفحش وسببه موت القلب، وعدم نفرته من القبيح، وكالحياة الذى هو المطر الذى به حياة كل شىء . قال سبحانه وتعالى:

«أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها (١) .

كان ميتا بالجهل قلبه، فأحياه الله سبحانه بالعلم، وجعل له من الإيمان نورا يمشى به فى الناس قال سبحانه: « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم. لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» (٢)

وقال سبحانه: «الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٣) .

وقال سبحانه: «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم»(٤) .

---

(١) الأنعام : ١٢٢.
(٢) الحديد: ٢٨ ، ٢٩.
(٣) البقرة : ٢٥٧
(٤) الشورى : ٥٢.

فأخبر أنه روح تحصل به الحيا، ونور يحصل به الإضاءة، والإشراق فجمع بين الأصلين: الحياة والنور.

وقال سبحانه: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » (١).

وقال جل وعلا: «فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير (٢).

وقال تبارك وتقدس: « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا »(٣).

وقال سبحانه: «قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا يتلو عليكم ايات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور» (٤).

وقال تعالى: «الله نور السماوات والأرض مثل نور كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » (٥).

فضرب سبحانه مثلا لنوره الذى قذفه فى قلب المؤمن، كما قال أبى بن كعب رضى الله عنه: مثل نوره فى قلب عبده المؤمن وهو نور القرآن والإيمان الذى أعطاه إياه، كما قال فى آخر الآية «نور على نور». أى نور الإيمان على نور القرآن، كما قال بعض السلف، يكاد المؤمن ينطق بالحكمة، وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها

(١) المائدة : ١٥ ، ١٦
(٢) التغابن : ٨
(٣) النساء : ١٧٤ .
(٤) الطلاق : ١٠ ، ١١
(٥) النور : ٣٥ .

بالأثر كان نورا على نور وقد جمع الله سبحانه بين ذكر هذين النورين وهما: الكتاب والإيمان فى غير موضع من كتابه [1] الكريم مثل:

«ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا»[2].

وقوله سبحانه: « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون»[3].

ففضل الله: الإيمان، ورحمته : القرآن.

وقوله سبحانه: «أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها» [4]

وقد تقدمت الإشارة إلى ذكر هذه الايات:

وفى حديث النواس بن سمعان رضى الله عنه عن النبى ﷺ : «أن الله ضرب مثلا صراطا مستقيما، وعلى كتفى الصراط داران : لهما أبواب مفتحة، على الأبواب ستور وداع يدعو على الصراط، وداع يدعو فوقه «والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم [5] والأبواب التى على كتفى الصراط حدود الله، فلا يقع أحد فى حدود الله حتى يكشف الستر، والذى يدعو من فوقه واعظ ربه» [6] .

---

(١) مفتاح دار السعادة جـ١ ص ٥٤.

(٢) الشورى : ٥٢ .

(٣) يونس : ٥٨ .

(٤) الانعام : ٢٢

(٥) يونس : ٢٥.

(٦) رواه الترمذى وهذا لفظه.

وعند الإمام أحمد، ولفظه: والداعى على رأس الصراط كتاب الله، والداعى فوق الصــراط واعظ الله فى قلب كل مــؤمن، فــذكــر الأصلين وهمــا: داعى القــرآن وداعى الإيمان.

وقال حذيفة رضى الله عنه: حدثنا رسول الله ﷺ: «أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من الإيمان، ثم علموا من القرآن »[1].

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ:

«مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب، وريحها طيب، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها ».

ففي هذا الحديث الشريف تقسيم للناس إلي أربعة أقسام:

١ – أهل الإيمان والقرآن وهم خيار الناس.

٢ – أهل الإيمان الذين لا يقرأون وهم دونهم فهؤلاء هم السعداء.

أما الأشقياء فقسمان :

١ – من أوتى قرآنا بلا إيمان فهو منافق.

٢ – من لا أوتى قرآنا، ولا إيمانا.

والمقصود أن القرآن والإيمان هما نور يجعله الله سبحانه فى قلب من يشاء من عباده، وأنهما أصل كل خير فى الدنيا والآخرة، وعلمهما أجل العلوم وأفضلها، بل لا علم

(١) نقلا عن مفتاح دار السعادة جـ ١ ص ٥٥.

فى الحقيقة ينفع صاحبه إلا علمهما «والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »[1] .

ن – أنه تعالى وتقدس جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها، وأباح صيد الكلب المعلم، وهذا أيضا من شرف العلم؛ أنه لا يباح إلا صيد الكلب العالم، وأما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده فدل على شرف العلم وفضله. قال الله تعالى:

«يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب[2] ».

س – قال الله تعالى فى التنزيل العزيز:

«وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »[3] .

فيفهم من هذه الآية الكريمة أن الله جلت قدرته ندب المؤمنين إلى التفقه فى الدين، وهو تعلمه، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم، وهو التعليم، وقد اختلف فى فهم الآية فقيل:

١ – المعنى أن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم، بل ينبغى أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة، ثم ترجع تعلم القاعدين، فيكون النفير على هذا نفير تعلم، والطائفة تطلق على الواحد فما زاد، قالوا: فهو دليل على قبول خبر الواحد، وعلى هذا حملها الشافعى وجماعة.

---

(١) البقرة : ٢١٣.

(٢) المائدة : ٤.

(٣) التوبة: ١٢٢.

٢ – قالت طائفة أخرى: المفهوم وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم بل ينبغى أن تنفر طائفة للجهاد، وفرقة تقعد تتفقه فى الدين، فإذا جاءت الطائفة التى نفرت فقّهتها القاعدة، وعلمتها ما أنزل الله من الدين الحلال والحرام.

وعلى هذا فيكون قوله: ليتفقهوا، ولينذروا للفرقة التى نفرت فيها طائفة، وهذا قول الأكثرين، ومن ثم فالنفير نفير جهاد على أصله، قال سبحانه وتعالى: «انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم »(١) .

وقال النبى ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة، وإذا استنفرتم فانفروا» (٢). وهذا هو المعروف من هذه اللفظة.

وعلى كلا القولين فهو ترغيب فى التفقه فى الدين وتعلمه وتعليمه، فإن ذلك يعدل الجهاد، بل ربما يكون أفضل منه (٣).

ع – قال الله تعالى : «لقد مَنّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين (٤).

وقال عز وجل: «هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين. وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٥) .

أى وابعث فى آخرين منهم لما يلحقوا بهم، وقد اختلف فى هذا اللحاق المنفى فقيل :

---

(١) التوبة : ٤١.

(٢)

(٣) مفتاح دار السعادة جـ١ ص ٥٦.

(٤) آل عمران : ١٩٠ .

(٥) الجمعة: ٢ – ٤ .

١ – هو اللحاق فى الزمان، أى يتأخر زمانهم عنهم.

٢ – وقيل هو اللحاق فى الفضل والسبق، وعلى التقديرين، فهو امتنان من الله سبحانه بأن علمهم بعد الجهل، وهداهم بعد الضلالة، ويالها من منة عظيمة فاقت المنن، وجلت أن يقدر العباد لها ثمن.

فالعلم الذى ركز القرآن الكريم عليه هو الذى يرفع الجهل، وينمى العقل وينبه ملكات النفس، ويكشف الحقائق عن الكون يقول العليم الخبير:

«إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل لايات لأولى الألباب (١) »

ويقوله سبحانه: «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون .

ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لايات لقوم يتفكرون.

ومن آياته خلق السماوات الأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لايات للعالمين.

ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون.

ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزّل من السماء ماء فيحى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لايات لقوم يعقلون.

ومن اياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » (٢) . فهذه آيات تبين بعض الحقائق الكونية ليتدبرها أولو الألباب .

---

(١) آل عمران : ١٩٠ .

(٢) الروم : ٢٠ – ٢٥.

مراحل خلق الإنسان:

وعن هذه المراحل

قال العليم الخبير:« يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج» (1).

قانون السير والنظر فى الأرض :

وعن هذا القانون

قال العليم الخبير: «قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (2).

«فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (3).

«قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (4).

«فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (5).

«قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » (6).

---

(1) الحج : ٥

(2) يونس : ١٠١.

(3) آل عمران : ١٣٧ .

(4) الأنعام : ١١

(5) النحل : ٣٦

(6) العنكبوت : ٢٠ .

«قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين»[1].

فانظر إلى مدلول هذه الايات التى تهدف إلى قانون السير والنظر، وكيف فهم الرعيل الأول هذا المدلول؟

لقد غرس فى نفوسهم حب العلم، والتسابق فى طلبه حتى أنهم بعد وفاة النبى ﷺ بست سنين كما يقول العلامة «درابر».

«شرعوا يطلبون العلم ، فلم يدعوا فرعا من فروعه إلا حذقوه ، وصاروا أئمته»[2].

فلو كان الإسلام يريد بالعلم العلوم الدينية فقط لوقفوا عند حدودها كما فعل المسلمون فى العصور المتأخرة .

قال سديو [3] فى كتابه تاريخ العرب :

«لقد كان المسلمون متفردين بالعلم فى تلك القرون المظلمة فنشروه حيث وطئت أقدامهم ، وكانوا السبب فى خروج أوروبا من الظلمات إلى النور» .

فطلب العلم عبادة ، وطلب القوت عبادة ، وتآلف الناس عبادة وعيادة المريض عبادة ، حتى أن المؤمن ليؤجر فى كل شىء حتى اللقمة حين يرفعها إلى امرأته [4] .

---

(١) الروم : ٤٢ .
(٢) محمد فريد وجدى : الإسلام هداية وإصلاح ص٧٣ .
(٣) مؤرخ كبير من وزراء فرنسا السابقين .
(٤) أنظر الإسلام هداية وإصلاح ص ٥٠ .

ثانياً : مكانة العلم والعلماء فى السنة :

فكما حظى العلم والعلماء بتشريف عناية القرآن الكريم ، فقد نالا نفس العناية والتقدير فى السنة الشريفة .

فقد ورد فى الصحيحين من حديث معاوية رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من يرد الله به خيرا يفقه فى الدين » ، والفقة : معناه الفهم والعلم .

فمن لم يفقهه فى دينه لم يرد به خيراً ، كما أن من أراد به خيرا فقهه فى دينه، ومن فقهه فى دينه فقد أراد به خيرا والمراد بالفقه العلم المستلزم للعمل ، وأمان إن أريد به مجرد العلم فلا يدل على أن من فقه فى الدين فقد أريد به خيرا ، فإن الفقه حينئذ يكون شرطاً لإرادة الخير .

وما جاء فى الصحيحين أيضاً من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مثل مابعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب فأمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولاتنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

فقد شبه الرسول ﷺ فى هذا الحديث - العلم والهدى الذى جاء به بالغيث ، لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ، من النافع والأغذية والأدوية ، وسائر مصالح العباد فإنها بالعلم والمطر ، وشبه القلوب بالأراضى التى يقع عليها المطر لأنها المحل الذى يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع كما أن القلوب تعى العلم فيثمر فيها ويزكو وتظهر بركته وثمرته .

ثم قسم الناس إلى ثلاثة أقسام بحسب قبولهم واستعدادهم لحفظه ، وفهم معانيه ، واستنباط أحكامه واستخراج حكمه وفوائده :

أ- أهل الحفظ والفهم الذين حفظوه وعقلوه وفهموا معانيه ، واستنبطوا وجوه الأحكام والحكم والفوائد منه فهؤلاء بمنزلة الأرض التى قلبت الماء وهذا بمنزلة الحفظ، فأنبتت الكلاء والعشب الكثير ، وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والإستنباط فإنه بمنزله إنبات الكلأ والعشب بالماء فهذا مثل الحفاظ والفقهاء أهل الرواية والدراية .

ب- أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطته ولم يرزقوا تفقها فى معانيه، ولا استنباطا ولا استخراجا لوجوه الحكم والفوائد منه فهم بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه ويراعى حروفه ، وإعرابه ، ولم يرزقه فيه فهما خاصا عن الله عز وجل كما قال على رضى الله عنه : إلا فهما يؤتيه الله عبداً فى كتابه .

والناس متفاوتون فى الفهم عن الله عز وجل ورسوله ﷺ أعظم تفاوت فرب شخص يفهم من النص حكما أو حكمين ويفهم آخر مائة أو مائتين ، فهؤلاء بمنزلة الأرض التى أمسكت الماء للناس فانتفعوا به هذا يشرب منه ، وهذا يسقى ، وهذا يزرع، فهؤلاء هما السعداء ، والأولون أرفع درجة ، وأعلى قدراً .

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

جـ- الذين لا نصيب لهم منه لاحفظا ولافهما ، ولا رواية ولا دراية ، بل هم بمنزلة الأرض التى هى قيعان لاتنبت ، ولا تمسك الماء ، وهؤلاء هم الأشقياء .

لقد اشتمل هذا الحديث العظيم على مايلى :

١- التنبيه على شرف العلم والتعليم ، وعظم موقعه .

٢- شقاء من ليس من أهله ، ولا من حملته .

٣- تقسيم الناس إلى شقى وسعيد ، وسعيدهم إلى سابق مقرب وصاحب يمين مقتصد .

٤- حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر بل أعظم فهم بالعلم يسخرون المطر لمصالحهم ، ومعايشهم وحضارتهم .

٥- إذا فقد الناس العلم فهم بمنزلة الأرض الجرداء التى هجرها الغيث فغادرها أصحابها [١] .

قال الإمام أحمد رضى الله عنه الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب ، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه مرة أو مرتين ، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس [٢] .

دعوة النبى ﷺ :

دعا النبى ﷺ لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنضرة ، وهى البهجة ، ونضارة الوجه، وتحسينه ، ففى الترمذى وغيره من حديث ابن مسعود عن النبى ﷺ قال :

« نضر الله أمرءا سمع مقالتى فوعاها وحفظها ، وبلغها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة أئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم » .

وروى هذا الأصل عن النبى ﷺ كل من : أبن مسعود ، ومعاذ ابن جبل ، وأبى الدرداء ، وجبير بن مطعم وآخرين [٣] رضى الله عنهم أجمعين .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١ / ٦١ .

(٢) المرجع نفسه : ١ / ٦٢ .

(٣) قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

ومما جاء فى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » . فقد أخبر ﷺ فى أنه لا ينبغى لأحد أن يحسد أحدا حسد غبطة وبسرور ، ويتمنى مثل حاله ، من غير أن يتمنى زوال نعمة الله عنه إلا فى واحدة من هاتين الخصلتين وهى : الإحسان إلى الناس بعلمه ، أو بماله ، وماعدا هذين فلاينبغى غبطته ، ولا تمنى مثل حاله لقلة منفعة الناس به ، وفى هذا تعليم وإرشاد لأمة محمد ﷺ .

وروى الوليد بن مسلم عن خالد بن يزيد عن عثمان بن أيمن عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من غدا لعلم يتعلمه فتح الله له به طريقا إلى الجنة ، وفرشت له الملائكة أكنافها ، وصلت عليه ملائكة السماء ، وحيتان البحر ، وللعالم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، والعلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذ بالعلم أخذ بحظ وافر ، وموت العالم مصيبة لا تجبر وثلمة لا تسد ، ونجم طمس ، وموت قبيل أيسر من موت عالم »[1] .

هذا الحديث الجامع بروايته لو لم يوجد سواه فى الحث على العلم وطلبه لكفى، ومن ثم فقد أفاض ابن القيم رحمة الله عليه فى شرحه إفاضة عظيمة وبينه فضل بيان بمايلى : .

والطرق التى يسلكها المسلم إلي الجنة جزاء على سلوكه فى الدنيا طريق العلم الموصلة إلى رضا ربه تبارك وتعالى ، ووضع الملائكة أجنحتها له تواضعا له وتوقيرا وإكراما لما يحمله من ميراث النبوة ويطلب ، وهو يدل على المحبة ، والتعظيم فمن محبة

(١) حديث حسن راجع مفتاح دار السعادة جـ ١ ص ٦٣ .

الملائكة له وتعظيمه إياه أن تضع أجنحتها له و لأنه طالب لما به حياة العالم ونجاته ، ففيه شبه من الملائكة، وبينه وبينهم تناسب ، فإن الملائكة أنصح خلق الله ، وأنفعهم لبنى آدم ، وعلى أيديهم حصل لهم كل سعادة وعلم وهدى .

ومن نفعهم لبنى آدم ونصحهم أنهم يستغفرون لمسيئهم ، ويثنون على مؤمنهم ويعينونهم على أعدائهم من الشياطين ، ويحرصون على مصالح العبد أضعاف حرصه على مصلحة نفسه ، بل يريدون له من خير الدنيا والآخرة مالا يريده العبد ولا يخطر بباله .

كما قال بعض التابعين : وجدنا الملائكة أنصح خلق الله لعباده ، ووجدنا الشياطين أغش الخلق للعباد [1].

وقد قال الله تعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم ، وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظم » [2] .

فأى نصح للعباد مثل هذا النصح ، إلا نصح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإذا طلب العبد العلم فقد سعى فى أعظم ما ينصح به عباد الله فلذلك تحبه الملائكة ، وتعظمه حتى تضع أجنحتها له رضا ومحبة وتعظيما .

قال أبو حاتم الرازى : سمعت ابن أبى أويس يقول : سمعت مالك بن أنس يقول : معنى قول رسول الله ﷺ : « تضع أجنحتها » يعنى تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلا من الأيدى [3] .

---

(١) مفتاح دار السعادة : جـ١ ص ٦٣.

(٢) غافر : ٧ - ٩ .

(٣) مفتاح دار السعادة : جـ١ ص ٦٤.

جزاء المستهزء بهذه العبارة من الحديث :

قال أحمد بن مروان المالكى فى كتاب المجالسة له : حدثنا زكريا بن عبد الرحمن البصرى قال : سمعت أحمد بن شعيب يقول : كنا عند بعض المحدثين بالبصرة فحدثنا بحديث النبى ﷺ : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم » وفى المجلس معنا رجل من المعتزلة فجعل يستهزئ بالحديث ، فقال : والله لأطرقن غدا نعلى بماسمير فأطأ بها أجنحة الملائكة ففعل ومشى فى النعلين فجفت رجلاه جميعاً ووقعت فيهما الأكلة .

وقال الطبرانى : سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجى . قال : كنا نمشى فى بعض أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين فأسرعنا المشى ، وكان معنا رجل ماجن منهم فى دينه ، فقال أرفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ فمازال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط (١) .

وفى السنن والمسانيد من حديث صفوان بن عسال ، قال : قلت يارسول الله : إنى جئت أطلب العلم قال : « مرحبا بطالب العلم ، إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله بأجنحتها فيركب بعضهم بعضاً حتى تبلغ السماء الدنيا من حبهم لما يطلب » (٢)

وقال المزنى: روى عن ابن عباس أنه قال: إن الشياطين قالوا لإبليس: يا سيدنا مالنا نراك تفرح بموت العالم مالا تفرح بموت العابد، والعالم لا نصيب منه، والعابد نصيب منه؟

قال: انطلقوا فانطلقوا إلى عابد فأتوه فى عبادته فقالوا: إنا نريد أن نسألك، فقال: سلوا ، فقال إبليس: هل (يقد ر) ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة؟ فقال: لا أدرى ،

(١) مفتاح دار السعادة : جـ ١ ص ٦٤ .

(٢) قال الحاكم : إسناده صحيح .

فقال - إبليس - أترونه كفر فى ساعة، ثم جاءوا إلى عالم فى حلقته يضحك أصحابه، ويحدثهم فقالوا: إنا نريد أن نسألك، فقال: سل، فقال: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة؟ قال: نعم قالوا: كيف؟ قال: يقول: كن فيكون، فقال - إبليس - أترون ذلك لا يعدو نفسه، وهذا يفسد عَلَيَّ عالما كثيرا.

ولهذه الحكاية رواية أخرى: هى: أنهم سألوا العابد: هل يقدر ربك أن يخلق مثل نفسه؟ فقال: لا أدرى، فقال: - إبليس - أترونه لم تنفعه عبادته مع جهله. وسألوا الفقيه عن ذلك فأجاب قائلا: هذه المسألة محالة لأنه لو كان مثله لم يكن مخلوقا، فكونه مخلوقا وهو مثل نفسه مستحيل، فإذا كان مخلوقا لم يكن مثله، بل كان عبدا من عبيده، وخلقا من خلقه. فقال أى إبليس -: أترون هذا يهدم فى ساعة ما أبنيه فى سنين.

وروى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: «فضل العالم على العابد سبعين درجة بين كل درجتين حضر الفرس سبعين عاما».

وذلك أن الشيطان يضع البدعة، فيبصرها العالم، وينهى عنها، والعابد مقبل على عبادة ربه، لا يتوجه لها ولا يعرفها، وهذا معناه صحيح، فإن العالم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه، ويهدم ما يبنيه، فكل ما أراد إحياء بدعة وإماتة سنة حال العالم بينه وبين ذلك فلا شىء أشد عليه من بقاء العالم بين ظهراً نى الأمة، ولا شىء أحب إليه من زواله من بين أظهرهم ليتمكن من إفساد الدين وإغواء الأمة. وأما العابد فغايته أن يجاهده ليسلم منه فى خاصة نفسه وهيهات له ذلك (١).

شهادة لأولى العلم: قال الله تعالى: «قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتو العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا، ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا»(٢).

---

(١) مفتاح دار السعادة حـ١ ص ٦٩.

(٢) الاسراء : ١٠٧، ١٠٨ .

فهذه شهادة من الله تعالى لأولى العلم بالإيمان به وبكلامه.

وقال عن أهل النار: «وقالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير»(١).

فدل على أن أهل الضلال لا سمع لهم ولا عقل، وقال تعالى : «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون – بكسر اللام – (٢) ». أخبر تعالى أنه لا يعقل أمثاله إلا العالمون، والكفار لا يدخلون فى مسمى العالمين فهم لا يعقلونها.

وقال الترمذى وغيره أنه ﷺ قال : «خصلتان لا يجتمعان فى منافق: حسن سمت، وفقه فى الدين، فجعل الفقه فى الدين منافيا للنفاق، بل لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه إلا على العلم الذي يصحبه العمل، كما سئل سعد بن إبراهيم عن أفقه أهل المدينة؟ قال أتقاهم، وسئل الحسن عن الفقيه: فقال: إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا الراغب فى الآخرة، البصير بدينه المداوم على عبادة ربه، الذى لا يهمز من فوقه، ولا يسخر بمن دونه ولا يبتغى على علم علمه الله تعالى أجراً.

وقال بعض السلف: إن الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم مكر الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه (٣).

ومن نظر فى سيرة رسول الله ﷺ، مع قومه ومع اليهود علم أنهم كانوا جازمين بصدقه ﷺ لا يشكون أنه صادق فى قوله أنه رسول الله ولكن اختاروا الضلال والكفر على الإيمان. قال المسور بن مخرمة رضى الله عنه لأبى جهل : ، وكان خاله أى خال هل كنتم تتهمون محمدا بالكذب قبل أن يقول مقالته التى قالها؟ قال أبو جهل لعنه الله تعالى: يا ابن أخى والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يدعى الأمين ما جربنا عليه كذبا

(١) الملك : ١٠.

(٢) العنكبوت: ٤٣.

(٣) مفتاح دار السعادة : ٨٩/١.

قط، فلما وخطه الشيب لم يكن ليكذب على الله، قال : يا خال فلم لا تتبعونه؟ قال: يا ابن أخى تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف فـاطعـمـوا وأطعمنا، وسـقـوا وسـقـينا، وأجـاروا وأجرنا، فلما تجـاثينا على الركب، وكنا كفرسى رهان قالوا: منا نبى فمتى هذه؟ وهذا أميـة ابن أبى الصلت كـان ينتظره يومـا بيوم وعلمـه عنده قبل مـبعثـه. وقصـتـه مـع أبى سفيان لما سافرا معاً معروفة، وأخباره برسول اللهﷺ، ثم ما تيقنه وعرف صدقه قال: لا أومن بنبى من غير ثقيف أبداً، وهذا هرقل تيقن أنه رسـول اللهﷺ ولم يشك فـيـه، وآثر الضلال والكفر استبقاء لملكه.

ولما سأله اليهود عن التسع آيات البينات فـأخبرهم بها قبّلوا يده، وقالوا: نشـهد أنك نبى، قـال: فمـا يمنعكم أن تتبـعونى؟ قالوا: إن داود عليه السلام دعـا أن لا يزال فى ذريته نبى، وإنا نخشى إن اتبعناك أن تقتلنا يهود، فهؤلاء قد تحققوا نبوته وشهدوا له بها، ومع هذا فقد آثروا الكفر على الضلال، ولم يصيروا مسلمين بهذه الشهادة. فلا تتم الشهادة حتى يشهد لله بالوحدانية (١).

«وإذ قال موسى لقومة ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله اليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين » (٢).

فعاقبهم الله سبحانه بإزاغة قلوبهم عن الحق لما زاغوا عنه ابتداء.

ونظيره قول الله تعالى: «ونقلب أفئدتهم وأبصـارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون »(٣).

---

(١) راجع مفتاح دار السعادة.. ٩٣/١.
(٢) الصف : ٥.
(٣) الأنعام : ١١٠.

من فضائل العلم

أما فضائل العلم فكثيرة منها :

ماروٍاه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرا، أو ليعلمه كان كالمجاهد فى سبيل الله، ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر إلى ماليس له» .

وما رواه ابن حبان أيضا فى صحيحه من حديث الثلاثة الذين انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى حلقة فاعرض أحدهم واستحى الآخر، فجلس خلفهم، وجلس الثالث فى فرجة فى الحلقة، فقال النبى ﷺ:

«أما أحدهم فاوى إلى الله فاواه الله.

وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه.

وأما الآخر فاعرض فأعرض الله عنه».

فلو لم يكن لطالب العلم إلا أن الله يؤويه إليه، ولا يعرض عنه لكفى به فضلا [1].

وما رواه كميل بن زياد النخعى قال: أخذ على بن أبى طالب رضى الله عنه بيدى فاخرجنى ناحية الجبانة، فلما أسحر جعل يتنفس، ثم قال ياكميل بن زياد: القلوب أوعية فخيرها أوعاها احفظ عنى ما أقول لك.

الناس ثلاثة: فعالم ربانى، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق:

العلم خير من المال العلم يحرسك، وأنت تحرس المال.

العلم يزكو على الأنفاق، وفى رواية على العمل، والمال تنقصه النفقة.

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/١٢٣.

العلم حاكم، والمال محكوم عليه، ومحبة العلم دين يدان بها.

العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، وصنيعة المال تزول بزواله . مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة هاه هاه إن ههنا علما وأشار بيده إلى صدره، لو أصبت له حملة، بل أصبته لقناً غير مأمون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا يستظهر حجج الله على كتابه، وبنعمه على عباده، أو منقادا لأهل الحق لا بصيرة له فى أحنائه ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة لاذا ولا ذاك، أو منهوما للذات سلس القياد للشهوات، أو مغرى بجمع الأموال، والإدخار ليسا من دعاة الدين أقرب شبها بهم الأنعام السائمة لذاك يموت العلم بموت حامله.

اللهم بك لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته لكيلا تبطل حجج الله وبيناته أولئك الأقلون عددا، الأعظمون عند الله قيلا، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها فى قلوب أشباههم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، وأنسوا ما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدان، أرواحها معلقة بالملأ الاعلى أولئك خلفاء الله فى أرضه ودعاته إلى دينه هاه هاه شوقا إلى رؤيتهم، وأستغفر الله لى ولك إذا شئت فقم. ذكره أبو نعيم فى الحلية وغيره [1].

أعظم الخلق عند الله سبحانه :

روى ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه يرفعه إلى النبى ﷺ قال:

« سأل موسى ربه عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة، والسابعة لم يكن موسى يحبها .

قال: يارب أى عبادك أتقى؟ قال الذى يذكر ولا ينسى.

(١) نقلا عن مفتاح دار السعادة: ١٢٣/١، وقد شرح ابن القيم رحمه الله تعالى وصية على بن أبى طالب كاملة شرحا وافيا فليرجع اليها من شاء فى مفتاح دار السعادة ١٢٣/١ وما بعدها.

قال : فأى عبادك أهدى؟ قال الذى يتبع الهدى،

قال فأى عبادك أحكم؟ قال الذى يحكم للناس ما يحكم لنفسه،

قال: أى عبادك أعلم؟ قال: عالم لا يشبع من العلم يجمع علم الناس إلى علمه،

قال : فأى عبادك أعز ؟ قال الذى إذا قدر عفا،

قال: فأى عبداك أغنى؟ قال: الذى يرضى بما أوتى» .

قال: فأى عبادك أفقر؟ قال: صاحب منقوص .

فأخبر الله عز وجل موسى عليه السلام فى هذا الحديث أن أعلم عباده الذى لا يشبع من العلم، فهو يجمع علم الناس إلى علمه لنهضته فى العلم، وحرصه عليه، ولا ريب أن كون العبد أعظم عباد الله من أعظم أوصاف كماله، وهذا هو الذى حمل موسى على الرحلة الى عالم الأرض ليعلمه مما علمه الله. هذا مع أنه كليم الله سبحانه وأكرم الخلق على الله فى زمانه، وأعلم الخلق فحمله حرصه ونهمته فى العلم على الرحلة إلى العالم الذى وصف له فلو لا أن العلم أشرف ما بذلت فيه المهج، وأنفقت فيه الأنفاس ولا اشتغل موسى عن الرحلة إلى الخضر بما هو بصدده من أمر الأمة، وعن مقاساة النصب والتعب فى رحلته وتلطفه للخضر فى قوله: «هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا» (١).

فلم ير اتباعه حتى أستأذنه فى ذلك وأخبره أنه جاء متعلما مستفيدا فهذا النبى الكريم كان عالما بقدر العلم وأصله صلوات الله وسلامه عليه (٢) .

---

(١) الكهف : ٦٦.

(٢) مفتاح دار السعادة: ١/١٥٩.

من هم السفلة ؟

اشتدة وصاية العارفين بالله لمحبيهم بالعلم، وطلبه، وأنه من لم يطلبه لم يفلح حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة.

قال ذو النون: وقد سئل عن السفلة؟ فقال من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ولا يتعرفه.

وقال أبو يزيد: لو نظرتم إلى الرجل، وقد أعطى من الكرامات حتى يتربع فى الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود ومعرفة الشريعة.

وقال أبو حمزة البزاز: من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلا متابعة الرسول ﷺ فى أقواله وأفعاله وأحواله. وقال محمد بن الفضل الصوفى الزاهد: ذهاب الإسلام على يدى أربعة أصناف من الناس:

صنف لا يعملون بما يعلمون، وصنف يعملون بما لا يعلمون، وصنف لا يعملون ولا يعلمون، وصنف يمنعون الناس التعلم.

الصنف الأول من له علم بلا عمل فهو أضر شىء على العامة، فإنه حجة لهم فى كل نقيصة ومنحة.

والصنف الثانى: العابد الجاهل، فإن الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه فيقتدون به على جهله، وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف فى قوله: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فإن الناس انما يقتدون بعلمائهم وعُبادهم، فإذا كان العلماء فجرة، والعباد جهلة عمت المصيبة بهما وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة.

والصنف الثالث: الذين لاعلم لهم ولا عمل، وإنما هم كالأنعام السائمة.

والصنف الرابع: نواب إبليس فى الأرض، وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه فى الدين، فهولاء أضر عليهم من شياطين الجن، فإنهم يحولون بين القلوب، وبين هدى الله وطريقه ، فهؤلاء الأربعة أصناف هم الذين... على شفا جرف هار، وعلى سبيل الهلكة، وما يلقى العالم الداعى إلى الله ورسوله، ما يلقاه من الأذى والمحاربة إلا على أيديهم، والله يستعمل من يشاء فى سخطه كما يستعمل من يحب فى مرضاته إنه بعباده خبير بصير، ولا ينكشف سر هذه الطوائف وطريقتهم إلا بالعلم، فعاد الخير بحذافيره إلى العلم، وموجبه والشر بحذافيره إلى الجهل وموجبه.[1].

صفة حملة العلم؟

ما روى عن النبى ﷺ فى قوله: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » [2].

فهذا الحمل المشار إليه فى هذا الحديث هو التوكل المذكور فى الآية، فأخبر ﷺأن العلم الذى جاء به يحمله عدول أمته من كل خلف حتى لا يضيع ويذهب، وهذا يتضمن تعديله ﷺ لحملة العلم الذى بعث به وهو المشار إليه فى قوله: هذا العلم، فكل من حمل العلم المشار إليه لابد وأن يكون عدلا ، ولهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقلته، وحملته اشتهارا الا يقبل شكا، ولا امتراء، ولا ريب أن من عدّله رسول الله ﷺلا يسمع فيه جرح فالأئمة الذين اشتهروا عند الأمة بنقل العلم النبوى، وميراثه كلهم عدول بتعديل رسول الله ﷺ لهم ولهذا لا يقبل قدح بعضهم فى بعض وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمة جرحه والقدح فيه كائمة البدع، ومن جرى مجراهم من المتهمين فى الدين، فإنهم ليسوا

---

(١) مفتاح دار السعادة: ١/١٦٠.

(٢) له طرق متعددة راجعها فى الصفحة التالية .

عند الأمة من حملة العلم، فما حمل علم رسول الله ﷺ إلا عدل، ولكن قد يغلط فى مسمى العدالة فيظن أن المراد بالعدل من لا ذنب له، وليس كذلك، بل هو عدل مؤتمن على الدين وإن كان منه ما يتوب إلى الله منه، فإن هذا لا ينافى العدالة كما لا ينافى الإيمان والولاية[1].

قال الخلال فى كتاب العلل:

قرأت على زهير بن صالح بن أحمد حدثنا مهنا قال: سألت أحمد عن حديث معاذ ابن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذرى قال: قال رسول الله ﷺ:

«يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه:

تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».

فقلت لأحمد: كأنه موضوع، قال: لا هو صحيح، فقلت: ممن سمعته أنت؟ فقال: من غير واحد قلت: من هم؟ قال : حدثنى به مسكين، إلا أنه يقول عن معاذ عن القاسم ابن عبد الرحمن قال أحمد ومعاذ بن رفاعة لا بأس به.

ومنها ما رواه أبو صالح حدثنا الليث بن سعد عن يحى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت النبى ﷺ يقول:

«يرث هذا العلم من كل خلف عدوله».

ومنها ما رواه أبو أحمد بن عدى من حديث زريق بن عبد الله الألهانى عن القاسم ابن عبد الرحمن عن أبى أمامة الباهلى قال: قال رسول الله ﷺ الحديث رواه عنه بقية.. ومنها ما رواه القاضى اسماعيل من حديث على بن مسلم البلوى عن أبى صالح الأشعرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ [2] .

(١) مفتاح دار السعادة ١٦٣/١.

(٢) راجع هذه الروايات فى مفتاح دار السعادة: ١٦٤/١.

سلطان العلم وحجته

سمى الله تعالى الحجة العلمية سلطانا . قال ابن عباس رضى لله عنهما: كل سلطان فى القرآن فهو حجة ، وهذا كقول العليم الخبير «قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون» (١).

أى ما عندكم من حجة بما قلتم إن هو إلا قول على الله بلا علم ، وقال سبحانه : «إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان» (٢).

أى ما أنزل بها حجة ولا برهانا، بل هى من تلقاء أنفسكم وآبائكم ، وقال العليم الخبير: «أم لكم سلطان مبين ، فاتوا بكتابكم إن كنتم صادقين» (٣).

أى حجة واضحة فأتوا بها إن كنتم صادقين فى دعواكم.

أما قوله سبحانه: «ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانية» (٤) . فاختلف فيه:

فقيل: المراد به القدرة والملك ، أى انقطعت حجتى وبطلت ، فلا حجة لى .

والمقصود أن الله سبحانه سمى علم الحجة سلطانا ، لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره فله به سلطان على الجاهلين ، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، أما اليد فإنما ينقاد لها البدن، فالحجة تأسر القلب، وتقوده وتذل المخالف وإن أظهر العناد والمكابرة، فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها، بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به، فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم، ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومن لم يكن له اقتدار فى علمه فهو إما لضعف

---

(١) يونس: ٦٨.

(٢) النجم : ٢٣ .

(٣) الصافات : ١٥٦ ، ١٥٧.

(٤) الحاقة: ٢٨ ، ٢٩.

حجته وسلطانه، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ظاهرة على الباطل قاهرة له [1] .

إن الله عز وجل وصف أهل النار بالجهل، وأخبر أنه سد عليهم طرق العلم، فقال سبحانه وتعالى حكاية عنهم: «وقالوا لوكنا نسمع أو نعقل ماكنا فى أصحاب السعير، فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير» [2].

فأخبروا أنهم كانوا لايسمعون ولايعقلون، والسمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال .

قال سبحانه : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم اذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون»[3].

فأخبر سبحانه أنهم لم يحصل لهم علم من أى حجة من جهات العلم الثلاث، وهى: العقل والسمع، والبصر، كما قال فى موضع آخر: «صم بكم عمى فهم لا يعقلون»[4].

وقال سبحانه: «أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور» [5].

وقال عز من قائل: «وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن»[6].

---

(١) مفتاح دار السعادة : ٥٩/١.

(٢) الملك: ١٠ ، ١١ .

(٣) الأعراف : ١٧٩ .

(٤) البقرة : ١٧١.

(٥) الحج : ٧٦.

(٦) الأحقاف : ٢٦.

فقد وصف أهل الشقاء كما ترى بعدم العلم وشبههم بالأنعام تارة، وبالحمار الذى يحمل الأسفار، وتارة جعلهم أضل من الأنعام، وتارة جعلهم شر الدواب عنده، وتارة جعلهم أمواتا غير أحياء، وتارة أخبر أنهم فى ظلمات الجهل والضلال، وتارة أخبر أن على قلوبهم أكنة، وفى آذانهم وقر، وعلى أبصارهم غشاوة وهذا كله يدل على قبح الجهل وذم أهله [1] . أما أهل العلم فقد مدحهم وأثنى عليهم:

قال اله تعالى فى التنزيل العزيز : «أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل. فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال» [2].

شبه الله سبحانه العلم الذى أنزله على رسوله بالماء الذى أنزله من السماء، لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ، ومصالح العباد فى معاشهم، ومعادهم، ثم شبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علما كثيرا ، كواد عظيم يسع ماء كثيرا ، وقلب صغير. إنما يسع علما قليلا، كواد صغير يسع ماء قليلا. «فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا».

هذا مثل ضربه الله عز وجل للعلم حين تخالط القلوب بشاشته، فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة، فيطفو على وجه القلب، كما يستخرج السيل من الوادى زبدا يعلو فوق الماء، وأخبر سبحانه أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر فى أرض الوادى، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب، وطفت فلا تستقر فيه، وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون، ثم ضرب سبحانه لذلك مثلا آخر فقال: «ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله».

---

(١) مفتاح نور السعادة حـ١ ص٥٩.

(٢) الرعد : ١٧.

أى أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه، وهو الزبد الذى تلقيه النار، وتخرجه من ذلك الجوهر، بسبب مخالطتها فإنه يقذف ويلقى به ، ويستقر الجوهر الخاص وحده، وضرب الله سبحانه مثلا بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة ومثلاً بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق ، فآيات القرآن تحى القلوب كما تحيا الأرض بالماء، وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تحرق النار ما يلقى فيها، وتميز جيدها من زبدها، كما تميز النار الحديد من الذهب، والفضة والنحاس ونحوه منه.

فهذا بعض ما يفهم من هذا المثل العظيم من العبر والعلم[1]. قال الله تعالى: «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» [2] .

---

(١) مفتاح دار السعادة : جـ١ ص٦١.

(٢) العنكبوت : ٤٣ .

ثمرة العلم

تتجلى ثمرة العلم فى ان بقاء الدين والدنيا فى بقاء العلم، وبذهاب العلم تذهب الدنيا والدين، فقوام الدين والدنيا إنما هو بالعلم. قال الأوزاعى: قال ابن شهاب الزهرى: الاعتصام بالسنة نجاة والعلم يقبض قبضا سريعا، فَنَعْش العلم ثبات الدين والدنيا، وذهاب العلم ذهاب ذلك كله ...

إن العلم يرفع صاحبه فى الدنيا والآخرة، مالا يرفعه الملك ولا المال، ولا غيرهما، فالعلم يزيد الشريف شرفا، ويرفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك، كما ثبت فى الصحيح من حديث الزهرى عن أبى الطفيل أن نافع بن عبد الحارث أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعسفان، وكان عمر استعمله على أهل مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادى؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى، فقال: من ابن أبزى؟ فقال: رجل من موالينا، فقال عمر استخلفت عليهم مولى؟ فقال: إنه قارىء لكتاب الله عالم بالفرائض، فقال عمر رضى الله عنه: أما أن نبيكمﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويوضع به آخرين».

وقال أبو العالية: كنت أتى ابن عباس وهو على سريره وحوله قريش فيأخذ: بيدى فيجلسنى معه على السرير فتغامز بى قريش، ففطن لهم ابن عباس فقال: كذا هذا العلم يزيد الشريف شرفا، ويجلس المملوك على الإسرة (١).

وقال إبراهيم الحربى: كان عطاء ابن أبى رباح (فقيه مكة) عبداً أسود لامرأة من مكة، وكان أنفه كأنه باقلاة، قال وجاء سليمان بن عبد الملك امير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه فجلسوا إليه، وهو يصلى، فلما صلى انفتل إليهم، فمازالوا يسألونه عن مناسك الحج، وقد حول قفاه اليهم، ثم قال سليمان لابنيه: قوما، فقاما فقال: يابنى لا تنيافى طلب العلم فإنى لا أنسى ذلنا بين يدى هذا العبد الأسود.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ١/ ١٦٤. وراجع د/ مصطفى السباعى : من روائع حضارتنا ص ٦٦ .

قال الحربي: وكان محمد بن عبد الرحمن الأوقص عنقه داخل في بدنه، وكان منكباه خارجين كأنهما زجان، فقالت أمه: يابني لا تكون في مجلس قوم إلا كنت المضحوك منه المسخور به فعليك بطلب العلم، فإنه يرفعك. فولي قضاء مكة عشرين سنة.

وكان الخصم إذا جلس اليه بين يديه يرعد حتى يقوم.

ومرت به أمرأة فسمعته يقول: اللهم اعتق رقبتي من النار، فقالت له: يا ابن أخي وأي رقبة لك؟

قال يحي ابن أكثم قال الرشيد: ما أنبل المراتب؟ قلت: ما أنت فيه يا أمير المؤمنين، قال: فتعرف أجل مني ؟ قلت : لا ، قال: لكني أعرفه: رجل في حلقة يقول حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ قال : قلت : يا أمير المؤمنين أهذا خير منك ، وأنت ابن عم رسول الله ﷺ، وولي عهد المؤمنين؟ قال : نعم، ويلك هذا خير مني؛ لأن اسمه مقترن باسم رسول الله ﷺ لا يموت أبداً، ونحن نموت، ونفنى والعلماء باقون ما بقي الدهر[1] .

وقال خيثمة بن سليمان: سمعت أبي الخناجر يقول: كنا في مجلس ابن هارون والناس قد اجتمعوا إليه فمر أمير المؤمنين، فوقف علينا في المجلس، وفي المجلس ألوف، فالتفت إلى أصحابه، وقال: هذا الملك.

لمن تكون الدنيا ؟

روى الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا، وعلما فهو يتقي في ماله ربه، ويصل

---

(١) مفتاح دار السعادة: ١/ ١٦٥.

فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا، فهذا بأحسن المنازل عند الله، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا، فهو يقول: لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته، وهما فى الأجر سواء.

ورجل آتاه الله مالا، ولم يؤته علما فهو يخبط فى ماله، ولا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه، ولايعلم لله فيه حقا، فهذا بأسوأ المنازل عند الله، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علما، فهو يقول: لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته، وهما فى الوزر سواء »(١).

التعليق :

نلاحظ أن النبى ﷺ قسم أهل الدنيا أربعة أقسام وفاضل بينهم: فخيرهم من أوتى علما ومالا، فهو محسن إلى الناس وإلى نفسه بعلمه وماله، ويليه من أوتى علما، ولم يؤت مالا، وإن كان أجرهما سواء فذلك إنما كان بالنية، فقد ساواه، بنيته الجازمة فى الأجر.

الثالث: من أوتى مالا، ولم يؤت علما، فهذا أسوأ الناس منزلة عند الله تعالى؛ لأن ماله طريق إلى هلاكه فلو عدمه لكان خيراً له، فبدل أن يكون زاده الى الجنة كان زاده الى النار.

الرابع: من لم يؤت مالا، ولا علما، ومن نيته أنه لو كان له مال لعمل فيه بمعصية الله فهذا يلى الغنى الجاهل فى المرتبة، ويساويه فى الوزر بنيته الجازمة المقترن بها (٢). ومن ثمرة العلم أيضاً التفكر .

الفكرة مخ العقل :

قال بعض السلف: تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة.

---

(١) حديث صحيح صححه الترمذى والحاكم.

(٢) مفتاح دار اسعادة: ١/ ١٨٠.

وسأل رجل أم الدرداء بعد موته عن عبادته، فقالت: كان نهاره أجمعه فى بادية التفكر، وقال الحسن: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال الفضل: التفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك، وقيل لإبراهيم إنك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل، وكان سفيان كثيرا ما يتمثل:

إذا المرء كانت له فكرة .٠. ففى كل شيء له عبرة.

وقال الحسن فى قوله سبحانه وتعالى: «سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق» (١).

قال: أمنعهم التفكر.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: الفكرة فى نعم الله من أفضل العبادة.

وقال بشر: لو فكر الناس فى عظمة الله سبحانه ما عصوه..

ومن كلام الشافعى: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة وهذا لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح فكان عمله أشرف من عمل الجوارح .

ماهو الفكر ؟

احضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة مثال ذلك: إذا أحضر فى قلبه أمر العاجلة، وعيشها، ونعيمها، وما يقترن به من الافات وانقطاعه وزواله، ثم أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها ولذته ودوامه، وفضله على نعيم الدنيا، وجزم بهذين العلمين أثمر

---

(١) الأعراف: ١٤٦.

له ذلك علما ثالثا وهو أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة.[1].

الفرق بين التذكر والتفكر:

التذكر: يفيد تكرار القلب على ماعلمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة.

والتفكر: يفيد تكثير العلم، واستجلاب ماليس حاصلا عند القلب فالتفكر يحصله، والذكر يحفظه.

ومن ثم قال الحسن: مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة فالتفكر والتذكر بذار العلم، وسقيه ومطارحته، ومذاكرته تلقيحه، كما قال بعض السلف: ملاقات الرجال تلقيح لألبابها.. فالخير والسعادة فى خزانة مفتاحها التفكر، فإنه لابد من تفكر وعلم يكون نتيجته الفكر[2].

وبالجملة: فأصل كل طاعة إنما هى الفكر.

وأصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة، فإن الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبذر فيها حب الأفكار الرديئة، فيتولد منه الإرادات، والعزوم فيتولد منها العمل فإن صادف أرض القلب مشغولة لم يجد لبذره موضعا.

كما قيل: أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى .·. فصادف قلبا فارغا فتمكنا [3].

---

(١) مفتاح دار السعادة: ١/١٨٠.

(٢) مفتاح دار السعادة: ١/١٨٣.

(٣) مفتاح دار السعادة: ١/١٨٣.

أهمية قراءة القرآن بفكر وتدبر :

ومن ثمرات العلم النافع قراءة القرآن بتدبر فقد

ثبت أن النبى ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح وهى قوله سبحانه:

« إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم (١).

فقراءة القرآن بالتفكر هى أصل صلاح القلب، ولهذا قال ابن مسعود:

لا تهذوا القرآن هذا الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، لا يكن هم أحدكم آخر السورة.

وروى أبو أيوب عن أبى جمرة قال: قلت لابن عباس: إنى سريع القراءة، إنى أقرأ القرآن فى ثلاث، قال: لأن أقرأ سورة من القرآن فى ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلى من أن أقرأ القرآن كما تقرأ (٢) .

نوعا التفكر فى القرآن:

يأتى التفكر فى القرآن على نوعين :

الأول: تفكر فى الدليل القرآنى: والآخر: تفكر فى الدليل العيانى الأول تفكر فى آياته المسموعة، والآخر: تفكر فى آياته المشهودة، ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر، ويتفكر فيه، ويعمل به لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه، وقال الحسن: أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملا (٣). لأن الثمرة أكيدة ، والجزاء من جنس العمل .

---

(١) المائدة: ١١٨.

(٢) مفتاح دار السعادة: ١/١٨٧.

(٣) مفتاح دار السعادة : ١/١٨٧.

أثر القرآن الكريم في الثقافة الإسلامية

مما لا ريب أن أثر القرآن الكريم واضح تمام الوضوح فى ثقافة العرب وتفكيرهم حتى لقد شغلهم عن الشعر الذى كانوا يتيهون به فخراً وإعزازا، فقد كان العرب ولا سيما قريشاً - كما وصفهم الكتاب الكريم - كانوا من الدهاء واللدد عند الخصومة، وخلابة الألسنة، وبلاغة المنطق والتمسك بما ألفوه من العوائد على جانب عظيم إلى أن جمعهم على كلمة الإيمان وعلمهم من المعارف والكمالات ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى، ومرّنهم على محاسن الأخلاق، وحثهم على السعي والتكسب، وأصلح لهم ما أفسدوا وحدد لهم ما بدلوه وغيروه حتى نبعت من قلوبهم ينابيع الحكم الجمّة ، والمعارف النورانية، وفاضت على الصدور والألسنة وامتلأت منها الكتب والدفاتر، وأصبحوا أعلم من فى الأرض، فما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحية إلا وكان لهم به علم ومعرفة، وبذلك تقدموا حينئذ ذلك التقدم الذى بهر العقول، واستولوا على غالب أقطار المعمورة، وجلوا عن القلوب ظلماتها وأشادوا الدين على أمتن أساس، وانقذوا العالم من لجج الجهل والفساد [1] قال الله تعالى «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراو نذيرا »[2].

وقال عز من قائل: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » [3].

وقال سبحانه وتعالى: «هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » [4].

---

(١) راجع لمحمد راغب الطباخ: الثقافة الإسلامية ص ٢٤.

(٢) سبأ: ٢٨.

(٣) الأنبياء: ١٩٠٧.

(٤) الجمعة: ٢.

فأكرمهم الله سبحانه إكراما عظيما إذ أخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى أنوار الإيمان الذى ظهر واضحا جليا عليهم.

قال عز اسمه: «الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد» (1).

فقد أعلمنا الله عز وجل أن إنزاله القرآن للنبى ﷺ ليخرج الناس من ظلمات الكفر والضلال والجهل إلى نور الإيمان والعلم.

فقام صلى الله عليه وسلم داعيا إلى الله بإذنه مبشرا ومنذراً فمنهم من ظهر له نور الحق لأول وهلة وتجلت له محاسنه لأول نظرة فبادر إلى الشهادة لله سبحانه بالوحدانية، ولرسوله ﷺ بالرسالة، وهجر ما كان عليه من عبادة الأصنام التى لا تضر ولا تنفع، إلى عبادة الله وحده مخلصا له الدين، ولم يشرك بعبادة ربه أحدا. فكان منهم من قبل الدعوة، ومنهم من عاند وكفر كما يتضح فيما يلى:

١- فريق قابل هذه الدعوة بالرد، وأنكر ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم، ولم يصدق أن هذا القرآن من عند الله لقصور نظره، وعدم تدبره فهؤلاء خوطبوا بقوله تعالى: «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين» (2).

هنا تدبروا وتأملوا وهم أهل الفصاحة والبيان والقابضون على زمام الكلام، فوجدوا أنفسهم عاجزين عن الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، فتحققوا أن هذا الكلام ليس من جنس كلام البشر، ولا من مقدوره وأنه من عند الله حقا فأذعنوا عند ذلك واستسلموا عن اقتناع.

---

(١) إبراهيم : ١.

(٢) البقرة : ٢٣.

٢- ومنهم فريق ظل على كفره وعناده وأدبر واستكبر فقوتلت هذه حتى فاءت إلى أمر الله تعالى ووضح لها الطريق السوى وصارت العرب بعد ذلك تدخل فى دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام، وعم نوره فى حياته ﷺ جزيرة العرب.

٣- كان فى أثناء ذلك ينزل القرآن نجوما آمرا وناهيا مبينا لهم الأحكام وحاثا لهم على مكارم الأخلاق، وترك سيء العادات، وكانوا يقابلون هذه الأوامر بالسمع والطاعة والكف عن المنكر فتهذبت بذلك نفوسهم، وأقلعت عن كل مكروه واتحدت كلمتهم وتآلفت على التقوى قلوبهم، بعد تلك العداوة، وذلك التفرق واستقاموا على الطريقة، وأصبحوا بنعمة الله إخوانا، وصاروا اعباد الله حقا، فأنزل على نبيه ما يشعر بكرامتهم، وفضلهم وحسن حالهم مخاطبا لهم بقوله:

«كنتم خيرا أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»(١).

وقوله سبحانه: «من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا». (٢)

٤ – كما نزلت أيضا الآيات المحرضة على التحلى بالعلم، والتفقه فى الدين والخروج من دائرة الجهل كقوله سبحانه:

«قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (٣).

وقوله عز اسمه: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» (٤)

---

(١) آل عمران : ١١٠.

(٢) الأحزاب : ٢٣.

(٣) الزمر : ٩ .

(٤) المجادلة: ١١.

وقوله عز شأنه: «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »[1]

إلى غير ذلك من الآيات، فلازمت زمرة منهم النبى ﷺ فى مجالسه ومسجده وسفره، وحضره، فكانت تتلقى تلك الآيات على إثر الوحى تكتبها وتحفظها، وتتفهمها وتتدبر معانيها، فتفقهت بكلام الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وأخذت عنهما الحكمة، وتفجرت ينابيعها فى قلوبهم، وصدق فيهم قول النبى ﷺ.

«من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين »[2].

وقوله: «خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ».[3]

وقوله سبحانه «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا »[4].

٥- نهض هؤلاء وفى قلوبهم أمضى سلاح وأقواه: كلمة التوحيد، والألفة الشاملة، والاعتصام بحبل الله المتين، وبين أيديهم ذلك الكتاب المبين. يحلون حلاله ويحرمون حرامه، ويتأدبون بآدابه فطرقوا الممالك المجاورة لهم فى الشرق والغرب، والشمال من فرس وروم وقبط وترك فدعوهم إلى الدين الذى ارتضاه الله سبحانه لعباده، وهو دين الإسلام، فإن أبوا فالجزية، وإلا فالقتال، وفى نهاية المطاف استولوا على تلك الممالك وتركوا فيها من يعلمهم كتاب الله ويهديهم بهديه، ويحكم فيهم بتعاليمه ويؤدبهم بآدابه، فمن لم يبصر منهم ذلك النور أولا، أدركه ثانيا، وتيقن أن الإسلام هو دين الفطرة، ومجمع الكمالات الإنسانية، والآداب الإلهية، وأنه دين يدعو للعمل للدنيا والآخرة: «ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة»[5].

(١) التوبة : ١٢٢.

(٢) متفق عليه من حديث معاوية رضى الله عنه .

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٤) البقرة : ٢٦٩.

(٥) البقرة :٢٠١.

«فامشوا فى مناكبها»[1].

«وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون»[2].

فتزاحمت الأمم لاعتناق هذا الدين المبين، واغتبطت به متيقنة أن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم، وأن فيه سعادة الدارين، فتهذبت به نفوسهم، وحسنت أخلاقهم، وزكت ألسنتهم، وتركوا ما كانوا عليه من همجية، وجور وكبر، وانتهاك لحرمات الله وتعد لحدوده، واستبدلوا الخبائث بالطيبات، والمساوىء بالمحاسن، والرذائل بالفضائل، وأقاموا موازين الحق والعدل، وتحلوا بأجمل الخصال، ولم يقفوا عند هذا الحد، بل نفروا إلى العلم ينهلون من معينه، والتفقه فى الدين، وشدوا فى طلبهما الرحال وتحملوا فيه الأخطار، ورجعوا إلى قومهم منذرين ومبشرين فازدادوا فلاحا ونجاحا، وانتظمت بهم البلاد، وارتقت فكريا وعلميا وعمليا فكان منهم: الأئمة فى الدين، والأدباء فى اللغة فقهوا معانيها، ووقفوا على أسرارها، وصاروا زينة الدهر، وذخيرة كل عصر وهذه آثارهم العلمية ونتائج قرائحهم دالة عليهم وناطقة بعظيم علمهم[3].

والفضل فى ذلك كله يرجع إلى ذلك الكتاب الذى لا ريب فيه، والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإلى السنة النبوية التى أوتى صاحبها ﷺ جوامع الكلم، واشتملت على الحكم البالغة والنظم البديعة التى لا كلام يعلوها من كلام البشر، ولا نظم يفوقها[4].

٦- لقد قام بناء الإسلام الشامخ فى أقل من ربع قرن، أكمل الله فيه على خير أمة أخرجت للناس دينها، وأنزل على نبيها الكريم صلوات الله وسلامه عليه فى يوم الحج الأكبر قوله سبحانه: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام

(١) الملك: ١٥.

(٢) التوبة: ١٠٥.

(٣) سنفرد بعون الله تعالى بحثا عن الآثار العلمية لعلماء الاسلام.

(٤) راجع لمحمد راغب الطباخ: الثقافة الإسلامية ص ١٦٧ وما بعدها

ديناً (1). إيذانا منه جل شأنه بأن هذا الخير ليس بعده من لدن السماء خير ، من استمسك بعروته الوثقى رشد واهتدى، ومن تفلت عنه ضل وغوى.

فكان ذلك حافزا لأصحاب رسول الله ﷺ على استظهار القرآن الكريم النبع الفياض بأسرار الكون والحياة، واستنباط ما حوى من حكم وأحكام مسترشدين بسنة النبى صلى الله عليه وسلم بأذهان سيالة وقلوب واعية.

فنبغ فيهم العلماء والحكماء فظهر من بينهم القواد والأبطال، ونهض فى صفوفهم الساسة الذادة، وأشرف على حياتهم أئمة قادة فكانوا وهم نيف ومائة ألف شمس الدنيا، وريحانة الحياة الفاضلة.

وللثقافة الإسلامية مرحلتان:

الأولى: تبتدأ من مشرق نور الإسلام، وتنتهى بقيام الدولة العباسية. وفى هذه المرحلة تتجلى عظمة الإسلام وتبدو ثقافته تستمد نورها من مشكاة الذكر الحكيم.

كما امتازت هذه المرحلة بشىء يعده الباحثون من أعظم ما سجل التاريخ ذلك أنه فى زمن لا يتجاوز عشرين عاما وضع رسول الله ﷺ أساساً قويا للدولة الإسلامية من الأمة العربية التى كانت متفرقة – شيعا وأحزابا – فوحد أفخاذها، وجمع شمل قبائلها تحت راية القرآن الخفاقة حتى كانت منهم حملت علم الثقافة، وضربت فى الأرض تؤدى الأمانة، وتبلغ العالم أجمع رسالة الإسلام العامة التى كلفهم بها الرسول الأعظم خاتم النبيين، ففتح الله عليها من الممالك والأقطار فى قليل من الزمن ما على مثله تحطمت سيوف الأكاسرة والقياصرة .(2)

---

(1) المائدة : ٣ .

(2) من مقال للشيخ صادق إبراهيم عرجون: مجلة نور الإسلام التى تصدرها مشيخة الأزهر العدد ٩ ، ١٠ من المجلد الأول سنة ١٣٤٩ هـ بعنوان: أثر الثقافة الإسلامية.

قال الكونت هنرى دى كسترى فى كتابه «الإسلام سوانح وخواطر»:

«إن أتباع محمد ﷺ هم وحدهم الذين استطاعوا الجمع بين الرفق فى معاملة مغلوبيهم، والرغبة فى انتشار دينهم، وهذه الرغبة هى التى دفعت العرب إلى الفتوحات العظيمة، فنشر القرآن رايته خلف جيوشه المظفرة ولم يخلفوا فى طريقهم أثراً للجور».

وقال المؤرخ الفرنسى غوستاف لوبون من ينظر إلى أخبار عمر بن الخطاب، رضى الله عنه فى معاملته لأهل بيت المقدس يعلم علم اليقين أن العرب كانوا يبالغون فى حسن معاملة مغلوبيهم، وهذا يباين تمام المباينة معاملة الصليبيين للمسلمين فى بيت المقدس أيام الحروب الصليبية.

وقد تجلت فى هذا العصر العبقرية الحربية، وهى ضرب من ضروب الثقافة عند الأمم الحية، فأنجبت جيوش المسلمين – وهى مدارسهم العسكرية – أبطالا فخاما وقواداً بواسل وحسبك فى الحديث عنهم فخر الإسلام وسيف الله أبو سليمان خالد بن الوليد، وبطل القادسية: سعد بن أبى وقاص، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، وحب رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، وفاتح مصر عمرو بن العاص رضى الله عنهم أجمعين وغيرهم من أجلاء الصحابة الكرام.

وقد قارن هذه النهضة الحربية نهضة أدبية، والأدب ميزان حضارة الأمم، ومقياس رقيها، فنبغ من المسلمين الخطباء المصاقع والشعراء المبدعون والكتاب المجيدون، وكان هذا العصر للغة العربية ميدان فضلها، ومظهر أسرارها وثوب جدتها، وهذه نهضة ثقافية أحدثها القرآن الكريم لأن العرب لم يؤتهم الله من الفضائل على كثرتها فيهم أفضل من الفصاحة اللسانية والقوة الخطابية فكان أسمى شىء اعتزوا به وتسابقوا للمفاضلة فى حلبته إنما هو الحياة اللغوية، وللمفاخرة فيها والتفنن فى أساليبها أقاموا مدارس (أسواق) عكاظ وذى المجاز، وذى المجنة، وسواهما فما أن جاءهم القرآن العظيم بأسلوبه الفخم، ولفظه الجزل، وإعجاز تراكيبه حتى شعروا أنهم أمام كتاب لا عهد لهم بأسلوبه الفخم، ولا طاقة لهم ببلاغته على عظم ما وصلوا إليه فى

هذا المضمار. وأدركوا أن القرآن أتى ببلاغة تسمو على متناول ألسنتهم فقنعوا بالاقتباس منه، وفطنوا إلى موضع العبرة فيه والإستفادة من علو نسجه، وفصاحة نظمه، والاغتراف من منهله العذب، ومعينه الذى لا ينضب، فاتجهت اللغة العربية اتجاها جديدا، ودخلت فى دور التأليف والتدوين، ووضعت فى قواعد علومها الكتب والدواوين، وتذاكر الناس النحو الصرف، وعلوم البلاغة والأدب، وفى أى بلد إسلامى حللت شعرت أنك فى جامعة أدبية علمية زهراة.

وظهر فى فجر هذه المرحلة نوع من الثقافة الاجتماعية لم يشهد التاريخ بمثله لأمة من الأمم. نعنى منه ذلك النظام الذى ابتدعه الإسلام ورمى من ورائه إلى بث روح المساواة، والوحدة العالمية التى جاء بها القرآن الحكيم فقال جل شأنه: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[1].

وغرسها النبى ﷺ فى نفوس الأمة حتى كانت الوصية بها فى آخر مواقفه العامة فى خطبة الوداع حيث يقول: «أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى». وأجل ما لهذه المرحلة من المحامد أن الثقافة الإسلامية فيها كانت كذلك فحسب، وبعبارة أدق أنها كانت إسلامية المنشأ عربية التفكير والتربية، فلم يكن للمسلمين عندئذ مورد يستقون منه ثقافتهم غير القرآن الكريم، وَمَا علّمهم النبى ﷺ من الحكمة. ولم يكن قادة الفكر يومئذ غير العرب، أو المستعربين الذين درجوا فى أحضان تعاليم الإسلام، ولم يرتضعوا لسواه ثديا، ولم يأخذوا عن غيره أدبا، فهو أصدق العصور للتعبير عن الثقافة الإسلامية، وهو الدليل الناهض على أن للإسلام ثقافة مبتكرة مستقلة تستمد نورها من وحى القرآن الكريم، والسنة المطهرة دون أن يكون لأية أمة من أمم الأرض على المسلمين يد فيها.

---

(١) الحجرات : ١٣

إذ لم يكن قد فتح على المسلمين باب النقل والترجمة عن علوم الغابرين. فكان للمسلمين فقه اسلامى أوسع ما عرف فى علوم التشريع والاجتهاد، أوضحه نظرا وأصدقه مخرجا، وها هى مؤلفاتهم شاهد ناطق على صفاء أذهانهم واستنارة أفكارهم.

وإليك نظرة عابرة على بعض مؤلفاتهم:

فهل قرأت فى مدونة مالك بن أنس رضى الله عنه، وعرفت كيف كان نظر أئمة المسلمين فى المسائل، وتخريج أحكامها بما ينطبق على مصلحة المجتمع، ونظام الحياة وهل نظرت فى كتاب (الخراج) لأبى يوسف صاحب أبى حنيفة رحمه الله، وعلمت إلى أى حد وصل المسلمون من سعة العلم وقوة الإدراك؟

وهل اطلعت على كتاب (الأم) للشافعى رحمة الله عليه فتطمئن إلى الايمان بعظمة علماء الإسلام، فيظهر لك سخف ما يزعمه خصوم الإسلام من أن الفقه الإسلامى أخذ شيئاً من مبادىء الفقه الرومانى. لندع فقهاء الشام والعراق ومصر، وننظر إلى فقهاء الحجاز فى القرنين الأولين فمن أى طريق وصل الفقة الرومانى إلى المدينة المنورة، فأخذ عنه الإمام مالك وأصحابه هذا التشريع البديع؟ ومن أى السبل انتهى هذا الفقه إلى فقهاء مكة المكرمة فاستفادوا منه كما يزعم الزاعمون؟

اللهم إن هذه فرية ما فيها مرية، وأقاويل يذيعها الذين نفسوا على الإسلام فضائله ومزاياه[1].

وهذا كله قبس من قبسات الثقافة الإسلامية المضيئة ، وحسنة من حسنات القرآن الكريم .

أما أثر الحديث الشريف فى الثقافة الإسلامية فهذا مانطالعك به الآن :

---

(١) انظر مقال الشيخ صادق محمد عرجون: أثر الثقافة الإسلامية ، مرجع سابق ، نقلا عن محمد راغب الطباخ : الثقافة الإسلامية ص ١٧٣ .

مصادر الشريعة الاسلامية شيئان. كتاب الله ، وحديث رسوله ﷺ المشهور بالسنة النبوية.

إلا انّ كتاب الله تعالى قد جاء فيه أيات كثيرة مجملة كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك. فلابد من تفصيلها ومعرفة كيفية الصلاة وعددها واوقاتها ومعرفة الزكاة ونصابها الخ.

ولو فصل ذلك فى الكتاب لطال جداً وكان فى مجلدات فيعسر حفظه عادة والله تعالى قد اراد تيسير ذلك بقوله (ولقد يسرنا القرآن للذكر) [1] .

فأوحى الله الى نبيه ﷺ ان يقوم ببيان ذلك حيث قال (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) وبنص السنة ايضاً. قال ﷺ (الا انى قد اوتيت الكتاب ومثله معه الا انى قد اوتيت القرآن ومثله) الحديث.

وقد امرنا الله تعالى فى الكتاب ايضاً ان نأتمر بما يأتى به الرسول ﷺ وننتهى عما نهى رسول الله عنه. قال تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) [2] . جاء فى حجة الله البالغة (ص ١٠٢) [3] اعلم ان ما روى عن النبى ﷺ ودون فى كتب الحديث على قسمين : احدهما ما سبيله سبيل تبليغ الرسالة. وفيه قوله تعالى (وما آتاكم الرسول) الآية. منه علوم المعاد وعجائب الملكوت. وهذا كله مستند الى الوحى [4] ومنه شرائع وضبط للعبادات والارتفاقات بوجه الضبط.

---

(١) القمر : ١٧ .

(٢) الحشر : ٧ .

(٣) للعلامة المحقق الشيخ احمد المعروف بشاه ولى الله المحدث الدهلوى .

(٤) أى ليس للاجتهاد فيه مجال انتهى من هامش الأصل .

وكما كان لكلام الله تعالى الاثر العظيم فى الثقافة الاسلامية والثقافة العربية كذلك كان لكلام النبى ﷺ الاثر البين فيهما.

فبالحديث النبوى علم الصحابة ومن أتى بعدهم من التابعين تفصيل ما جاء فى القرآن مجملاً فكان لهم من ذلك منبع غزير وعلم كثير، كما يتضح فيما يلى:

أولا: بالحديث النبوى علموا ما هنالك من احكام فأتمروا بها وأحلوا حلالها وحرموا حرامها. وما هنالك من مواعظ حسنة فاتعظوا بها واهتدوا بهديها. وما هنالك من عادات سيئة وأمور مستهجنة تخلوا عنها. وما هنالك من فضائل وشمائل عالية فتحلوا بها فصفت نفوسهم بعد الكدورة ورقت طباعهم بعد الغلظة وتنبهوا بعد الغفلة ونهضوا لاصلاح دينهم وتنظيم دنياهم فأعطوا لكل امر ما يستحقه ولكل مقام ما يستوجبه. دعاهم بالحديث النبوى لما يحييهم فاستجابوا وحثهم على العلم وطرح الجهل فتعلموا وحرضهم على التراحم والتواصل فتراحموا وتواصلوا وندبهم الى الجهاد فى سبيل الله لاعلاء كلمة الله ونشر دين الله فجاهدوا. وبين لهم مزايا الألفة والاتحاد فأتلفوا واتحدوا. وأمرهم بالاستقامة على الطريق السوى فاستقاموا فكانوا بهذه الصفات العالية والمزايا الجليلة والنفوس الكريمة خير أمة أخرجت للناس. فصاروا للأمم قادة وهم فيهم ارباب السيادة والمصابيح المنيرة فى البلاد والهداة للعباد.

ثانيا: دور الصحابة رضى الله عنهم: أدرك الصحابة والتابعون ما فى الحديث النبوى من جليل الفوائد وعظيم العوائد وان فيه اصلاح الدين وتنظيم أمر الدنيا فهبوا لجمعه وضربوا أكباد الابل فى تحصيله وساروا الى أقاصى البلاد لاستخراج كنوزه وتحملوا عظيم المشاق لورود مناهله وعاد كل واحد بعد أن ملأ جعابه الى المستقر الذى قدر له فنثر ما لديه من حديث ونشر ما احتمله من علم وتهافت الناس على تلقيه حتى كنت نجد فى البلدة الواحدة الآلاف من طالبيه هذا لروايته وذاك لدرايته وتفهم معانيه والحصول على ملكة الاستنباط منه. فعمت انوار الكتاب المبين والسنة السنية مشارق الارض ومغاربها وانتشرت تعاليم هذا الدين فى كل قطر فتحوه وكل صقع ملكوه

وسطعت محاسنه ومزاياه فى انحاء المعمورة ودخل الناس فيه أفواجاً وأظهره الله على الدين كله اذ تجلى لهم انه دين الفطرة وأن هذه الشريعة هى الشريعة السمحة.

ثالثا: فصاحته صلى الله عليه وسلم: اثرت فى لهجات العرب ونثرهم وشعرهم وخطبهم إذ سمعوا منه ما لم يسمعوا ووجدوا من عظمة بيانه ما لم يروا فترك الكثير منهم ما كان عند بعضهم من العجعجة والفمفمة والشنشنة والتلتلة والعنعنة [1] الى غير ذلك من ثقيل لهجاتهم وحوشى كلامهم. واستبدلوا ذلك بما سمعوه من النبى ﷺ من فصيح الكلام القرشى والمنطق العذب. وصار الكلام النبوى بعد ذلك مستمد العلماء والخطباء ومادة الكتاب والشعراء وظهر أثره فى كتاباتهم وخطبهم ونثرهم وشعرهم.

ومن أحسن الاقتباس من الكلام النبوى وطرز نثره وشعره بشىء منه وحذا حذوه فذاك امير البيان والمشار اليه بالبنان وهو الذى ترنوا اليه النواظر وتشرأب اليه الأعناق ويبعد فى البلاد صيته وتنتشر فى الملأ آثاره وتدون فى بطون الدفاتر اخباره والفضل فى هذا التهذيب اللغوى يرجع الى الحديث النبوى والبيان المحمدى.[2]

رابعا: جاء فى كتاب فجر الإسلام [3]: كان للحديث أكبر الأثر فى نشر الثقافة فى العالم الاسلامى. فقد أقبل الناس عليه يتدارسونه اقبالاً عظيماً، وكانت حركة

---

(١) العجعجة : لقضاعة وهى تحويل الياء جيماً إذا وقعت بعد العين فيقولون الراعج خرج معج يريدون الراعى خرج معى.

والفمفمة لها وهى عدم تميز حروف الكلمات وظهورها اثناء الكلام.

والشنشنة لليمن وهى جعل الكاف شيناً مطلقاً كلبيش وشلمنى فى لبيك وكلمنى.

والتلتلة لبهراء وهى كسر أحرف المضارعة مطلقاً وهم بطن من قضاعة.

والعنعنة : لتميم وهى ابدال العين من الهمزة المبدوء بها فيقولون فى أن عن. وفى أمان عمان. أهـ من ذيل الوسيط فى الأدب العربى.

(٢) أحمد أمين فجر الإسلام ص ٢٧٣ .

(٣) ص ٢٣٧ ومابدها ، وراجع الثقافة الإسلامية لمحمد راغب الطباخ ص ٢٣٥ ومابعدها .

الأمصار العلمية تكاد تدور عليه. وكل علماء الصحابة والتابعين كانت شهرتهم العلمية مؤسسة على التفسير والحديث . والحديث كان له أوسع دائرة- وسبّب حرص الناس على رواية الحديث رحلة العلماء الى أقاصي المملكة وطوافهم في البلدان يأخذ بعضهم عن بعض. فكان من ذلك تبادل الآراء العلمية ووقوف علماء كل مصر على ما عند الآخرين حتى لتكاد الحركة العلمية توحّد.

روى أحمد أن جابر بن عبد الله الانصاري بلغه عن عبد الله بن أنيس الجهني حديثاً سمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشترى بعيراً ثم شد رحله وسار شهراً حتى قدم عليه الشام وسمعه منه. ولا تكاد تقرأ ترجمة كبير من المحدثين الا وجزء عظيم من حياته يتضمن رحلته. أضف الى ذلك ما كان بينهم من تراسل. فمالك أبن انس في المدينة يكتب الى الليث بن سعد في مصر والليث يرد عليه ويتبادلان الحجاج في الحديث والفقه وهكذا.

عن طريق الحديث هذا انتشرت في العالم الاسلامي انواع من الثقافة عدة. فالتاريخ الاسلامي بدأ بشكل حديث كالذى ترى في كتب الحديث من مغاز وفضائل أشخاص وفضائل أمم، ثم تطور التاريخ الى ان صار كتباً قائمة بنفسها.

ودليلنا على ذلك ان كتب التاريخ الأولى كسيرة ابن هشام وما يروى ابن جرير عن ابن اسحق والبلاذرى في فتوح البلدان يكاد يكون نمطها واسلوبها نمط حديث واسلوب حديث. وقصص الأنبياء وما إليهم جاءت في القرآن وتوسع فيها الحديث ثم توسع القصاص فكان القصص. والحكم وقواعد الاخلاق.

وشيء من فلسفة اليونان والهند والفرس وضعت في الحديث وضعاً. وانتشرت بين الناس على انها دين [1] فكان لها من الأثر في الناس ماليس للتعاليم الدنيوية وفوق ذلك.

كان الحديث أوسع منبع للتشريع في العادات والمسائل المدنية والجنائية وغير ذلك مما يطول شرحه. وعلى الجملة فقد كان الحديث اوسع مادة للعلم والثقافة في ذلك العصر.

وإليك طرفا من العلوم التي نشأت في كنف الإسلام .

(١) لا يعزب عنك ان جهابذة علماء الحديث فندوا ذلك وبينوا الصحيح من الحسن والضعيف من الموضوع احسن بيان وتميز الحق من الباطل وعلمه الراسخون في العلم من المحدثين والفقهاء.

العلوم التى نشأت فى الإسلام

المشتغل بالعلوم التى سببها الإسلام يجد أن المتداول منها فى الأمة الاسلامية على صنفين:

أ- صنف طبيعى للانسان يهتدى اليه بفكره وهى العلوم الحكمية.

ب- وصنف نقلى يأخذه عمن وضعه وهى العلوم النقلية الوضعية وهى كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعى ولا مجال فيها للعقل الا فى الحاق الفروع من مسائلها بالأصول لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلى بمجرد وضعه فتحتاج الى الالحاق بوجه قياسى الا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم فى الأصل وهو نقلى فرجع هذا القياس الى النقل لتفرعه عنه. وأصل هذه العلوم النقلية كلها هى الشرعيات من الكتاب والسنة.

جـ- ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربى الذى هو لسان الملة وبه نزل القرآن. وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة. لأن المكلف يجب عليه ان يعرف احكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه وهى مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالاجماع أو بالالحاق فلابد من النظر فى الكتاب ببيان الفاظه أولاً وهذا هو علم التفسير ثم باسناد نقله وروايته الى النبى ﷺ الذى جاء به من عند الله تعالى واختلاف روايات القراء فى قراءته وهذا هو علم القراءات. ثم باسناد السنة الى صاحبها والكلام فى الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هى علوم الحديث.

ثم لابد فى استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانونى يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا أصول الفقه.

وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى فى أفعال المكلفين وهذا هو الفقه ، ثم ان التكاليف منها بدنى ومنها قلبى وهو المختص بالايمان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتقد وهذه هى العقائد الايمانية فى الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر. والحجاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام.

ثم النظر المتفحص فى القرآن والحديث لابد أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليه وهى أصناف فمنها علم اللغة، وعلم النحو، وعلم البيان، وعلم الأدب ونحو ذلك. وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الاسلامية واهلها وان كانت كل ملة على الجملة لابد فيها من مثل ذلك فهى مشاركة لها فى الجنس البعيد من حيث انها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها . وأما على الخصوص فمباينة لجميع الملل لأنها ناسخة لها وكل ما قبلها من علوم الملل فمهجور والنظر فيها محظور فقد نهى الشرع عن النظر فى الكتب المنزلة غير القرآن. قال ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد »[1] ورأى النبى ﷺ فى يد عمر رضى الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب فى وجهه ثم قال: ألم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حياً ما وسعه الا اتباعى.ا هـ مقدمة ابن خلدون وكشف الظنون.

ويلتحق بالعلوم الاسلامية: التصوف الصادق، آداب البحث، الجدل، التاريخ، طبقات الرجال أما القرآن وعلومه، والحديث وعلومه فقد تقدم الكلام عليها ولنتكلم على بعض العلوم التى سببها الاسلام. [2].

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد (ج٤ص ٦٤٧) فى باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها عن ابى هريرة قال كان اهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام فقال رسول الله ﷺ لا تصدقوا أهل الكتاب الخ.

(٢) راجع محمد راغب الطباخ: الثقافة الإسلامية ص٢٤١، ٢٤٢.

أصـــول الفقـه

قـال ابن خلدون [1] ص ٤٢٨: اعلم ان أصـول الفـقـه من أعظم العلوم الشـرعية وأجلها قدراً وأكثرها فائدة. وهو النظر فى الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف [2] واصـول الأدلة الشرعية هى الكتاب الذى هو القرآن. ثم السنة المبينة له. فعلى عهد النبى ﷺ كانت الأحكام تتلقى منه بما يوحى اليه من القرآن ويبينه بقوله وفعله بخطاب شـفـاهى لا يحـتـاج الى نقل ولا الى نظر وقـيـاس. ومن بعـده تعـذر الخطاب الشفاهى وحفظ القرآن بالتواتر.

وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل الينا منها قولاً وفعلاً بالنقل الصحيح الذى يغلب على الظن صدقه. وتعينت دلالة الشرع فى الكتاب والسنة بهذا الاعتبار. ثم ينزل الاجماع منزلتهما لإجماع الصحابة على النكير على مخالفيهم ولا يكون ذلك الا عن مستند لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة فصار الاجماع دليلاً ثابتاً فى الشرعيات.

ثم نظرنا فى طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة فاذا هم يقيسون الأشباه بالأشباه منهما ويناظرون الامثال بالامثال باجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض فى ذلك فان كثيراً من الواقعات بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج فى النصوص

---

(١) راجع الثقافة الإسلامية ص ٢٤٣ .

(٢) عرفه ابن ساعد الأنصارى فى ارشاد القاصد بأنه علم يتعرف منه تقرير مطالب الاحكام الشرعية العملية وطريق استنباطها ومواد حججها واستخراجها بالنظر.

الثابتة فقاسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط فى ذلك الالحاق تصحح تلك المساواة بين الشبهين أو المثلين حتى يغلب على الظن ان حكم الله تعالى فيهما واحد وصار ذلك دليلاً شرعياً باجماعهم اليه وهو القياس وهو رابع الأدلة. واتفق جمهور العلماء على ان هذه هى اصول الأدلة وان خالف بعضم فى الاجماع والقياس الا انه شذوذ.

وإليك بعض مواضيع القرآن العظيم ومقاصده .

مواضيع القرآن العظيم ومقاصده

اما مواضيع القرآن ومقاصده فكثيرة (١) أولها وأهمها بيان وجود الله تعالى وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد وأنه الموجد لهذه الاكوان والممد لها فى كل وقت وأن مع اقامة البراهين والدلائل القطعية على ذلك. والدعوة الى عبادته وأن لا نشرك بعبادته احداً. وبيان الأحكام التى تنتظم بها احوال البشر ومعايشهم. وتعداد المواعظ والحكم والامثال لتتهذب بها النفوس وتصلح بها القلوب وبيان الأوامر والنواهى التى بها سعادة هذا الأنسان وسير الماضين من الأنبياء والمرسلين لتثبيت الفؤاد وتقوية الارادة والاقتداء بأفعالهم والسير على منهاجهم. واخبار الامم والجبابرة وما آل اليه امرهم اذ لم يجيبوا داعى الله وبيان آداب المعاشرة مع الناس والأهل والحث على فعل الخير واجتناب الشر واصطناع المعروف والفات النظر الى ما فى السموات والى مافى الأرض وما فيهن من العجائب. والى انواع الأنسان والنبات والحيوان للاعتبار ومعرفة وعظمة ذلك الخالق. وذكر الاخبار بالحوادث المستقبلة ومصير هذا الكون وان بعد ذلك نشأة ثانية ودارا أخرى تشتمل على نعيم دائم أو عذاب خالد.

وبالجملة لم يجتمع فى كتاب من العلوم المختلفة والمقاصد المتعددة والمباحث النافعة للأنسان المؤدية الى سعادته السعادة السرمدية ما اجتمع فى كتاب الله تعالى.(٢)

قال العز بن عبد السلام فى كتاب مجازات القرآن ص (١٢٧) مقاصد القرآن أنواع : أحدها الطلب وهو أربعة اضرب.

---

(١) قال تعالى فى اوائل سورة الأنعام : (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) اى ما تركنا او ما اغفلنا. قال البيضاوى. فإنه قد دون فيه ما يحتاج اليه من امر الدين مفصلاً او مجملاً ١ هـ.

(٢) محمد راغب الطباخ : الثقافة الاسلامية ص ٤٧ – ١٣٦٩ هـ – ١٩٥٠.

النوع الثانى : الاذن والاطلاق.

النوع الثالث : النداء. والنداء تنبيه للمنادى ليسمع ما يلقى اليه بعد النداء من الكلام ليعمل بمقتضاه ولذلك كثر النداء فى القرآن.

واما وصف المنادى فأربعة اقسام.

أحدها : مالا حث فيه كقوله يا أيها الناس.

الثانى : ما فيه حث كالوصف بالايمان. وله فائدتان احداهما الحث على ما يأمر به وينهى عنه بعد النداء فان الايمان موجب للطاعة والاذعان.

الفائدة الثانية اكرام المؤمنين بندائهم باشرف اوصافهم واحبها فيحثهم ذلك الاكرام على لزوم الطاعة والأذعان.

القسم الثالث : نداء النبى بالنبوة وفيه فائدة التفخيم والاكرام والحث على الطاعة والاذعان شكرا لنعمة النبوة.

القسم الرابع : النداء بالرسالة وفيه الفائدتان المذكورتان فى النداء بالنبوة مع التاكيد بذكر الرسالة. وهى من النعم الجسام لأنها تستلزم النبوة وتحث على تبليغ الرسالة.

فما احسن قوله : «يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك» .

النوع الرابع : مدح الافعال

النوع الخامس : مدح الفاعلين لأجل الفعل الذى وصفوا به.

النوع السادس : ذم الأفعال.

النوع السابع : ذم الفاعلين لأجل الفعل الذى وصفوا به.

النوع الثامن : الوعد بالخير للعامل.

النوع التاسع : الوعد بالخير الآجل.

النوع العاشر : الوعيد بالشر العاجل.

النوع الحادى عشر : الوعيد بالشر الآجل.

وكل هذه الأخبار تابعة للأحكام مؤكدة لها اما بالترغيب فيها ان كانت قربة أو بالترهيب منها ان كانت معصية.

النوع الثانى عشر : الامثال وهى مؤكدة للاحكام ترغيبا أو ترهيبا أو تقبيحا أو تحينا.

النوع الثالث عشر : التكرير وهو دال على الاعتناء والاهتمام بالمكرر فتكرير صفات الله دال على الاعتناء بمعرفتها والعمل بموجبها.

وتكرير القصص دال على الاهتمام بالوعظ للأيقاظ والاعتبار. وفائدة تكرير القصص تطرية المواعظ وتجديدها لأن منها ما يحث على الطاعة والايمان. ومنها ما يزجر عن الكفر والعصيان. وكذلك تكرير الوعد والوعيد وكذلك تكرير ذكر الاحكام. وكذلك تكرير المدح والذم وما يترتب على المأمورات والمنهيات من المؤكدات المذكورات.

فتكرير الوعد يدل على الاهتمام بفعل الطاعات ترغيبا فى ثوابها.

وتكرير الوعيد يدل على الاهتمام بترك المخالفات ترهيبا من عقابها.

وتكرير القرآن بين الوعد والوعيد يدل على الاهتمام بوقوف العباد بين الخوف والرجاء فلا يقنطون من رحمة الله وافضاله ولا يغترون بحلمه وامهاله.

وتكرير الاحكام يدل على الاعتناء بفعل الطاعات واجتناب المخالفات.

وتكرير الامثال يدل على الاعتناء بالايضاح والبيان.

وتكرير تذكير النعم يدل على الاعتناء بشكرها. وتمامه فيه (١) .

وقال الراغب الاصفهانى فى رسالته مقدمة التفسير:

ما من برهان ولا دلالة وتقسيم وتحديد مبنى على كليات المعلومات العقلية والسمعية الا وكتاب الله تعالى قد نطق به. لكن اورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق الحكماء والمتكلمين لأمرين. احدهما بسبب ما قاله (وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) الآية والثانى ان المائل الى دقيق المحاجة هو العاجز عن اقامة الحجة بالجلى من الكلام فان من استطاع ان يفهم بالأوضح الذى يفهمه الاكثرون لم ينحط الى الأغمض الذى لا يعرفه الا الأقلون مالم يكن ملغزا فأخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه فى أجلى صورة تشتمل على ادق دقيق لتفهم العامة من جليها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة ويفهم الخواص من اثنائها ما يوفى على ما ادركه فهم الحكماء.

وعلى هذا النحو قال عليه الصلاة والسلام : ان لكل آية ظهرا وبطنا ولكل حرف حداً ومقطعا. (٢) لا على ما ذهب اليه الباطنية. ومن هذا الوجه كل من كان حظه فى العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن اكثر. ولذلك اذا ذكر تعالى حجةً على ربوبيته ووحدانيته اتبعها مرة بأضافتها الى اولى العقل. ومرة الى اولى العلم. ومرة الى السامعين .ومرة الى المفكرين. ومرة الى المتذكرين. تنبيها على ان بكل قوة من هذه القوى يمكن ادراك حقيقة منها وذلك نحو قوله تعالى (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) وغيرها من الآيات.

مامر كان نبذة عن العلوم التى نشأت فى كنف الإسلام والتى تضمها ثقافته ، وهى كما ترى تدور فى فلك القرآن والسنة . بخلاف الثقافة الغربية التى نطالعك بنشأتها وثمرتها المادية .

(١) نقلا عن الثقافة الإسلامية ص ٧٤ – ٧٦ .

(٢) انظر مناهل العرفان ص ٥٤٧ .

نشأة الثقافة الغربية وثمرتها المادية

فى هذا العصر الذى فاق كل العصور السابقة فى رقيه المادى واكتشافاته العلمية، يقف علماء الاجتماع والنفس والطب فى الغرب حيارى تجاه ازدياد المصابين بالأمراض العصبية ازدياداً مزعجاً، ويخيم على العالم كله جو من القلق والخوف يفقد فيه الناس – وخاصة فى البلاد المتحضرة – لذة ما وصلت إليه الحضارة من تيسير لوسائل العيش والترف والرفاهية، مما بدد الاحلام التى كانت قائمة فى أخيلة العلماء والمفكرين فى القرن التاسع عشر حول السعادة التى ستشمل الناس جميعاً نتيجة للاكتشافات العلمية الرائعة.

ومن الملاحظ أن مظاهر القلق والاضطراب تتزايد كلما أصبحت وسائل الرفاهية ميسرة للانسان، فنسبة الأمراض النفسية فى البلاد التى يرتفع فيها مستوى المعيشة أكثر مما فى غيرها من البلاد المتأخرة، والاحصائيات الاميركية فى هذا الشأن واضحة الدلالة على هذا المعنى.

وليس القلق الذى يستولى على الناس ناشئاً من ترادف الحربين العالميتين الأولى والثانية وتوقع الثالثة بعدها فحسب، بل هو ناشىء من الأجواء النفسية التى هيأتها الحضارة الحديثة لأبنائها. وليس ناشئاً من وجود الاستعمار فحسب، مع أن الاستعمار يشكل أكبر بواعث القلق الذى تعانيه الشعوب المستضعفة فى ظله، ذلك ان القلق يستحوذ الآن على شعوب غير مستعمرة، وعلى الشعوب التى تتمتع بخيرات الاستعمار وثمراته، بل إن هذا القلق تجده فى كل مكان فى ظل مختلف المذاهب الاجتماعية الحديثة، فكما نجد هذا القلق فى شعوب الشرق قاطبة نجده فى شعوب الغرب ونجده فى شعوب الاتحاد السوفياتى – سابقا–.

ومما له دلالته فى هذا المقام كثرة حوادث الانتحار فى الشعوب المتحضرة، والأغرب وقوع ذلك فى بلاد تعد من أرقى البلاد فى المستوى المعاشى والحضارى

كالبلاد السكندنافية [1] ، وأغرب من ذلك أن القوم هناك ينتحرون «مللاً» من الحياة الرغيدة التى يحيونها!

ومن ذلك يبدو لنا أن هذا القلق والاضطراب والانحراف الخلقى الذى وصل الى درجة جزع منها الآباء والأمهات فى الغرب نفسه، ناشىء من الحضارة الغربية الحديثة نفسها، ومن الأسس التى قامت عليها الفلسفات التى سادت فيها .

إن الحضارة الغربية نشأت – كما هو معلوم – من اتصال الغرب بالحضارة الاسلامية عن طريق المعاهد العربية فى الاندلس والأقطار الاسلامية الاخرى [2] ، وكانت الفلسفة اليونانية مما يعنى به مفكرو الاسلام وفلاسفته ، فنقل طلاب الغرب النابهون عن العرب فلسفة اليونان وكتبهم وأكبوا على دراستها رغم مطاردة الكنيسة لها مطاردة شديدة فى أول الامر، ثم تفتح الذهن الغربى وأخذت تبدو له الحقائق خلاف ما كانت تنادى به الكنيسة من علوم ومعارف، واستمر الصراع طويلاً بين الكنيسة والعلم، حتى انتهى الامر بانتصاره عليها بعد مالقيه العلماء والفلاسفة من عذاب وسجن وتكفير ومطاردة، واستوت النهضة الغربية الحديثة على قدميها وهى مطبوعة بطابعين واضحين:

طابع الفسفة اليونانية واتجاهها المادى الوثنى، وطابع العداء للدين والحقد على رجاله وسلطاته، وبتأثير هذين العاملين كانت تصدر آراء المفكرين الغربيين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وفى ظلهما نمت جميع المذاهب الفلسفية والاخلاقية التى سيطرت على عقول الغربيين حتى الآن.

---

(١) السويد ، النرويج ، الدانمارك .

(٢) هناك ثلاثة معابر لانتقال حضارة الإسلام إلى الغرب هى : الحروب الصليبية ، وصقلية ، والاندلس.
راجع : أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ، ص ١٩٩ ، ومعابر الثقافة الإسلامية إلي أوربا للباحث .

فالأساس الذى قامت عليه الثقافة الغربية أساس مادى بعيد عن روحانية الدين وتأثيره فى نفوس الافراد والجماهير، ومازال الدين يفقد سلطانه على الغربيين شيئاً فشيئاً حتى وجد الغربيون أنفسهم فى هذا المنحدر السحيق وهذا القلق الشامل العميق. ويود مفكروهم وعقلاؤهم الآن استدراك ما فاتهم من روحانية الدين ولكن أنى لهم ذاك وقد آتت الشجرة ثمارها واشتدت جذورها.

مميزات الدين

وإذا كان من مميزات الدين – أى دين سماوى كان – أن يوفر للناس قسطاً من الطمأنينة النفسية والروحية تخفف عنهم أعباء الحياة وآلامها، وتكبح فيهم جموح الغرائز وشهواتها كما فعل الاسلام فى أوج الثقافة العربية وازدهارها واتساع رقعتها، أدركنا أى مقدار من الشقاء جلبته الحضارة الغربية على أبنائها حين أقصت الدين – فى حدود رسالته الإلهية الصافية – عن التوجيه فى الحياة العامة، وفلّت من سلاحه الفعال فى بعث الأمل والعزيمة والتضحية والرحمة فى نفوس الافراد والجماهير [1].

وهناك بواعث العودة الى الدين فى أوروبا كوسيلة لرفع المستوى الروحى للجماهير، والسبب جزعها من الشيوعية وخوفها من انتشارها. ولكن الدين بالشكل الذى صار اليه من الضعف، وبما ناله من الشك نتيجة لانتشار فلسفات الحضارة الغربية نفسها، أصبح عاجزاً عن الوقوف فى وجه التيار الشيوعى فى الغرب، فلابد من مقاومته بالتدابير الاجتماعية والاقتصادية، فالعقلية المادية – كالعقلية الغربية – لا تفهم إلا المادة ولا ترضى إلا بها.

على أن الشيوعية نفسها ثمرة من ثمار هذه الحضارة وبنت من بناتها المنحرفات! وهى مما زادت فى أسواء الحضارة الغربية ونشرت من أخطارها.

(١) انظر د/ مصطفى السباعى من روائع حضارتنا ص ٩ وما بعدها.

جاءت فلسفة ماركس وانجلز في القرن الثامن عشر، وهما يهوديان ألمانيان، فزادت الامور سوءاً اذ باعدت ما بين الانسان وبين الاستقرار النفسي والروحي بعداً شاسعاً، فانتزعت منه عقيدة الايمان بالله واليوم الآخر، وأفقدته الثقة بالقيم الاخلاقية التي ظلت منذ عرف تاريخ الانسان حتى الآن المعتصم الذي تلوذ به الجماعات لضمان أمنها الجماعي، وقامت للشيوعية الحديثة أول دولة في العالم، واستطاعت أن تحسن معيشة أبنائها عما كانوا عليه من قبل، ولكنها لم تستطع – ولن تستطيع بفلسفتها المادية – أن تنقذ أبناءها من كل أنواع القلق والمخاوف النفسية والاجتماعية، وزادت على ذلك مخاوف أخرى بما فرضته على شعوبها من خوف على مصائرهم إن هم انتقدوا الحكم أو أساليبه، وإنّ الخوف الذي يملأ جوانب أعضاء الحزب الشيوعي أنفسهم ليفوق الخوف الذي يملأ نفس المواطن الشيوعي العادي، إن على عضو الحزب إما أن يكون متحمساً لآراء القيادة الشيوعية العليا، مندفعاً الى تأييدها اندفاعاً أعمى وإما أن يلقى مصيره المحتوم.

فالفلسفة الشيوعية بانكارها الله والديانات قضت على آخر سلاح يعتصم به الانسان ضد الخوف والقلق والمصائب والاثرة والعدوان. والدولة الشيوعية – أينما كانت– بحكمها الاستبدادي وإرهابها الدموي، جعلت الجماهير الواقعة تحت حكمها قطيعاً من الماشية البشرية مسلوب الارادة محروماً من المثل العليا التي يتطلع اليها كل مجتمع كريم.

وهكذا تكون الحضارة الغربية بفرعيها الرأسمالي والشيوعي أفقدت الانسان اطمئنانه واستقراره ومثله الانسانية الرفيعة، حين جعلت الرفاه المادي هو المثل الاعلى الذي تستحث الخطى نحوه. فان لم يصل إليه طالبه عاش شقياً، وإن وصل اليه عاش ملولاً لا ينتهي من ملله إلا بالانتحار![1]

---

(١) من روائع حضارتنا ص ١٤، ١٥ .

لقد بدأ الغربيون يدركون إفلاس ثقافتهم من الناحيتين الروحية والاخلاقية، وأخذ كثير منهم يتجه نحو الشرق عله يجد فى دياناته ما يسد فراغه الروحى، ويرده الى انسانيته الكريمة، فليس عجيباً أن ترى منهم - وخاصة فى أمريكا - من يعتنق البوذية، ومنهم من يعتنق البهائية، والذين يعتنقون منهم الاسلام فريقان: فريق يرضى بالاسلام قلبه وعقله، وفريق يرضى به روحه ووجدانه.

قال الاستاذ «أبو بكر» المستشرق الانجليزى المسلم الذى كان استاذاً للغة الانجليزية فى جامعة فؤاد (القاهرة حالياً) وقد اعتنق الاسلام وهو فى القاهرة، وكان يشغل وظيفة أمين القسم الشرقى فى المكتبة الوطنية بلندن، قال عن أسباب اعتناقه للاسلام: إن هذه الحضارة الغربية تفقد الشرف والجمال! فقلت [1] له: أما فقدانها للشرف فلا أنازعك فيه!.. وأما فقدانها للجمال فكيف؟ والناس يرونها أروع حضارة عنيت بالجمال: جمال الطبيعة، وجمال اللباس، وجمال المدن، وجمال البيت، وجمال المرأة أيضاً!.. فقال: انها فقدت جمال الروح وجمال الذوق الفطرى وجمال الخلق [2].

وقال مصطفى فالسان وهو رومانى الأصل وكان قنصلا لرومانيا فى باريس ثم اعتنق الإسلام وترك العمل الدبلوماسى:

ان لكل أمة خلقا تعرف به ، ومن أبرز أخلاق الغربيين النفاق فى ادعاء الرحمة[3].

---

(١) القائل : هو الدكتور مصطفى السباعى رحمة الله عليه .

(٢) المرجع نفسه ص ١٦.

(٤) المرجع نفسه ص١٧.

الدور الذى ينتظر أمة الإسلام :

إن الثقافة الغربية تمثل أرقى ما وصل اليه الانسان من حياة مادية، وليس هذا وحده هو الذى يسعد الناس كما رأيت، بل لابد من حضارة جديدة تتابع هذا الرقى المادى وتستمر فيه، وتأخذ بالناس الى حياة روحية راقية بجانب ذلك الرقى المادى، بحيث تحفظ التوازن دائما بين الحياتين المادية والروحية ولا تسمح بطغيان احداهما على الأخرى، فهل يمكن أن توجد هذه الثقافة وهل هناك أمة تستطيع القيام بهذا الدور؟

الجواب نتأمله فيما يلى :

أ- إن العالم الغربى لا يمكن أن يقوم بالدور المرتقب، فهو الآن فى أوج حضارته وقوته المادية وافتتانه بها، وحين ينهار فسيكون فاقداً كل المؤهلات التى تؤهله لقيادة العالم نحو الأمن المنشود والحياة الكريمة المبتغاة.

ب - والعالم الشيوعى لا يمكن - بالأحرى - أن يقوم بذلك لأنه أشد اغراقاً فى المادية وحربا للروح والقيم الدينية والاخلاقية، وسيساهم مع الغربيين فى ازدياد شقاء العالم واضطرابه حتى تنهار هذه الحضارة فوق رؤوس أصحابها من غربيين وشرقيين.

جـ- والعالم الشرقى ذو الديانات الوثنية الروحية لا يمكن أن يقوم بهذا الدور، لأن الحضارة تقوم على العلم والتفكير الصحيح والتجرد من الخرافات والأوهام، والوثنية فى حد ذاتها نقيض ذلك كله، ولأن الروحانية التى يحتاج اليها العالم فى حضارته المرتقبة هى الروحانية الايجابية البناءة التى تساهم فى رقى الانسان واطراد تقدمه، والروحانية الشرقية الوثنية هى روحانية سلبية تفرُّ من الحياة، وتنهزم من أداء الواجب، وتعتبر رقى الانسان المادى رجساً يجب أن يتطهر منه وتشن الحرب عليه.

ليس هناك من يستطيع القيام بالدور الثقافى والحضارى المرتقب الا أمة واحدة هى أمة الإسلام ، وان يستطيع حمل اللواء لحضارة الغد غيرنا نحن المسلمين وذلك للأسباب التالية:

أولاً : نحن المسلمين نحمل عقيدة من أرقى العقائد التى تساهم فى بناء الحضارات والثقافات، فهى عقيدة توحيد من أصفى أنواع التوحيد وأكثره اشراقاً وسمواً وكمالاً، وهى عقيدة علم تحترم العقل وتدفعه دفعاً حثيثاً وراء المجهول ليصبح معلوماً، وهى عقيدة خلق انسانى معتدل كريم يتجافى عن الافراط فى الرحمة والتفريط فى العدالة، وعن الافراط فى الحب، والتفريط فى الواجب. وهى عقيدة تشريع يهدف الى اليسر، ويتوخى المصلحة: مصلحة الفرد ضمن مصلحة المجموع، ومصلحة المجموع غير مفرط بمصلحة الفرد، مصلحة الامة ضمن الاطار الانسانى العام، ومصلحة الانسانية كلها من غير محو لفضائل الشعوب وخصائص الأمم وقضاء على كرامتها.

ثانياً: نحن المسلمين أصحاب روحانية ايجابية بناءة، روحانية إلهية تلازم الجندى فى حربه، والعامل فى مصنعه، والعالم فى درسه، والفيلسوف فى بحثه، والقاضى فى محكمته، والموظف فى وظيفته، والرئيس فى رئاسته، تلازم كل انسان فى جده وهزله، وحركته وسكونه، وليله ونهاره، ويسره وعسره، وصحته ومرضه، لا تمنعه فى حال عن حال، بل تنقله من كمال الى كمال، وتذكره بالله الذى خلقه، والارض التى درج عليها، والناس الذين يعيش معهم، والعالم الذى هو جزء منه فى وحدته الكبرى وعبوديته لله رب العالمين.

ثالثاً: نحن المسلمين أثبتنا فى الماضى قدرتنا على انشاء مثل الحضارة المرتقبة، ومهما قيل عن حضارتنا من قبل الخصوم والجاحدين فان أحداً لا ينكر أنها كانت أكثر من الحضارة الغربية الحديثة رحمة بالناس، وسمواً فى الخلق، وعدالة فى الحكم، واشراقاً فى الروح، واقتراباً من المثل الأعلى للانسان فى مختلف عصوره

واطواره. وما دمنا قد استطعنا ان نقيم تلك الحضارة الانسانية الرائعة فى عصور التخلف العلمى والفكرى، فإننا أقدر على أن نقيم مثل تلك الحضارة فى عصور التقدم العلمى وانكشاف المجهول من الكون شيئاً بعد شىء.

رابعاً : اننا حين نمسك بزمام الحضارة المرتقبة لن نتخذ من الوصول الى الفضاء دليلاً على انكار وجود الله، ولن نتخذ من الصواريخ عابرة القارات ذريعة الى تهديد الامم والشعوب لتظل تحت دائرة نفوذنا، ولن نتخذ من الاذاعة وسيلة للتضليل، ولا من السينما آلة للاغراء، ولا من المرأة متعة للجسم، ولا من التقدم الحضارى والثقافى أداة لاستغلال الشعوب المتخلفة واستثمار خيراتها واذلال كرامتها.

تلك هى الاسباب أو بعض الاسباب التى تجعلنا الامة الوحيدة التى تستحق حمل لواء الثقافة والحضارة بعد الغربيين لانشاء حضارة جديدة تخفف من شقاء الانسان، وتحقق له قسطاً أكبر من الامن والطمأنينة والحياة الانسانية المستقرة.

خامساً : اذا رجعنا الى أصول عقيدتنا، وجدنا كتابنا المنزل يشير بصراحة الى انفرادنا من بين أمم العالم بجدارة القيام بالدور الحضارى الذى تتطلبه الانسانية فى عصرنا الحاضر، لا لامتيازنا عن غيرنا عرقياً أو جنسياً أو فكرياً – فتلك خرافة لم يؤمن بها الاسلام يوماً ما – بل لما ذكرناه فى السببين الاول والثانى مما ننفرد به عن غيرنا.

فالآية الكريمة التى تقول لنا: «كُنْتُم خَيْرَ أمَّةٍ أخرِجَت للنَّاسِ تأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وتَنْهَونَ عَنِ المُنكَرِ وتُؤْمِنُونَ باللهِ» [1] انما تشير بذلك الى خصائص عقيدتنا وأخلاقنا التى أهلتنا لأن نكون خير أمة أخرجت للناس.

---

(١) آل عمرن: ١١٠.

والآية الكريمة التى تقول عنا: «الذين إنْ مكنَّاهُم فى الأرض أقامُوا الصلاةَ وآتوا الزَّكَاة وأمَرُوا بالمعْرُوف ونَهَوْا عن المُنكر »[1] إنما تشير بذلك الى خصائص حضارتنا التى جعلتها خير حضارة أخرجت للناس.

والآية الكريمة التى تخاطبنا فى كل وقت: «وكذَلِكَ جعلْنَاكم أمَّةً وَسَطاً لتكونوا شهداءَ على النَّاسِ ويكُونَ الرَّسُول عَلَيْكُمْ شَهِيداً [1] » إنما تحملنا بذلك عبء حمل الرسالة، رسالة قيادة الناس ودلالتهم الى طريق الحق والخير دائماً وأبداً، لا فى عصر دون عصر، ولا فى جيل دون جيل.

وإذا كنا قد استجبنا لنداء القدر فحملنا اللواء مرة واحدة، وقدنا الانسانية الى مراتع الامن والهدى والنور، ثم تركنا اللواء وتهربنا من أداء الرسالة، فان هذه الآية الكريمة لتستحث اليوم خطانا لنحمل اللواء مرة أخرى، ونرفع المشعل من جديد ننقذ به الشعوب التى تتيه اليوم فى ظلمات الخوف والقلق والشهوة والظلم واليأس المميت، ثم لا تجد مخلصاً من ذلك إلا بالانتحار: انتحار الافراد بالاسلحة أو السموم القاتلة، وانتحار الشعوب بالقنابل الذرية والهيدروجينية؛ [3] .

لقد وعد الله سبحانه ووعده الحق أمة الاسلام بالتمكين فى الأرض لتؤدى هذا النور العالمى فقال العليم الخبير: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً .. » [4].

---

(١) الحج : ٤١ .

(٢) البقرة : ١٤٣

(٣) من روائع حضارتنا ص ١٨ وما بعدها، بتصرف واختصار .

(٤) النور : ٥٥.

سيَستخف بفكرة قيامنا نحن المسلمين بدور ثقافى حضارى جديد – فريقان من الناس:

الفريق الأول : أولئك الذين استعبدتهم الحضارة الغربية، وسلبتهم الثقة بأمتهم من أن تقف من الغربيين موقف الند من الند، فضلا عن موقف القيادة. وهؤلاء قد عانت أمتنا منهم كثيراً من المتاعب والنتائج الفكرية السيئة، ونحمد الله على أن هؤلاء أخذوا «يتقلصون» شيئاً فشيئاً، بتأثير حماقات هذه الحضارة وجرائمها على أصحابها وعلى الشعوب المستضعفة، وبنمو الوعى الفكرى والسياسى فى أمتنا نموا يبشر بأحسن النتائج. واذا كانت التبعية «السياسية» للغرب «المستعمر» قد انقضى أمرها وذهب معها ذلك الطراز القديم من قادتنا السياسيين الذين كانوا يرون ذلك ضربا من المستحيل، فان التبعية «الحضارية» للغرب «المتحضر» سينقضى أمرها، وسنتخلص من ذلك الطراز القديم من أدعياء قيادة الفكر الحر الذين لم يكونوا فى حقيقة الواقع إلا مظهراً ذليلاً من مظاهر الجهل والعبودية والغباوة..!

الفريق الثانى : أولئك الذين يؤمنون بقرب انهيار الحضارة الغربية بعد أن كثرت شرورها، ولكنهم لا يتفاءلون مثل تفاؤلنا بإمكان قيامنا بدور حضارى جديد ونحن على ما نحن عليه من بون شاسع بين واقعنا وواقع أمم الحضارة، ويرون أن الحديث الآن عن تسلمنا لقيادة الحضارة ضرب من الخيال وجرى وراء العاطفة! (١).

ونحن حين نتحدث عن هذا الموضوع لا نزعم أن انهيار الحضارة الغربية وانتقال مركز القيادة الحضارية الينا سيتم فى عشر سنين أو عشرين أو نصف قرن مثلاً، فلقيام الحضارات وانهيارها سنن طبيعية لا تتخلف، واذا بدأ الخلل في قاعدة قلعة حصينة فقد يبدو للعيان أمداً طويلاً أنها في ذروة قوتها، وهي مع هذا آخذة في الانهيار وستصبح ركاماً.

(١) من روائع حضارتنا ص ٢١ ، ٢٢.

لقد مررنا منذ بدء نهضتنا بمراحل يقفوا بعضها إثر بعض إقتفاءً طبيعياً، فقد استيقظنا على واقع مؤلم واستعمار جاثم، فطردنا الاستعمار ، وبدأنا نتعلم وننظم حياتنا وفق الحياة التى تفرضها الحضارة الحديثة، وهى الحضارة الغالبة على مقدراتنا الفاتحة لبلادنا، ثم بدأنا نسير فى طريق القوة واستغلال ثروات بلادنا والاستغناء بقدر ما نسطيع عن «المنتجات» الحضارية المصنوعة فى الغرب، والهدف الذى نسعى اليه الآن هو اللحاق بركب الامم المتحضرة حتى نقاربها فى القوة ومستوى المعيشة، وفى هذه المرحلة ينبغى أن نصنع لانفسنا «مقياساً» حضارياً نستمده من مقاييسنا الحضارية على ضوء مشكلات الحضارة الحديثة وحاجياتنا وظروفنا، كما يجب علينا أن نحدد خطوتنا.

نحن بحكم الواقع لا نسطيع أن نصل – فى بضع السنوات القادمة – الى مستوى القوة المادية التى وصل اليها الغربيون، فليس من السهل أن تكون لنا خلال هذه المدة أقمارنا الصناعية وصواريخنا عابرة القارات، وهب أنَّا وصلنا الى ذلك فى بضع سنين، فان الغرب يكون قد سبقنا أشواطاً أخرى فى هذه الميادين.

فالطريق الصحيح هو أن نستمر فى استكمال قوتنا الى غاية ما نستطيع مع وضع «مقياس» حضارى جديد لنا وللانسانية كلها، ونحن نملك كل امكانيات «الاستقلال» فى تخير الطريق الصحيح للحضارة، ومعنا الوقت الكافى لدراسة مقاتلها ومشاكلها لا لننجو منها فى مرحلتنا الحاضرة، فهذا مالا سبيل اليه، بل للنجو منها ونخرج عن دائرة سيرها فى مرحلتنا المقبلة، وهذا ما نجد السبيل اليه ممهداً لو آمنا بما عندنا وبمقاييسنا التى أثبتت التجارب صحتها، وبمن يتآلف منهم ركْبنا الحضارى، أى بشعبنا العظيم الذى لم تمت فيه جذوة الطموح، ولم تخب عنده نار النضال، ولم يستسلم للغزاة رغم شدة الضربات وتكرر الغزوات وتعدد الخيانات!..

إننا اذا فعلنا ذلك نكون قد أوجدنا أكبر «منعطف» لتاريخ الانسانية فى عصرها الحديث، وحسبنا أننا نسيطر بذلك على قارتينا الكبيرتين آسيا وأفريقيا سيطرة روحية وأخلاقية تجعلهما أسعد من باقى القارات وأكثرها أمنا واطمئنانا، ويومئذ لابد من أن يلتفت إلينا العالم الغربى المنهوك القوى التائه الطريق، ويأخذ عنا ما يخفف من شقائه وآلامه[1] .

(١) المرجع نفسه ص٢٣

الخصائص التى تميزت بها الثقافة الإسلامية

ان أبرز ما يلفت نظر الدارس لثقافتنا أنها تميزت بالخصائص التالية

١ - انها قامت على أساس الوحدانية المطلقة فى العقيدة، فهى أول حضارة تنادى بالإله الواحد الذى لا شريك له فى حكمه وملكه، هو وحده الذى يُعبد، وهو وحده الذى يُقصد «إياك نعبد وإياك نستعين» وهو الذى يعز ويذل ويعطى ويمنح، وما من شىء فى السموات والارض الا وهو تحت قدرته وفى متناول قبضته.

هذا السمو فى فهم الوحدانية كان له أثر كبير فى رفع مستوى الانسان وتحرير الجماهير من طغيان الحكام والاشراف والاقوياء ورجال الدين، وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وتوجيه الانظار الى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين.. كما كان لهذه العقيدة أثر كبير فى الحضارة الاسلامية تكاد تتميز به عن كل الحضارات السابقة واللاحقة، وهى خلوها من كل مظاهر الوثنية وآدابها وفلسفتها فى العقيدة والحكم والفن والشعر والادب، وهذا هو سر إعراض الحضارة الاسلامية عن ترجمة الالياذة وروائع الادب اليونانى الوثنى، وهو سر تقصير الحضارة الاسلامية فى فنون النحت والتصوير مع تبريزها فى فنون النقش والحفر وزخرفة البناء. ان الاسلام الذى أعلن الحرب العوان على الوثنية ومظاهرها لم يسمح لحضارته أن تقوم فيها مظاهر الوثنية وبقاياها المتسمرة من أقدم عصور التاريخ، كتماثيل العظماء والصالحين والانبياء والفاتحين. وقد كانت التماثيل من أبرز مظاهر الحضارات القديمة والحضارة الحديثة لأن واحدة منها لم تذهب فى عقيدة الوحدانية الى المدى الذى وصلت اليه الحضارة الاسلامية وثقافتها.

وهذه الوحدة فى العقيدة تطبع كل الاسس والنظم التى جاءت بها حضارتنا، فهنالك الوحدة فى الرسالة، والوحدة فى التشريع، والوحدة فى الاهداف العامة، والوحدة فى الكيان الانسانى العام، والوحدة فى وسائل المعيشة وطراز التفكير، حتى ان الباحثين فى الفنون الاسلامية قد لحظوا وحدة الأسلوب والذوق فى أنواعها المختلفة، فقطعة من العاج الاندلسى، واخرى من النسيج المصرى، وثالثة من الخزف الشامى، ورابعة من المعادن الايرانية، تبدو رغم تنوع اشكالها وزخرفتها ذات أسلوب واحد وطابع واحد.

٢- انها انسانية النزعة والهدف، عالمية الافق والرسالة، فالقرآن الذى أعلن وحدة النوع الانسانى رغم تنوع اعراقه ومنابته ومواطنه، فى قوله تعالى «يا أيّها النّاسُ إنّا خَلَقْناكُم مِنْ ذَكَرٍ وأنْثى وجعَلْناكُم شعُوباً وَقَبائِلَ لتعَارَفوا إنَّ أكرَمَكُم عِندَ اللّه أتقاكُم (١)». ان القرآن حين أعلن هذه الوحدة الانسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عقداً تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والامم التى خفقت فوقها راية الفتوحات الاسلامية، ولذلك كانت كل ثقافة تستطيع ان تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وامة واحدة، الا الثقافة الاسلامية فانها تفاخر بالعباقرة الذين اقاموا صرحها من جميع الامم والشعوب (٢) فابو حنيفة ومالك والشافعى وأحمد والخليل وسيبويه والكندى والغزالى والفارابى وابن رشد وأمثالهم ممن اختلفت اصولهم وتباينت اوطانهم، ليسوا الا عباقرة قدمت فيهم الثقافة الاسلامية الى الانسانية اروع نتاج الفكر الانسانى السليم.

٣ - انها جعلت للمبادئ الاخلاقية المحل الأول فى كل نظمها ومختلف ميادين نشاطها، وهى لم تتخل عن هذه المبادئ قط، ولم تجعلها وسيلة لمنفعة دولة او جماعة أو

(١) الحجرات :١٣.

(١) من روائع حضارتنا ص٣٠ ، ٣١ ، بتصرف واختصار .

أفراد.. ففى الحكم، وفى العلم، وفى التشريع، وفى الحرب، وفى السلم، وفى الاقتصاد، وفى الاسرة.. روعيت المبادىء الاخلاقية تشريعاً وتطبيقاً، وبلغت فى ذلك شأواً سامياً بعيداً لم تبلغه حضارة فى القديم والحديث، ولقد تركت الحضارة الاسلامية فى ذلك اثاراً تستحق الإعجاب وتجعلها وحدها من بين الحضارات التى كفلت سعادة الانسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء.. [1].

٤- أنها تؤمن بالعلم فى أصدق أصوله، وترتكز على العقيدة فى أصفى مبادئها، فهى خاطبت العقل والقلب معاً، وأثارت العاطفة والفكر فى وقت واحد. وهى ميزة لم تشاركها فيها حضارة فى التاريخ. وسر العجب فى هذه الخاصة من خصائص حضارتنا انها استطاعت ان تنشىء نظاماً للدولة قائماً على مبادىء الحق والعدالة، مرتكزاً الى الدين والعقيدة دون ان يكون الدين عائقاً ما دون رقى الدولة واطراد الحضارة، بل كان الدين من اكبر عوامل الرقى فيها، فمن بين جدران المساجد فى بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة انطلقت اشعة العلم الى انحاء الدنيا قاطبة. ان الحضارة الاسلامية هى الوحيدة التى لم يُفصل فيها الدين عن الدولة مع نجاتها من كل مآسى المزج بينهما كما عرفته اوروبا فى القرون الوسطى. لقد كان رئيس الدولة خليفةً وأميراً للمؤمنين، لكن الحكم عنده للحق، والتشريع للمختصين فيه، ولكل فئة من العلماء اختصاصهم والجميع يتساوون أمام القانون، والتفاضل بالتقوى والخدمة العامة للناس «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها [2] «الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله [3] هذا هو الدين الذى قامت عليه حضارتنا، ليس فيه امتياز لرئيس ولا لرجل دين ولا لشريف ولا لغنى.. «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ [4]».

---

(١) من روائع حضارتنا ص٣٠ وما بعدها.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه البزار.

(٤) سورة الكهف ١١٠.

٥- التسامح الدينى العجيب الذى لم تعرفه حضارة مثلها قامت على الدين. ان الذى لا يؤمن بدين ولا بإله، لا يبدو عجيباً اذا نظر الى الاديان كلها على حد سوآء، واذا عامل أتباعها بالقسطاس المستقيم، ولكن صاحب الدين الذى يؤمن بأن دينه حق وأن عقيدته أقوم العقائد وأصحها، ثم يتاح له أن يحمل السيف، ويفتح المدن، ويستولى على الحكم، ويجلس على منصة القضاء، ثم لايحمله ايمانه بدينه، واعتزازه بعقيدته، على ان يجور فى الحكم، أو ينحرف عن سنن العدالة، أو يحمل الناس على اتباع دينه.. إنّ رجلاً مثل هذا لعجيب ان يكون فى التاريخ، فكيف اذا وجد فى التاريخ حضارة قامت على الدين وشادت قواعدها على مبادئه ثم هى من أشد ما عرف التاريخ تسامحاً وعدالة ورحمة وانسانية!.. هذا ما صنعته ثقافتنا وحسبنا ان نعرف ان حضارتنا تتفرد فى التاريخ بأن الذى اقامها دين واحد ولكنها كانت للأديان جميعاً [١].

هذه هى بعض خصائص حضارتنا وميزاتها فى تاريخ الحضارات، ولقد كانت بذلك محل اعجاب العالم، ومهوى أفئدة الاحرار والاذكياء من كل جنس ودين.. يوم كانت قوية تحكم وتوجه وتهذب وتعلم فلمّا انهارت وقامت من بعدها حضارة أخرى، اختلفت الانظار فى تقدير قيمة حضارتنا، فمن مزر بها ومن معجب، ومن متحدث عن فضائلها، ومن مبالغ فى الانتقاص منها، هكذا تختلف انظار الباحثين الغربيين اليوم فى حضارتنا، وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا انهم وهم الذين بيدهم مقاييس الحكم وعنهم تؤخذ الآراء، هم الأقوياء الذين يمسكون بدفة الحضارة اليوم. وان الذين يحكم عليهم وعلى حضارتهم هم الضعفاء الذين تتطلع أبصار الأقوياء الى استلاب خيراتهم وحكم بلادهم بشره وجشع، ولعله هو موقف القوى من الضعيف يزرى به وينتقص قدره. كذلك فعل الأقوياء فى كل عصور التاريخ، إلا نحن يوم كنا أقوياء، فقد أنصفنا الناس قويهم وضعيفهم، وعرفنا الفضل لأهله شرقيهم وغربيهم، ومن مثلنا فى التاريخ، عدالة لعل

(١) من روائع حضارتنا ص ٣٢، ٣٣

حجة المستخفين من قومنا بقيمة ثقافتنا انها ليست شيئاً اذا قيست بروائع هذه الثقافة الحديثة واختراعاتها وفتوحاتها فى آفاق العلم الحديث، وهذا لو صح لا يبرر الاستخفاف بحضارتنا لسببين:

الاول : ان كل ثقافة فيها عنصران: عنصر روحى اخلاقى، وعنصر مادى.

أما العنصر المادى فلا شك فى ان كل ثقافة متأخرة تفوق ما سبقها، تلك هى سنّة الله فى تطور الحياة ووسائلها، ومن العبث ان تطالب الثقافة السابقة بما وصلت اليه الثقافة اللاحقة، ولو جاز هذا لجاز لنا ان نزرى بكل الحضارات التى سبقت حضارتنا، لما ابتدعته حضارتنا من وسائل الحياة ومظاهر الحضارة ما لم تعرفه الحضارات السابقة قط، فالعنصر المادى فى الحضارات [1] ليس هو اساس التفاضل بينها دائماً وأبداً.

وأما العنصر الا أخلاقى والروحى فهو الذى تخلد به الحضارات، وتؤدى به رسالتها من اسعاد الانسانية وابعادها عن المخاوف والآلام، ولقد سبقت حضارتنا كل الحضارات السابقة واللاحقة فى هذا الميدان، وبلغت فيه شأواً لا نظير له فى أى عصر من عصور التاريخ، وحسب حضارتنا بهذا خلوداً.

ان الغاية من الحضارة هى ان تقرب الانسان من ذروة السعادة، وقد عملت لذلك حضارتنا ما لم تعمله حضارة فى الشرق والغرب.

---

(١) ذهب بعض أولى الرأى من المفكرين والباحثين إلى أنه لا فرق بين الحضارة والثقافة ، فهما اصطلاحان لمسمى واحد يضم نفس الفحوى والمضمون ، وذهب آخرون إلى أن الثقافة قاصرة على الأمور التصورية والاعتقادية وأنواع الفكر المجرد ، وأن الحضارة قاصرة على عناصر الرقى المادى للمجتمع .

راجع دراسات فى الثقافة الإسلامية مدخل إلى الدين الإسلامى ص ٤٨ .

الثاني : ان الحضارات لا يقارن بينها بالمقياس المادى، ولا بالكمية فى الاعداد والمساحات، ولا بالترف المادى فى المعيشة والمأكل والملبس، وانما يقارن بينها بالآثار التى تتركها فى تاريخ الانسانية، شأنها فى ذلك شأن المعارك والممالك، فهى لا تقارن بينها بسعة الرقعة ولا بحساب العدد، والمعارك الفاصلة فى التاريخ القديم والوسيط لو قيست بمعارك الحرب العالمية الثانية من حيث اعداد الجيوش ووسائل القتال لكانت شيئاً تافهاً، ولكنها لا تزال تعتبر معارك لها قيمتها البالغة فى التاريخ لما كان لها من الآثار البعيدة. ان معركة «كانى» التى هزم فيها القائد القرطاجى الشهير «هنيبال» الرومانيين هزيمة منكرة لا تزال من المعارك التى تدرس فى المدارس العسكرية فى اوروبا حتى الآن. وان معارك خالد بن الوليد فى فتوح العراق والشام لا تزال محل دراسة العسكريين الغربيين واعجابهم، وهى عندنا من الصفحات الذهبية فى تاريخ الفتوحات العسكرية فى حضارتنا. ومع هذا فما كان قدم معركة كاني أو معركة بدر أو معركة القادسية أو حطين ليحول دون النظر اليها على انها معارك فاصلة فى التاريخ [1].

وإليك نبذة عن مفهوم الإسلام وأركانه .

---

(١) من روائع حضارتنا ص ٣٤ ، ٣٥.

مفهوم الإسلام

يتطلب صراط الإسلام المستقيم الاستسلام والإذعان لارادة الله سبحانه ومشيئته.

كما انزل فى القرآن الكريم [1] والاعتراف بأن محمداً رسول الله وهو الذى فسر وأوضح فى حياته اليومية رسالة ربه التى انزلت اليه، ومن آمن واتبع ذلك الصراط المستقيم فهو مسلم.

و«الاسلام» لغة «التسليم لارادة الله دون مقاومة [2]» ويستلزم هذا الاذعان والتسليم المطلق كحد أدنى مقبول الاعتقاد الراسخ فى ان كل ما أنزله الله فى تاريخ البشرية حق وعدل. ولقد أوضح القرآن ان جميع الرسل واتباعهم منذ أقدم الأزمنة استعملوا كلمة «الاسلام» اسما لدياناتهم. وهكذا فان «الاسلام» هو التعبير الشامل الذى يطلق على كل ديانة سماوية لم تتناولها يد الانسان بتغيير أو تبديل. والقرآن يؤكد لنا الروابط الودية بينه وبين ما سبقه من الكتب السماوية، فقد جاء فيه : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى اوحينا اليك، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» (سورة الشورى: ١٣).

---

(١) قال تعالى فى كتابه العزيز: «وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له ». (سورة الزمر : ٥٤) .

والجدير بالذكر ان هذه التسمية «الاسلام» لم تكن عن اختيار او اجتهاد من النبى ﷺ وانما كانت من الله عز وجل اذ قال:

«اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الاسلام ديناً».

(٢) قال سيدنا على رضى الله عنه: «لانسبن الاسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلى: الاسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق والتصديق هو الاقرار، والاقرار هو الاداء، والاداء هو العمل».

(نهج البلاغة: الجزء الثالث ص ١٨٠).

وقال عز وجل على لسان نوح: عليه السلام «وأمرت ان اكون من المسلمين» (سورة يونس: ٧٢). ودعا ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وهما يبنيان الكعبة.

فى مكة ليجعلا منها مكانا للعبادة [١]، فقالا: «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك» (سورة البقرة: ١٢٨).

ونصح يعقوب اولاده: «فلا تموتن الا وأنتم مسلمون» (سورة البقرة: ١٣٢). فرد عليه أبنائه مؤكدين: «قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الهاً واحداً ونحن له مسلمون» (سورة البقرة: ١٣٣).

وقال موسى يأمر قومه: «ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين» (سورة يونس: ٨٥).

وقال الحواريون: «نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون» (سورة ال عمران: ٥٢) [٢].

والقرآن يوضح ان الاسلام هو الدين الوحيد المقبول عند الله اذ يقول عز وجل: «ان الدين عند الله الاسلام» (سورة آل عمران: ١٩).

وعلى هذا فان الدين هو التسليم لارادة الله ومشيئته وهدايته. وجاء فى القرآن أيضا: «ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه» (سورة آل عمران: ٨٥). واذا فليس

(١) «واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ...» البقرة ١٢٧-١٢٨.

(٢) ويذكر الله نبيه ابراهيم فى القرآن بقوله: «ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين. اذ قال له ربه أسلم، قال أسلمت لرب العالمين» (سورة البقرة: ١٣٠ - ١٣١).

والنبى يوسف يقول مخاطبا ربه: «انت وليى فى الدنيا والاخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين» (سورة يوسف: ١٠١).

هناك من دين صحيح على وجه الارض سوى دين واحد، هو دين الله الذى اعتنقه المؤمنون فى جميع الازمنة والامكنة. وكان كل واحد من اولئك الرسل الذين اشتركوا فى كشف طبيعة دين الله ذاك، حجراً فى بناء ذلك الصرح الشامخ. ووحدة الانسانية المؤمنة هذه ليست- بالنسبة الى القرآن - حقيقة فحسب بل انها - فوق كل شيء- جزء أساسى من العقيدة الدينية (١) التى يعتنقها المسلمون ، ويتبعون ماجاء به محمد ﷺ .

(١) راجع د. محمد عبد الله دراز وآخرين . الإسلام الصراط المستقيم جـ ١ ص ٢٠٣ .

أركــان الاســلام

ان الدين عند الله الاسلام

يتطلب الايمان بالاسلام أحد عشر امراً ذكرتها الشرائع السماوية، وجاءت بها أوامر من الله صريحة، وهي لذا فرائض يجب على المرء ان يحققها ليكون مؤمناً مسلماً، وهي فرائض يتمسك بها المسلمون جميعا في مشارق الارض ومغاربها بلا اى اختلاف طفيف بينهم في هذه المسائل. والفروق الظاهرة بين السنة والشيعة والفرق الاسلامية الاخرى لا تمس الفرائض الاساسية، بل تمس التفاصيل الفرعية فقط.

والفرائض الاساسية للاسلام تعبر عنها كلمة «الشهادتين» : «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». وان جوهر العقيدة الاسلامية ولبها هو الاعتقاد بوحدانية الله وان محمداً (ﷺ) هو خاتم الانبياء.

واركان الاسلام الستة هي: الايمان بوجود الله ووحدانيته والايمان بملائكته وهي مخلوقات الله الطاهرة التي لا ترتكب خطيئة ولا إثماً، والتي تنجز أوامره، والايمان بكتبه: الزبور التوراة والإنجيل والقرآن، والايمان برسله جميعاً، وباليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، والايمان بالقضاء والقدر، وان كل مخلوق يسير بارادة الله ومع هذا ينبغي على الانسان استعمال عقله وعليه ان يتحمل مسؤلية تصرفاته. وفي هذه الفرائض الستة تخالف الديانتان السماويتان المسيحية واليهودية - الاسلام في عدم اعتقادهما بوحدانية الله وان محمداً (ﷺ) هو نبي الله الحقيقي والأخير. فعقيدة البنوة عند اليهود وعقيدة التثليث عند المسيحيين تناقض العقيدة الاسلامية تناقضاً تاماً.

ويضاف الى فرائض الايمان الستة خمس فرائض يأمر الاسلام بتنفيذها وهي: الصلوات خمس مرات في اليوم على الصورة المقررة، وصيام رمضان، والحج الى مكة عندما تسمح بذلك الصحة والثروة وسلامة الطريق، والزكاة وهي اعطاء الصدقات بنسبة واحد من أربعين عن أموال الشخص المنقولة ومن ثروته، والنطق بالشهادتين باللسان والقلب معاً.

هذه الفرائض الاحدى عشرة هى الاسس التى تمسك بها الاتراك منذ ان اعتنقت قبائلهم الاولى فى اسيا الوسطى الاسلام، كما تمسك بها المسلمون كافة. والاتراك من اهل السنة ومن اتباع المذهب الحنفى . ونورد هنا بعض الاحاديث النبوية الصحيحة وقد حفظت نبراساً يهدى المسلمين ويرشدهم فى عقيدتهم وشعائرهم الدينية.

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه» (١).

«دع ما يريبك الى مالا يريبك » (٢).

«من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه» (٣).

«لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله اخوانا، ولا يحل لمسلم ان يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» (٤).

ليست هذه سوى أمثلة قليلة من أحاديث محمد (ﷺ) التى حفظت مشاعل تهدى المسلمين أنىّ كانوا.

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، و(التجريد الصحيح لاحاديث الجامع الصحيح - كتاب الايمان - ج ١ ص٩).

(٢) رواه الترمذى والنسائى، وقال الترمذى حديث حسن صحيح .

(٣) رواه الترمذى .

(٤) رواه أنس بن مالك - التجريد الصحيح (ج ٢ كتاب الادب ص ١٤١).

وعن أبى هريرة ان الرسول قال: لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله اخوانا، المسلم اخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره، التقوى ههنا(ويشير الى صدره ثلاث مرات) بحسب امرىء من الشر ان يحقر اخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه - رواه مسلم . وعن ابى ايوب الانصارى ان رسول الله قال: لا يحل لرجل ان يهجر اخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام (التجريد الصحيح - ج٢ص١٤١).

بين الدين والعلم

ليس فى الإسلام تناقض أو عداء بينه وبين العلم .. كما أنه لن ينمحى من الأرض بأى وسيلة كانت كما يدعى المبطلون .

ألف المسيو (بنجامن كونستان) كتابا سماه (الدين وينبوعه وأشكاله وترقيه) بحث فيه عن العلل التى أنهكت جسم الجمعيات البشرية من جراء الاعتقادات الباطلة ثم حكم بأن مداواة هذه العلل لا تتأتى إلا بحرية الضمير وحرية الاعتقاد والحرية الشخصية وبالاختصار كل الحريات الضرورية ثم قال: «بهذه الطريقة تتقى الأديان عن أدرانها ولكنا لا نخال أن ذلك يتحقق مطلقا لاعتقادنا أنها لن تترك شيئا من أسسها. ولكن بما أن هذه الأسس تناقض العلم وتعارضه فيكون من المقرر الثابت انمحاء الديانات وزوالها». نحن نعجب للغاية من كون مثل هذا العالم المشهور يحكم على جميع الديانات بدون استثناء بالانمحاء والزوال حال كونه لم يدرسها كلها طبعاً لأنه لو درس الاسلام ولو درساً سطحياً لتحقق قبل كل شيء أنه ليس فيه أسس تناقض العلم كما يتهم به سائرها. وسنقتصر هنا على ايراد أشد المطاعن على الأديان وجهات الضعف فيها نقلا عن أشهر علماء أوربا ليقف القارىء على اتجاه الأفكار الأوربية العلمية وليتحقق بعد أن نورد عليه أسس الاسلام أنه هو حقيقة أمنية النفوس وحظية الأرواح فإذا كان (كونستان) قد أنذر جميع الأديان بالزوال وعلل ذلك تعليلا فلسفياً فقال: «إن كل قاعدة مهما كانت نافعة فى الحال فلابد أن تكون محتوية على جرثومة تعارض الرقى فى الاستقبال لأن تلك القاعدة تأخذ بطول المكث شكلا عديم الحراك يأبى على العقل البشرى اتباعه فى مكتشفاته التى ترقيه كل يوم وتطهره. إذا حصل ذلك ينفصل فى الحال الاحساس الدينى عن تلك القاعدة المتحجرة ويطلب سواها من القواعد التى لا تجرحه ولا تحرجه ولا يزال يضطرب حتى يصادفها».

ورأى علماء أوربا – والدليل الحسى بين أيديهم – أن رقى الانسان منوط برقى العلم ونموه، وأن نمو العلم ورقيه مرتبط بانطلاق العقل من قيوده وتحرره من أصفاده وعدم سيطرة شىء من الأشياء على الابحاث العلمية حتى لا يتأتى من تلك السيطرة ما حصل من نتائج المنابذة بين رجال الأديان ورجال العلوم فى الأزمنة الماضية قال المسيو (بلوك) : «أن رقى القوة الفكرية وحسن الحكم على الأشياء يتعلق بنمو العلم. وقد تحصلنا على هذه النتيجة بترقية معلوماتنا التى هدمت أركان كثير من ضلالاتنا السابقة من جهة ومن جهة أخرى باستعمالنا لحسن النظر والتدقيق فى الأشياء».

لاعتقاد العلماء الاوربيين بأن حرية العقل والعلم هى مناط كل السعادات المادية والمعنوية تراهم لا يستطيعون أن يكتبوا تاريخ الضغط عليهما إلا بمزيد الانفعال والتغيظ من الماضى متشفين من الذين يؤملون أن يعيدوا الكرة . ولنترجم قطعة صغير من أقوال (لاروس) المشهور ليرى القارىء مقدار التحمس الذى يتذكر به علماء الغرب ضغط الزمان السابق قال: «إن قلنا إن الاحسان يقتضى اعتقاد الأشياء المعقولة يقولون. كلا. كلا ثم يسعون فى تذليل هذا العقل الانسانى الذى يدعى لنفسه حق التمييز بين الخير والشر وبين العدل والظلم. حتى إذا أعموا عين العقل وغشوا باصرة البصيرة لدرجة بها ترى الكرامات كأنها أمور معتادة وتظن الأبيض أسودا وتعد الرذيلة فضيلة يعود الدين فيقول أطيعوا. نطيع من؟ هل نطيع العقل ؟ هل الواجبات الطبيعية ؟ هل الاحساسات القلبية؟ هل النواميس الحقيقية المفيدة للانسانية، والتى تنتج من تذكر القواعد نفسها ؟ كلا. ولكن أطع وأنت أعمى إلى الذى يحكم باسم الله حتى ولو أمرك بقتل سلطانك أو أبيك أو بعمل مقتلة عامة فانه ليس لك لا روح ولا ضمير، إنما أنت ميت فى الله».

إلى هذا الحد وأكثر وصلته مناوأة علماء أوربا للأديان الموجودة ولكن هل نستنتج من هذه المناوأة أنهم تركوا التدين بالمرة وزعموا أنهم استغنوا بعملهم عن الاخبات والخضوع لخالقهم وخالق كل شىء؟ كلا. انهم ليقرون مع أصحاب الأديان ويزيدون

عليهم فى استدلالهم بالابحاث العلمية إن الاحساس الدينى هو غريزة النفس البشرية لا تقل فى الوضوح والتأثير عن الاحساس بضرورة الغذاء بقاء التدين: قال (جيبزلر) الفيلسوف الألمانى فى كتابه تاريخ الاعتقادات: «الدين مخلد مثل خلود الاحساس الذى ينتجه ، ولكن علوم الدين هى مثل سائر العلوم الأخرى يجب أن تكون قابلة للرقى على قدر الرقى العقلى وذلك مثل العلاقة الموجودة دائماً بين الحقوق وعلم التشريع. فالحقوق لا تتغير ولكن علم التشريع يجب أن يتغير ويتهذب على الدوام [1] .

وقال المسيو (ارنست رينان) فى كتابه المسمى تاريخ الأديان: «من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها . ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة. ولكن يستحيل أن ينمحى التدين أو يتلاشى بل يبقى أبد الآباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الانسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الطينية».

ومن الأدلة الحسية على أن العقل البشرى مهما ترقى وتقدم فلا يستطيع أن يعيش بلا دين: هو أن طائفة كبيرة من علماء أوروبا قامت بتأليف ديانة سمتها الديانة الطبيعية ولم يدخلوا إليها من القواعد والأصول إلا ما دل على حقيقته البرهان وقام بالدلالة عليه الحس والعيان [2] .

والحديث عن أسس الإسلام أهم قواعد ذلك الدين الجديد ليرى المسلمون بأعينهم أن دينهم لم يترك مجالا لجائل ولا مقالا لقائل: «أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون» [3] .

---

(١) محمد فريد وجدى : المدنية والاسلام ص ٢٩ – ٣١.

(٢) المدنية والاسلام ص٣٣.

(٣) آل عمران : ٨٣ .

إن الاسلام هو سنام الكمال الأعلى الذى من أجله خلق الانسان وأعد للرقى إليه والذى لأجله وضعت فيه عزيزة الدأب والبحث عليه.

بل الاسلام هو أمنية النفس البشرية التى فطرت لتنشدها وتتحسسها كأعظم غاية لها وأسمى نقطة لكمالها. فهى لا تفتأ تتطور فى كل الأطوار وتدور مع كل الأدوار بحثاً عن تلك الضالة العزيزة المنال والتى فى وجودها راحة لها من البلبال ومقنع لها من كل الآمال والأميال.

نعم الاسلام هو الغاية الكمالية التى مات دون نيلها الحكماء وفنى قبل اكتناهها العلماء. الاسلام هو القانون الأقوم والناموس الأعظم الذى من الله به على هذا النوع الضعيف من البشر ليقيم أود حالتيه ويغنم به سعادة حياتيه ويجعله الركن الذى يعتمد عليه ويهرع فى الشدائد إليه. من به على هذا النوع خاتمة للأديان وتاجا على هامة الزمان وفى الحين الذى تم فيه نمو عقل الانسان ليكون حجة من الله على عباده تنطق بالحق وتصدع بالعدل وترينا طريق الهدى بالحجة لكى لا يكون للانسان بعد أن بلغ رشده فى رفضه ولا قوة فى دحضه.

« الاسلام دين خدمته العلوم الطبيعية على غير علم من ذويها حتى صارت نصوصه فى هذا القرن أوضح من الضياء وأسهل جولاناً فى العقل من الشعاع فى الماء. فلا قاعدة دلت عليها التجارب. ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر يكون لها أثر فى ترقية الانسان وتحسين بناء العمران إلا وهى صدى صوت آية قرآنية أو حديث من الأحاديث النبوية حتى يخيل للرائى أن كل جد ونشاط يحصل من علماء الكرة الأرضية فى سبيل رفعة شأن الانسانية لا يقصد به إلا إقامة الحجج التجريبية على صحة قواعد الديانة الاسلامية :[1] «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق.

(١) المدنية والاسلام ص٣٤.

أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد.» [1] .

« بناء على ما قدمنا فلن يمكن صدم تيار الاسلام بأى وسيلة كانت، لأنه لا فرق بين صدمه وبين صدم المدنية الانسانية والترقيات النفسية وبين محو النصوص العلمية العملية ورد الناس الى الحالة الأولية. وهذا أمر لن يقدر عليه مجموع الأنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا: «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره.[2] .

وإذ قد عرفنا طرفا عن الإسلام فما هو الدين ؟

---

(١) فصلت : ٥٣ .

(٢) التوبة : ٣٢ ، وراجع المدنية والاسلام ص٣٥.

مفهوم الدين

إن لفظة دين قديمة جدا كقدم مسماها وشائعة بين كل الطوائف البشرية سواء حاضرها وباديها ، وحشيها ومتمدنها ولكنهم لم يدركوا معناها على الوجه الحقيقى الذى جاءت به الشرائع الالهية والذى ينطبق على رحمة الخالق وعنايته. ومن يتدبر التاريخ يرى الشعوب المختلفة قد تطورت أطوارا كثيرة فى فهم معنى هذه الكلمة على حسب تطور العقل البشرى فى فهم المعقولات.

كان الأقدمون لا يعرفون الدين إلا أنه مجموع احتفالات عمومية تضحى فيها الحيوانات أو أسرى الحروب إرضاء لمعبوداتهم وتسكيناً لغضبهم. ثم لما ترقت المدارك الانسانية ونمت فيها الفريزة العقلية بتطور العلوم والفنون أخذ معنى الدين ينجلى شيئاً فشيئاً ويقرب رويداً رويداً من المعنى المراد لله سبحانة والذى جاءت الأديان تأمر الناس بفهمه كذلك[1] .

فمن يتأمل فى مبلغ الرقى الذى حصله الأنسان من أول نشأته إلى الآن يتحقق أن الخالق جل جلاله وهبه من الخصائص ما يستمر به ترقيه وتدرجه إلى نقطة لم يصل اليها الفكر البشرى للآن.

قال الفيلسوف الشهير (جول سيمون) : «إنا نؤدى فى أثناء هذه الحياة الواجب الذى رسمه الله تعالى لنا تحت رعايته وعنايته وعند ما ينتهى بقاؤنا فهو إما أن يثيبنا وإما أن يعاقبنا» ثم ذكر الأسباب التى تقتضى الاثابة والعقوبة فقال: «أما الأمر الذى يقتضى المثوبة الحسنة فهو طاعة الانسان لقانونه الخاص وعمله للخير. أما قانون الانسان الخاص فهو حفظ ذاته وترقية خصائصه المودعة فيه. ثم هى محبة وخدمة

---

(١) المدنية والاسلام ص٣٦.

اخوانه، ومحبة وعبادة الخالق ذاته. ولكن ماهى الطريقة التى يعبد بها الانسان ربه؟ إن أداء الواجب وعمل الخير هو عين العبادة والحب والعمل والأخلاص هى نفس العبادة ونفس الصلاة، والاخلاص للوطن هو عين خدمة الله تعالى. هذه هى الديانة الطبيعية، وهذه هى العبادة الطبيعية.

مذاهب علماء أوروبا فى الدين :

هناك أربعة مذاهب فى أوروبا عن الدين :

(أولا) الاعتقاد بأن الله غنى عنا وعن أعمالنا وان ما نعمله من الخير لا نتيجة له الا منفعتنا الخاصة.

(ثانياً) ان الله تعالى رحيم بالأنسان ويود صلاحه ولا يكلفه بالعبادة الا لفائدة نفسه.

(ثالثاً) ان العبادة يجب أن تنطبق على النواميس الثابتة للحياة وتلائم الطبيعة البشرية لا أن تعارضها وتسعى فى ملاشاتها.

(رابعاً) العبادة الجسمية يجب أن تعتبر وسوائل لتطهير النفوس وتهذيبها لا أغراضاً مطلوبة لذاتها.

نقول ان هذه الأربعة الأمور التى لم يبلغها العقل البشرى الا بعد أن شابت ناصية الكرة الأرضية وجعلت علماء القرن التاسع عشر يتيهون بها عجباً ويميلون طرباً ليست هى الا شعاعاً من الديانة الاسلامية وقطرة من بحرها الزاخر. ونحن لاجل زيادة الاقناع نأتى هنا على النصوص الشريفة التى تنطبق على هذه الامور الاربعة مرتبة على حسبها فنقول :

(اولا) قال تعالى: «ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه. ان الله لغنى عن العالمين».

(ثانيا) قال الله تعالى: «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» وقال تعالى: «ما يريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون.»

(ثالثا) قال الله تعالى: «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» وقال تعالى: «ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم» وقال تعالى: يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الأنسان ضعيفا»

(رابعا) قال عليه الصلاة والسلام: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً» وقال عليه الصلاة والسلام: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش» .

هذه هى عقيدتنا فى فهم الدين. وقد رأيت انها مطابقة للعقل والعلم تمام الانطباق ومتفقة مع النواميس الثابتة كل الاتفاق [1] . إنه لا تعارض فى الإسلام بين الدين والعلم إلا فى عقول المبطلين .

(١) المرجع نفسه صرص ٣٨ ، ٣٩ .

حرية العلم فى الإسلام

كلمة العلم من أشيع الكلمات المستعملة قديما وحديثا ، وهى فى كل دور من أدوارها تطلق على مايضاد الجهل على الإطلاق [1] .

ونسبة العلم إلى القوة العقلية كنسبة الغذاء إلى الهيئة الجسمية. فكما أن الجسم ينمو ويزيد بتمثيله أنواع المواد الأرضية كذلك القوة العقلية تكبر وترتقى بتمثيل النظريات العلمية والمعلومات الخارجية. لهذه العلة أخذ مذللو النوع الانسانى فى التشنير على العلم والتنديد به وبمحبيه وحكموا أنه الرجس الذى لا يصح أن يحام حوله أو يقصد حوضه. قال لاروس فى دائرة معارفه:

«أما هم فيعتبرون أن العلم هو الشجرة الملعونة التى تقتل بأثمارها بنى آدم .نعم انهم تصدوا للعلم تصديا منع الناس عن ذكر اسمه والعروج على رسمه. وأخذوا يحرفون فلسفة الأقدمين لتنطبق على أوهامهم وتتوافق مع أحلامهم حتى لم يبق منها الا هيكل مشوه يفرق العقل من رؤيته ويأنف من روايته.

---

(١) وهذه الكلمة تعنى فى أوروبا : مجموع المعارف الإنسانية المؤيدة بالدلائل الحسية ، وجملة النواميس التى اكتشفت لتعلل حوادث الطبيعية تعليلا مؤسسا على تلك النواميس الثابتة ولاتستعمل الا مفردة ومع هذا فقد تطلق على مجموع معارف فى فرع خاص من المعارف الإنسانية ، وفى هذه الحالة يلحق بها التخصيص فيقال : علم الكيمياء ، وعلم الفلك مثلا .

وقد يعتريها الجمع فيقال : العلوم الكونية ، والعلوم الرياضية :

عمر العلم :

« ولكن كم عمر العلم ؟ ليس عمره إلا قرونا قليلة بل قرنا واحدا ، لأنه لم يتقدم تقدما يذكر إلا فى القرن التاسع عشر » .

الأستاذ / محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين، المجلد السادس : ص ٥٨٤ ، ٥٨٨ .

زعموا أن لديهم العلم الذى لا جهل معه والكنز الذى لا يفتقر من جمعه فحكموا أن كل ما أتى من الخارج منه يكون خارجا عن نطاق التحقيق ولا يقول به الا زنديق فيسرعون بالحكم عليه بأقصى ما يتصوره العقل من العقوبة الجسمية مما يروع الجسور ويزع الصبور فأماتوا بهذه الطريقة عددا عظيما من الحكماء بتهمة أنهم يسعون فى زيادة مواد العلم ومن يطالع تاريخ العلم ير العبر [1].

صرح الاسلام عن لسان الحكيم العليم فى قرآنه القويم بأن فهم حكمة الخالق فى كلامه المنزل على صفوة أنبيائه لا يتأتى إلا بانارة الفكر بانوار العلوم وتقويم النظر ببدائة المعقولات فقال تعالي: «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» ولم يكتف بهذا بل أنذر المتكاسلين عن طلب العلم بسوء المنقلب وبالطبع على قلوبهم برين يود بهم إلى سوء العذاب فقال تعالي: «ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون. كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون .» [2] .

بمثل هذه الآيات البينات فتح الاسلام للعقول أبواب العلوم الصادقة والمعارف الحقة وأراهم أن طلبها والسعى فى اكتسابها هو من أعظم ما يعبد به الخالق جل شأنه فقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل العبادة طلب العلم» وقال عليه الصلاة والسلام: «نظر الرجل فى العلم ساعة خير له من عبادة ستين سنة».

لم يحصر الاسلام العلم فى بلد من البلدان ولا عند طائفة من بنى الانسان بل أمرنا باصطياد شوارده حيث كانت وأنى وجدت فقال عليه الصلاة والسلام: «اطلب العلم ولو بالصين» وقال عليه الصلاة والسلام: «الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها» فليس للمسلم أن يرفض حكمة ما بحجة كونها صدرت ممن هو مناف له اعتقاداً أو

(١) المدنية والاسلام ص ٥٤.

(٢) الروم : ٥٨ ، ٥٩ .

مغاير له وجداناً، بل يكفيه باعثا لأخذها كونها حكمة وكونها مما يرفع شأن الانسان ويزيل من جهالته. قال عليه الصلاة والسلام: «خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت.»(1) .

أتل آى القرآن الحكيم بتدبر وروية ترى آيات صوادع تزع الانسان عن الغفلة عن العلم وتردعه عن الاغضاء عن نواطق الحكم ترى الجبار الأعلى ينادى عباده بلسان الرحمة قائلا لهم: «انظروا ماذا فى السموات والأرض». ويبكت المقصرين فى النظر ليعتبر أهل الفكر بقوله «وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون» وينذر الذين يعمون أعينهم عن تدبر بدائع الأكوان الباعثة لمزايا العرفان بقوله تعالى: «ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا. قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى» (2).

هذا هو شأن حرية العلم فى الاسلام. فهل وصل الأولون والآخرون إلى إعلاء شأنه واكبار مقامه إلى أكثر مما رأيت فى هذه الايات التى تبعث الجماد فضلا عن الانسان؟ وهل هذه الحرية العلمية بعيدة العهدة عن أبناء هذا العصر؟ كلا. قال المسيو (برتلو) أحد نظار خارجية فرنسا السابقين وأكبر علمائها الكيماويين:

أن العلم لم يتوصل إلى نيل حريته إلا من منذ مائتين وخمسين عاماً: «الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنتهدى لولا أن هدانا الله.» (3) .

---

(1) المدنية والاسلام ص٥٥ .
(2) طه : ١٢٥ ، ١٢٦ .
(3) نقلا عن المدنية والاسلام ص٥٦.

دور المسلمين فى العلوم

لقد كان دور المسلمين فى العلم بارزا خاصة فى القرون الوسطى ويشير ابن خلدون فى مقدمته(1) إلى مصادر العلم العربى فيقول:

«... وأعلم أن أكثر من عنى بها فى الأجيال الذين عرفنا أخبارهم : الأمتان العظيمتان فى الدولة قبل الإسلام، وهما فارس والروم، فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفورا فيهم، والدولة والسلطان قبل الإسلام وعصره لهم، فكان لهذه العلوم بحور زاخرة فى آفاقهم وأمصارهم».

ويزيد ابن خلدون الأمر وضوحا فيقول:

«... وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيما، ونطاقها متسعا، لما كانت عليه دولتهم من الفخامة واتصال الملك، ولقد يقال: إن هذه العلوم إنما وصلت إلى يونان منهم، حين قتل الاسكندر دارا، وغلب على مملكة الكينية، فاستولى على كتبهم وعلومهم مما لايأخذه الحصر.

ولما فتحت أرض فارس، ووجدوا فيها كتبا كثيرة، كتب سعد بن أبى وقاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ليستأذنه فى شأنها وتنقيلها للمسلمين فكتب إليه عمر أن اطرحوها فى الماء، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله، فطرحوها فى الماء أو فى النار، وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا»

أما ازدهار العلم عند الروم فيقول عنه ابن خلدون:

«وأما الروم فكانت الدولة منهم اليونان أولا، وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب، وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم واختص فيه المشاؤون منهم

(1) ص٤٧٩ – ٤٨١ طبعة دار الفكر.. القاهرة.

أصحاب الرواق بطريقة حسنة فى التعليم، كانوا يقرأون فى رواق يظلهم من الشمس والبرد على ما زعموا.

واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم فى تلميذه بقراط[1] ثم إلى تلميذه أفلاطون[2]. ثم إلى تلميذه أرسطو[3].

ثم إلى تلميذه الإسكندر الافروديسى[4].

وتاسطيون[5]، وغيرهم.

وكان أرسطو معلما للإسكندر [6] ملكهم، الذى غلب الفرس على ملكهم، وانتزع الملك من أيديهم، وكان أرسخهم فى هذه العلوم قدما، وأبعدهم فيه صيتا، وكان يسمى المعلم الأول، فطار له فى العالم ذكر».

واهتمام العرب بالحضارات السابقة ونقلها إلى لسانهم العربى واستيعابهم إياها، يعد نقلة عظيمة لهذه الأمة الفتية التى ظهرت على مسرح الحياة لتدب فى الشعوب الغيرة، والتنافس حول جمع أكبر قسط من العلم.

---

(١) لعله أبقراط العالم الأغريقى الذى ولد فى ٤٦٠ق م، واشتهر فى الطب والعلوم الطبيعية، وقد نقل العرب كثيرا من مصنفاته إلى العربية، ومنها كتاب المعرفة، وكتاب الإنسان.

(٢) يعرف فى العرب باسم: «phato» عاش فى أثينا من عام ٤٢٧ حتى ٣٤٧ق م، وكان تلميذا لسقراط (٤٦٩- ٣٩٩ق م).

(٣) يعرف فى الغرب باسم Aristotoles عاش من عام ٣٨٤ حتى ٣٢٢ق م، وكان تلميذا للفيلسوف أفلاطون أنظر أعلام الفيزياء فى الإسلام هوامش ١. ٢. ٣. ص ٢٣، ٢٤.

(٤) من كبار فلاسفة الأغريق، عاش فى القرن الثانى الميلادى، وقد قدر أعماله علماء العرب والمسلمين وعلى رأسهم ابن سينا.

(٥) صحة تسميته ثامسطيوس، يقول عنه الشهرستانى فى «الملل والنحل»: إنه الشارح لكلام الحكيم أرسطو طاليس.

(٦) توفى الاسكندر الأكبر فى بابل سنة ٣٢٣ ق م.

يقول ابن خلدون عن العرب :

«تشوقوا إلى الإطلاع على هذه العلوم الحكيمة بما سمعوا من الأساقفة والأقسة المعاهدين بعض ذكر منها، وبما تسموا إليه أفكار الإنسان فيها فبعث أبو جعفر المنصور[1] إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم[2] مترجمة، فبعث إليه بكتاب أوقليدس، وبعضها كتب الطبيعيات، فقرأها المسلمون، واطلعوا على ما فيها، وازدادوا حرصا على الظفر بما بقى منها.

وجاء المأمون[3] بعد ذلك، وكانت له فى العلم رغبة بما كان ينتحله، فانبعث لهذه العلوم حرصا وأوفد الرسل على ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين، واستنساخها بالخط العربى، وبعث المترجمين لذلك، فأوعى منه واستوعب.

وعكف عليها النظار من أهل الإسلام، وحذقوا فنونها، وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها وخالفوا كثيرا من آراء المعلم الأول[4]، واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده، ودونوا فى ذلك الدواوين، وأربوا على من تقدمهم فى هذه العلوم.

أبو نصر الفارابى[5].

وكان من أكابرهم فى الملة:

---

(١) حكم فى الفترة من سنة ١٣٦- ١٥٨هـ (٧٥٤- ٧٧٥م) بنى بغداد واتخذها عاصمة للدولة الإسلامية، وفى عهده اشتغل كثير من العلماء بجمع كتب اليونان ونقلها إلى اللغة العربية.

(٢) تشمل كتب التعاليم كتب الهندسة والارتاطيقى والموسيقى والهيئة.

(٣) هو عبد الله أبو العباس المأمون بن الرشيد ولد سنة ١٧٠هـ، وحكم من سنة ١٩٨- ٢١٨هـ (٨١٣- ٨٣٣م) فى عهده وصلت حركة الترجمة والتأليف أوجها حيث كان يحب العلم ويشجع العلماء. راجع أعلام الفيزياء فى الإسلام ص ٢٥ - ٢٧. وما بعدها هوامش ١-.

(٤) هو أرسطو أو أرسطو طاليس (٣٨٤ - ٣٢٢ق م) .

(٥) يلقب بالمعلم الثانى (بعد أرسطو) .

وأبو على بن سينا[1] بالمشرق،

والقاضى أبو الوليد بن رشد[2]،

والوزير أبو بكر بن الصائغ[3] بالأندلس.

إلى آخرين بلغوا الغاية فى هذه العلوم، وأختص هؤلاء بالشهرة والذكر، واقتصر كثيرون على انتحال التعليم » .

هذا هو تاريخ ابن خلدون فى التراث الأغريقى فى صدر الحضارة الإسلامية العربية ، ولإقبال المسلمين على الانتهال من هذا النبع العذب، ولارتوائهم منه ونهضتهم، ليكملوا مسيرة الحضارة الإنسانية بخطى ثابتة، وفكر مفتوح وعبقرية فذة[4]. فكان لهم دور مشهود .

عطاء الشرق فى العصور الوسطى :

يشيد المستشرق الألمانى الدكتور ألبرت ديتريش بفضل العرب المسلمين على الحضارة الإنسانية، فيقول فى بحثه: «دور العرب فى تطور العلوم الطبيعية» [5] :

---

(١) يلقب بالشيخ الرئيس، عاش فى الفترة من ٣٧٠ – ٤٢٨ هـ (٩٨٠ – ١٠٣٧م) .

(٢) عاش فى الفترة من عام ٥٢٠هـ حتى عام ٥٩٥هـ (١١٢٦ – ١١٩٨م) .

(٣) هو الوزير أبو بكر بن الصائغ ، ويعرف بابن باجه توفى سنة ٥٣٣هـ (١١٣٩م) ولد فى مدينة سرقسطة بالأندلس، ويعد من رواد العلوم الطبيعية والرياضية وعلوم المنطق والهيئة والنبات والطب، وله فيها مؤلفات قيمة، وقد اشتهر بين معاصريه بأنه علامة زمانة. راجع: أعلام الفيزياء فى الإسلام ص ٢١ – ٢٧.

(٤) راجع أعلام الفيزياء فى الإسلام ص ٢٣ وما بعدها.

(٥) مجلة اللسان العربى: الرباط العدد السادس يناير ١٩٦٩ ص٩٦ – ١٠٦. نقلا عن أعلام الفيزياء فى الإسلام: للدكتورين: على عبد الله الدفاع، وجلال شوقى ص ٣٦ .

«وأما الأوروبى الذى يحاول تقويم العلاقات الثقافية بين الإسلام وأوروبا، فربما يبدو له الغرب بمظهر المعطى، والإسلام بمظهر القابل، وسرعان ما يفضح هذا الغرور بنظرة إلى تاريخ العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب، والحقيقة أن الشرق كان المعطى طوال العصور الوسطى، والغرب القابل، فإن الصليبيين رأوا بأعينهم تفوق الحضارة الإسلامية على حضارتهم المسيحية، وقد اتسعت الأقطار لهذه الحضارة بعد فتوحات القرنين: الأول والثانى للهجرة، فقامت دار الإسلام فى وقت كان فيه الملك الإسكندر ذو القرنين، والأمبراطورية الرومانية فى أوج عزهما، إذ امتدت من الأندلس، وشواطىء المحيط الأطلنطى إلى الهند وآسيا الوسطى، ومن جبال القوقاز إلى بلاد السودان، ونعمت شعوبها بأمان المواصلات والتنقلات حتى بعد أن سطقت الخلافة سياسيا، وقسمت المملكة إلى دويلات وإمارات متعددة».

ويعترف ألبرت ديتريش بفضل علماء المسلمين فى مجال العلوم الطبيعية فيقول[1]:

«هذا، وفضل المسلمين على تاريخ الفكر البشرى أنهم حفظوا ذلك التراث الثقافى ونشروه فى الأقطار، إنما هذا نصف الحقيقة فقط، ونصفها الآخر هو ما سبق تنويهنا به، وما سيشغل بحثنا الآن أى ابتكاراتهم فى العلوم الطبيعية».

ويقول ديتريش فى موضع آخر من بحثه:

«ويخطىء من يقول إن المسلمين اكتفوا بالاقتباس عن اليونان تراث حضارتهم، وبحمله كما هو إلى الغرب، وسنرى فى سياق بحثنا أنهم زادوا الكثير عليه من ثمرة خبرتهم، ومما لقوه خارج بلادهم لا سيما فى الهند .

وكونهم تتلمذوا لشعب مبارك كالشعب اليونانى لا يحط من كرامتهم، بل يعلى شأن حضارتهم، فبه كتب لهم أن يتفوقوا على الأوروبيين بمراحل ويسبقونهم بأجيال،

---

(١) نقلا عن أعلام الفيزياء فى الإسلام ص ٣٧.

وهم أنفسهم يدعون حفظهم الأمين لآراء القدماء، مما لايعنى أنهم لم يكملوها فى وجهات عدة» .

ويقول المستشرق الألمانى أيلهارد فيلمان:

«إن المسلمين أخذوا عن الإغريق بعضا من النظريات، فاستوعبوها وأحسنوا فهمها، ثم قاموا بتطبيقها على حالات كثيرة متباينة، وتمكنوا من استنباط نظريات جديدة، وبحوث مبتكرة، فأسدوا إلى العلم خدمات لاتقل أهمية عن تلك التى تأتت من مجهودات نيوتن،[1] وفراداى ورونتجن»[2] .

ويشير سيد حسين نصر فى كتابه عن العلم الإسلامى، ذلك الكتاب الذى صدر عن مهرجان العالم الإسلامى، يشير نصر إلى انتقاد علماء العرب والمسلمين لتراث الإغريق ، فيقول:

«إن كثيرا من علماء المسلمين فى الطبيعيات كالبيرونى وابن سينا قد انتقدوا نظريات أرسطو طاليس فى هذا المجال، وهكذا بدأ عصر النقد البناء».

ويؤكد فلورين كاجورى فى كتابه «تاريخ الفيزياء» على فضل المسلمين فى حقل الطبيعيات فيقول:

«بدأت بعد الفتوحات الإسلامية مرحلة الإنتاج العلمى خاصة فى ميادين الكيمياء والفلك والرياضيات والجغرافيا. كذلك فقد أولى المسلمون علم الطبيعيات اهتماما بالغا، وخصوا علم البصريات بعناية فائقة، وذلك بدارسة خواص الضوء».

وتقول المستشرقة الألمانية سيجريد هونكه فى كتابها «شمس الله تسطع على الغرب»:

---

(١) هو اسحاق نيوتن العالم الفلكى الفيلسوف الانجليزى ولد فى ١٦٤٢ ، وتوفى سنة ١٧٢٧ م وهو مكتشف قوة الجاذبية ، واخترع المنظار العدسى ، وعالم فى الرياضة .

(٢) نقلا عن أعلام الفيزياء فى الإسلام ص ٣٧ .

«هذه المعارف المبتكرة العظيمة الشأن، هذه التحقيقات العلمية الرائعة التى قدمتها العبقرية العربية هدية منها للإنسانية عامة، ولأوروبا خاصة، كالأرقام العربية، وعلم الجبر العربى، وعلم الطبيعة، والاسطرلابات العربية.. من اعترف بمصدرها؟ ومن أرجع فضلها إلى مبتكريها، بل كان الأمر على العكس تماما، فإن غالبية الاكتشافات العربية حملت معها وما تزال تحمل حتى يومنا هذا أسماء انجليزية أو فرنسية أو ألمانية»[1].

ويضيف سيد حسين نصر فى كتابه «العلوم والحضارة فى الإسلام»:

« إن دراسة المادة والضوء والزمان والفضاء والسرعة وصلت إلى أوروبا من علماء المسلمين، وليس من فلاسفة اليونان كما يدعى المغرضون».

هذا ويرد ديفيد يوجين سميث فضل استخدام الرقاص إلى العالم المسلم ابن يونس [2] ، فيقول فى المجلد الثانى من كتابه «تاريخ الرياضيات»:

«يدعون أن قانون الرقاص هو من وضع جاليليو، بيد أن ابن يونس لاحظه وسبق إليه، حيث إن الفلكيين العرب كانوا يستعملون الرقاص لقياس الفترات الزمنية أثناء إجراء عملية الرصد» [3] .

ويؤكد هذا المعنى جورج سارتون فى كتابه «المدخل إلى تاريخ العلم» حيث يقول:

«إن ابن يونس يعتبر بلاشك من عمالقة القرن الحادى عشر للميلاد، وأعظم فلكى ظهر فى مصر، وهو مكتشف الرقاص».

---

(١) نقلا عن : أعلام الفيزياء فى الإسلام ص ٣٧ .

(٢) انظر ص ٩ من هذا البحث .

(٣) نقلا عن نفس المرجع ص ٣٩ .

«ولقد صدق حيدر بامات حين قال فى كتابه «إسهام علماء المسلمين فى الحضارة»:

«يتعين علينا اعتبار العرب مؤسسى علم الفيزياء، وعلى رأسهم أبو على الحسن ابن الهيثم والبيرونى، فهما المبتكران للكثير من نظريات هذا الحقل»[1].

ويعد المستشرق الألمانى ألبرت ديتريش مآثر العرب فى العلوم الطبيعية فيقول[2]:

«إن العناية الكبرى التى أولاها العرب التراث اليونانى لم تمنعهم من إخصابه بمعارفهم الجديدة، والتفوق عليه، لاسيما بكمية ما أحدثوه».

فعندما نقل العرب عن الهنود النظام العشرى[2] وكملوه، بلغوا به درجة جعلتهم يعتبرون بحق مؤسسى علم الحساب. وقد نهضوا بعلم الجبر أيضا إلى مستوى علم دقيق، ووضعوا أساس الهندسة التحليلية، وكانوا أول من تعاطى علم المثلثات الكروية.

وفى مجال الطب يعجز الانسان عن عد ابتكاراتهم لاسيما فى علم الأدوية والأغذية والأدوات الطبية.

وفى علم الفلك توفرت لهم مراقبات جديدة، كما قاموا باختبارات فى علم الكيمياء تكاد تكون من العصور الحديثة، ثم قوموا علم المناظر، ووسعوا أفق الجغرافيا بشكل غير منتظر.

---

(١) «دور العرب فى تطور العلوم الطبيعية»، مجلة اللسان العربى، الرباط، العدد السادس، يناير١٩٦٩، الصفحات ٩٦ - ١٠٥ .

(٢) الصحيح أخذ العرب الرموز التسعة للأرقام وعلامة الصفر عن الهنود ولكنهم - أى العرب - هم الذى ابتكروا النظام العشرى . راجع أعلام الفيزياء فى الإسلام ص ٤٠ هامش ٢ .

هذه هى مآثر باهرة جعلت الثقافة الإسلامية تتولى زعامة الحياة العلمية منذ منتصف القرن الثانى حتى أواخر القرن الخامس الهجرى، وفيها لم تكن اللغة العربية لغة القرآن والتفسير والحديث والفقه فحسب، بل أضحت لغة العلم غير منازعة .

اهتم علماء المسلمين بمؤلفات أرشميدس وهيرون السكندرى اهتماما بالغا، فطوروا نظرياتهما وأفكارهما العلمية المتعلقة بعلم الميكانيكا، ولقد قام المهندس الانجليزى روناك بتحقيق كتاب بديع الزمان الجزرى، العالم المسلم الجليل الذى عاش فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى)، أثبت فيها أن الجزرى كان متمرسا بالهندسة الميكانيكية واستعمال الالات بقدر معرفة المهندسين الميكانيكيين على عصره، وبهذا تبطل دعايات المؤرخين الذين يرمون علماء العرب والمسلمين بأنهم لايتذوقون الأفكار الميكانيكية، ومما يذكر أن علم الحركة ينبغى البحث عنه فى كتب الفلسفة، لا فى كتب العلوم، لأن علماء العرب والمسلمين اعتبروا فكرة الزمان والمكان والحركة كلها أفكارا فلسفية، ومن ثم نلاحظ أن كثيرا من الأفكار الميكانيكية التى عرفها العالم الإنجليزى إسحق نيوتن الذى عاش فيما بين ١٦٤٢ و١٧٢٧ ميلادية والتى نسبت إليه، هى أفكار كان مسلما بها فى الفكر الإسلامى حيث كانت مبنية على منطلقات فلسفية وعلى المشاهدة الواعية والاستنتاج.

ولقد درس الشيخ الرئيس ابن سينا مؤلفات أرسطو طاليس، واهتم بعلم الصوت، وبرهن على أن البصر أسرع من السمع، لأن المرء يحتاج فى السمع إلى تموج الهواء .

وجاء ابن يونس الصدفى المصرى ليدلى بدلوه فى الفيزياء والفلك. وقد لقى ابن يونس تشجيعا من الوالى الفاطمى فى ذلك الوقت، حيث بنى له مرصدا على جبل المقطم بالقرب من القاهرة، رصد فيه ابن يونس -كما سبق أن أشرنا- عام ٣٦٧هـ هجرية (٩٧٨ميلادية) كسوف الشمس وخسوف القمر فى القطر المصرى، واخترع ابن

يونس أيضا «الرقاص» الذى استخدمه لقياس الفترات الزمنية أثناء رصده للنجوم، من ذلك يتضح جليا أن ابن يونس قد سبق جاليليلو الإيطالى (١٥٦٤- ١٦٤٢م) بعدة قرون فى اختراع الرقاص، كما تقدمت الإشارة إليه.

وجدير بالذكر أن علماء العرب والمسلمين قد أولوا الإبرة المغناطيسية اهتماما كبيرا، فخصوها ببيت وسموها «البوصلة» واستفادوا منها فى الملاحة ، وفى هذا الصدد يقول جورج سارتون:

«أن الإبرة المغناطيسية التى تركب فى البوصلة قد اكتشفها أهل الصين ولكنهم استخدموها فى الخزعبلات، وعلى العكس من ذلك استفاد منها المسلمون فى أعمال الملاحة»(١).

لقد وضح دور المسلمين البناء فى العلوم يوم أن كانت أوروبا تغط فى ظلمات العصور الوسطى وإليك المزيد بالإضافة لما سبق .

(١) أعلام الفيزياء فى الإسلام ص ٣٩ ، ٤٠ .

العلم فى القرون الوسطى
لدى الأوروبيين والمسلمين

هذه القرون هى فترة تبلغ ألف سنة من القرن الرابع إلى الخامس عشر فيها وقع العلم الأوروبى فى ظلام حالك من الجهل ونضوب المعارف والعماية درست عندهم معالم العلم وطمست مناره ، وأصبح الناس كما كانوا فى عهد الجاهلية الأولى وذلك بالتأثير المزدوج لغلبة فلسفة أرسطو وسلطة العقائد الدينية فتنازل العلم عن وظيفته للتعصب الذى قام له رجال الدين هناك وكان من يتجرأ على التلفظ بكلمة علم أو نظرية جديدة يجازى بالقتل حرقا باسم مبتدع وقد أحصى عدد من أحرق من العلماء العاملين والمؤلفين المفكرين فى أوروبا لذلك العهد فبلغ نحو ثلاثمائة ألف وخمسين ألفا فلما جاء القرن الخامس عشر كانت النفوس قد حقدت أشد الحقد على رجال الكنيسة الذين أسرفوا فى الانتصار لأصولهم فظهرت البروتستانتية فى جميع الممالك وشجع أهل العلم على المجاهرة بعلومهم ونظرياتهم وسمى هذا الدور بدور النهضة الفكرية لأوروبا[1].

موقف العلم الأوروبى من الدين :

«ومن ثم نشأ العلم الأوروبى معاديا للدين بطبيعته فبذل جهده فى مكافحة أصوله وتوهينها وتم له ذلك حتى خيل للعالم أن دولة المدركات الدينية انقرضت وخلا الجو لدعاة المادة فأصبحت العقائد بالروح والخلود والملأ الأعلى فى عداد المدركات الأثرية التى يروجها الكهنة فى عقول البسطاء لسلب أموالهم وتسخير قواهم. فلما نشأت حركة المباحث النفسية فى القرن التاسع عشر تناولت البحث بنفس الأسلوب العلمى التجريبى

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين مجلد ٦ ص ٥٩٧ .

فتأدت منه إلى نتائج غاية فى الخطورة يرى الفلاسفة أنها المكملة لبناء صرح العلم العظيم والحافظة للفطر الإنسانية من أن تفسدها التعاليم المادية المجتاحة»[1].

العلم بين يدى العرب المسلمين :

قلنا إن أوروبا فى القرون الوسطى وقعت فى ظلام حالك من الجهل فوقف بها تيار العلم، ونضبت موارد الحكمة وبقى الناس فى غيهبة مطلخمة نحوا من ألف سنة، ونقول الآن: إن بلاد المسلمين كانت فى تلك الفترة ملجأ العلم والحكمة، وموطن المدنية والحضارة، فبلغت فيها المعارف والفنون درجة أرفع مما قدر لها فى تلك القرون البعيدة، ولسنا نسمح لأنفسنا بأن نصف ما كانت عليه بلاد المسلمين فى ذلك العهد من النور والحياة الراقية بقلمنا حتى لاننسب إلى التحيز، بل ندع القول لكبار علماء الغرب ومؤرخيه وهم أبعد الناس عن محاباتنا فى هذه الوجهة ليكون القول أوقع فى النفوس:

قال العلامة درابر بجامعة نيويورك الأمريكية فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) فى النسخة الفرنسوية فى طبعتها العاشرة التى ظهرت سنة ١٩٠٠ ما ترجمته:

وبعد وفاة محمدترجمت إلى اللغة العربية أهم المؤلفات اليونانية، وترجمت القصائد اليونانية الشهيرة (كالالياذة) و(الاوديسية) إلى اللغة السريانية ليطلع عليها العلماء دون العامة لما رأوه فيها من الاقاصيص الخرافية عن آلهة اليونانيين مما يخشى منه على عقائدهم، ولما ولى الخلافة أبو جعفر المنصور (من سنة ٧٥٣ إلى ٧٧٥) نقل عاصمة الملك إلى بغداد وجعلها عاصمة فخمة ، فلم يأل جهدا فى بذل الوسع فى درس العلوم الفلكيةوتأسيس مدارس الطب والشريعة، ولما جلس حفيده هرون الرشيد على عرش الملك سنة (٨٧٦) اتبع أثر جده فى هذه الفتوحات العلمية وأمر بإضافة مدرسة لكل مسجد فى جميع أرجاء ملكه، ولكن عصر العلم الزاهر فى القارة الآسيوية لم يشرق

(١) دائرة معارف القرن العشرين مجلد ٦ ص ٦٠٣ .

إلا فى خلافة المأمون الذى تولى الخلافة من سنة (٨١٣ إلى ٨٣٢) فإنه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى وجمع إليها كتبا لا تحصى، وقرب إليه العلماء، وبالغ فى الحفاوة بهم.

هذا المركز الذى اكتسبه العرب وهذا الذوق السليم فى العلم استمر لديهم حتى بعد أن انقسمت المملكة إلى ثلاثة أقسام حتى أن العباسيين فى آسيا ، والفاطميين فى مصر ، والأمويين فى أسبانيا لم يكونوا متناظرين متغايرين على الحكومة فقط بل كانوا كذلك على الآداب والعلوم أيضا.

ذاق العرب فى الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يحد القريحة ويصقل الذهن وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت الأمم كلها مجتمعة أما العلوم فقد كان تفوقهم فيها ناشئا من الأسلوب الذى توخوه فى المباحث وهو أسلوب أخذوه عن فلاسفة اليونان الأوروبيين فإنهم قد تحققوا أن الأسلوب العقلى النظرى لايؤدى إلى التقدم، وأن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الأسلوب التجريبى والدستور العلمى الحسى. وكانوا يعتبرون الهندسة والعلوم الرياضية أدوات ومعدات لعلم المنطق. وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكا والايدروستاتيك (علم موازنة السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) ونظريات الضوء والأبصار بأنهم قد اهتدوا إلى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات. وهذا هو الذى قاد العرب لأن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء والمكتشفين لبضع آلات للتقطير والتصعيد والإسالة (إسالة الجوامد) والتصفية إلخ، وهذا بعينه أيضا هو الذى جعلهم يستعملون فى أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والاسطرلابات (هى آلات لقياس أبعاد الكواكب)، وهو أيضا الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته، وهو أيضا الذى أرشدهم لعمل الجداول عن الأوزان النوعية للاجسام، والازياج

الفلكية : (وهى جداول تعرف منهاحركات الكواكب) مثل التى كانت فى بغداد وقرطبة وسمرقند وهو أيضا الذى أوجب لهم هذا الترقى الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات، وهو أيضا الذى هم بهم لاكتشاف علم الجبر، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية. هذا هو ثمرة تفضيلهم لأسلوب أرسطو الاستدلالى على مقالات افلاطون الاستنتاجية[1].

ويقول العلامة جيبون : «كان أمراء المسلمين فى الاقاليم يناظرون الملوك فى حماية العلم والعلماء وكان من نتيجة تنشيطهم هذا للعلماء أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة التى بين سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة. ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتى ألف دينار لتأسيس كلية علمية فى بغداد ووقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنويا ، وكان عدد الطلبة فيه ستة آلاف لافرق بين الغنى والفقير فكان ابن السيد العظيم وابن الصانع الفقير على السواء وكانوا يكفون التلاميذ الفقراء مؤونة دفع أجر التعليم ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة ، وكانت المؤلفات الجديدة الأدبية تنسخ وتجمع سدا لحاجة أهل العلم وشهوة الأغنياء فى جمع الكتب » انتهى كلام العلامة جيبون . ثم قال درابر:

«وكانت قيادة المدارس مودعة لذ وى المدارك الواسعة فكانت بيد النسطوريين أو اليهود لأن المسلمين لم يكونوا يتحرون عن جنسية العالم وديانته وما كانوا يزنون قدره إلا من أعماله » . ولقد فاه الخليفة الكبير المامون بفكره عن حقيقة العلماء فقال: أن صفوة خليقة الله وأفضل عباده وأنفعهم هم الذين يقفون حياتهم على تربية مواهبم الطبيعية، وأن الذين يعلمون العلم، والحكمة للناس هم مصابيح العالم، ولولاهم لارتكس الخلق فى عماية الجهالة وغياهب البربرية.

وقال الامام الغزالى :

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين مجلد ٦ ص ٦٠٧ - ٦٠٩ .

« فمن علم وعمل ، وعلَّم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السماوات ، فانه كالشمس تضئ لغيرها ، وهى مضيئة فى نفسها ، وكالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب»(1) .

ثم قال درابر.

«وقد اتبعت المدارس الطبية عامة مثال مدرسة الطب فى القاهرة فى اختبار الطلبة قبل اخراجهم نهائيا بحيث لا يستطيع أحدهم أن يشتغل بمهنة التطبيب إلا بهذا الشرط.

و«أول مدرسة أنشئت من هذا الطراز فى أوروبا هى المدرسة التى أسسها العرب فى (سالرن) من إيطاليا، وأول مرصد أقيم فيه هو الذى أقامه المسلمون فى أشبيلية بأسبانيا».

«ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى لخجرنا عن حدود هذا الكتاب فإنهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا، وأوجدوا علوما أخرى لم تكن معروفة من قبلهم».

ثم تكلم المؤلف على براعتهم فى العلوم الرياضية ، وعلى التسهيلات التى ادخلوها عليها على توفقهم فى حساب المثلثات ، والعلوم الفلكية وما ألفوه من الكتب وما سطروه من الجداول والتقاويم.

ثم قال :

«العلماء الفلكيون من العرب اهتموا أيضا بتحسين الات الأرصاد وتهذيبها، وبحساب الأزمنة بالساعات المختلفة الأشكال، والساعات المائيةوالسطوح المدرجة الشمسية، وهم أول من استعمل البندول (الرقاص) لهذا الغرض.

(1) الاحياء : ١ / ٥٥ .

أما فى عالم العلوم التجريبية فقد اكتشفوا الكيمياء وبعضا من محللتها الشهيرة مثل حمض الكبريتيك ، وحمض النتريك ، والكحول (الاسبرتو) واستخدم العرب علم الكيمياء فى الطب لأنهم أول من نشر علم تحضير العلاجات والأقرباذينات واستخراج الجواهر المعدنية. أما فى علم الميكانيكا فإنهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الجسم وكانوا عارفين تمام المعرفة بعلم الحركة. أما فى الايدروستاتيك وهو : علم موازنة السوائل وتقدير الضغط الواقع منها على أوانيها فقد كانوا أول من عمل الجداول المبنية لأنواع الأوزان النوعية وكتبوا أبحاثا على الأجسام السابحة والغائصة تحت الماء. أما فى نظريات الضوء والأبصار فقد غيروا الفرض اليونانى الذى مقتضاه أن الإبصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئى وقالوا بعكس ذلك أى أن الابصار يحصل بوصول الشعاع من المرئي إلى العين ، وكانوا يعرفون نظرية انعكاسات الأشعة، وانكساراتها وقد اكتشف الشكل المنحنى الذى يأخذه الشعاع فى سيره فى الجو، وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة فى الأفق وكذلك فى الغروب نراهما قليلا بعد أن يغيبا .

الزراعة فى حياة العرب .

«إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا بالتقدم الباهر الذى نالته الصنائع فى عصرهم. فقد استفادت منها فنون الزراعة فى أساليب الرى والتسميد وتربية الحيوانات وسن النظامات الزراعية الحكيمة وادخال زراعة الأرز والسكر والبن، وقد انتشرت المعامل والمصانع لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن، وكانوا ينقبون المعادن وكانوا يجرون فى عملها على ما حسنوه وهذبوه من صنعها وسبكها[(١)].

وجاء فى (كتاب تمدن العرب) للدكتور الشهير (جوستاف لوبون) ما نصه :

(١) دائرة معارف القرن العشرين مجلد ٦ ص ٦١١ - ٦١٣ .

«العرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع، فقد أكسبت علومهم لصنائعهم جودة عالية جدا، وأننا وإن كنا لم نزل نجهل أكثر الطرائق التى سلكوها فى ذلك إلا أننا نعرف نتائجها وآثارها . فنعرف مثلا أنهم احتفروا المناجم واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب، وأنهم قد برعوا جدا فى صناعة الصباغة، وأنهم مهروا فى سقى الفولاذ مهارة بعيدة المدى حتى أن صفائح طليطلة أصدق البراهين على ذلك، ونعرف أيضا أنه كان لمنسوجاتهم وأسلحتهم ومدبوغاتهم من الجلود ولورقهم شهرة عامة، وأنهم فى كثير من فنون الصنائع برعوا براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن » .

«ومن بين المكتشفات المعزوة للعرب أشياء ذات شأن كبير كالبارود مثلا وهذه المكتشفات لا يجمل بنا أن نسردها سردا بل علينا أن نهبها شيئا من التفصيل.. إلى أن قال: مما مر يتجلى للقارىء أن ديوان المكتشفات العربية فى العلوم الطبيعية لايقل فى الخطورة والقدر عما كان لهم منها فى العلوم الرياضية والفلكية، ومانسرده عليك هنا يبرهن لك عن تلك الخطورة وذلك انه كانت لهم معلومات عالية فى الطبيعة النظرية خصوصا فى نظريات الضوء والابصار ، وقد حفظ عنهم اختراعهم لأجهزة ميكانيكية من أدق ما يعرف من نوعها، واكتشافهم للجواهر التى تعد من أعظم أركان علم الكيمياء مثل الكحول وحمض النيتريك وحمض الكبريتيك وقد سجلت لهم أكبر الأعمال الأساسية مثل التقطير مثلا ، وأثر عنهم استخدام الكيمياء لفن الصيدلة»[1].

هذا بعض ما كتبه علماء أوروبا عن اشتغال آبائنا بالعلوم الكونية والفلسفية التى لها الفضل الأول على مدنية أوروبا ورقيها المادى والعلمى . هذه جهود الآباء ، وتلك آثارهم فهل يتأملها الأحفاد ببصيرة متأملة ؟.

---

(١) نقلا عن دائرة معارف القرن العشرين مجلد ٦ ص ٦١٤ .

حقائق يغفل عنها الغافلون

يزعم الزاعمون أن العلم فى الاسلام لا يتعدى أمور الفقه فى مجال العبادات والفرائض دون غيرها من شؤون الحياة!

ونحب أن نضع بين أيدى الغافلين عن فكر الثقافة الإسلامية آية كريمة تتحدث عن العلم والعلماء فى مجال غير الذى يزعمون:

يقول الحق تبارك وتعالى:

«ألمْ ترَ أنَّ اللّه أنزلَ من السماءِ ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى اللّه من عباده العلماء إن اللّه عزيز غفور »[1].

إنها إثارة للعقل البشرى الواعى وللإنسان السوى من ذوى الألباب أن يتفكر فيما حوله ليرى:

عالم النبات: ممثلا فى الماء الذى ينزل من السماء ليتفجر أنهاراً وينابيع وينبت الزرع والثمرات فى أنواع كثيرة وأشكال متباينة وألوان مختلفة ورائحة وطعم يختلفان من فاكهة الى أخرى ومن ثمر الى آخر، وكأن الآية إثارة للعقل الانسانى أن يرود عالم النبات ليلقى العجب العجاب..

عالم الجمادات: ومظاهر الكون من جبال وتربة وسهول وأودية تختلف باختلاف البيئة والمكان والطبقة والزمان، وكأنما الآية تحرك الانسان الباحث حوله وفى دنياه أن يرتاد التربة وطبقات الأرض بعلم وبحث ومعرفة وتجارب.

---

(١) فاطر : ٢٧، ٢٨.

عالم الانسان: بكل مافيه من اختلاف فى البشرة والألسن والطباع وتكوين الجسد والأجهزة العديدة من دموية وغذائية وهوائية وأعضاء يؤدى كل دوره وفق ما وضعه له الخالق وما أبدعه من أجله فى الوقت المناسب والمكان المناسب.. بالإضافة إلى طباع النفس البشرية بين شدة ولين وغضب ورضى وحزن وفرح وقلق واستقرار.. وكأن الآية تثير فى الانسان رغبة البحث عن المجهول بل تدفعه الى ذلك دفعاً فى ثنايا الجسد البشرى وفى أعماق النفس الانسانية.

عالم الحيوان: الشاسع الواسع فى أجواز الفضاء وأعماق البحار وكهوف الأرض وغاباتها من ثدييات وزواحف وذوات أربع وطيور وأسماك وديدان وحشرات.. والواعى لعمق النص يدرك اللمسات التى تحرك العقل الانسانى برفق أن يدرس عالم الحيوان وأن يجعله جزءاً من عالم التجارب ودنيا الأبحاث.

وبعد ذلك كله.. بعد الحديث عن عالم الانسان والحيوان والجمادات والنبات فى صورة من الإيجاز الربانى والعمق القرآنى لا يقدر الانسان على مثله ولا يرقى مرتقاه.. يأتى ختام الآية: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» لأن الذى يدرك عظمة الله وبديع صنعه فى دنيا الانسان والحيوان والكون كله ويعلم بعمق قدرة هذا الصانع إنما يخضع لربوبيته ويدين له بالعبودية والولاء.. دون غيره من سائر المتعاظمين المتجبرين من خلق الله.

ومن المعلوم أن العلماء المسلمين ورجال الفكر منهم لم يقصدوا «بالعلم» ما يظنه البعض من أن كلمة العلم فى الاسلام لا تعنى إلا العمل والبحث فى مسائل الفقه ذات العلاقة بالعبادات، وهم لذلك يفهمون الدين الفهم الكهنوتى فى الغرب فى كلمة Religion (1) وإن نموذجاً نسوقه من آراء العلماء المسلمين ممثلا فى قول الامام الغزالى

(1) يوسف العظم : المنهزمون : دراسة للفكر المتخلف والحضارة المنهارة ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

يؤكد عمق الدلالة التى يشير لها القرآن فى مواضع متعددة ويفصلها الحديث فى أكثر من مجال عن العلم والعلماء وقيمة ذلك فى الاسلام بالمفهوم الأوسع والدلالة الأشمل قال الإمام الغزالى :

« والعلوم بالاضافة الى الفرض الذى نحن بصدده تنقسم الى شرعية وغير شرعية، وأعنى بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة. فالعلوم التى ليست بشرعية تنقسم الى ماهو محمود والى ماهو مذموم والى ماهو مباح. فالمحمود ما ترتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم الى ما هو فرض كفاية والى ما هو فضيلة وليس بفريضة.

أما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا كالطب، إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان. وكالحساب فإنه ضرورى فى المعاملات ، وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما.

وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد ممن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين فلا يتعجب من قولنا ان الطب والحساب من فروض الكفايات، فان أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك. فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد الى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله. وأما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق فى دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك »(١) .

ومن ثم.. وبعد الذى أشرنا إليه إشارة عابرة حول النشاط العلمى فى الاسلام والدعوة إليه والحث عليه وشرح معناه ومفهومه فى ميادينه الواسعة المتعددة أين يذهب

(١) إحياء علوم الدين: الامام الغزالى – باب العلم.

زعم الزاعمين بأن العلم فى الإسلام لا يعنى إلا أمور العبادة والتفقه فى الدين.. ويحصرون هنا كلمة «الدين» فى نطاق مفاهيم الكهنوت ومصطلحات الكنيسة؟! [1] .

الزعم الباطل:

هناك من يزعم بأن الدين فى تقهقر أمام زحف العلم ، وخلق الجو المعادى للعلم فى ظلال الدين مستمداً من الوثنية الجاهلية أو المسيحية الأوروبية المحرفة، أمر لا يجوز التسليم به أو السكوت عليه..

لقد عقدت روسيا مؤتمراً خاصاً فى شباط ١٩٦٤ موضوعه (التربية الإلحادية)[2] فى أواسط آسيا حيث يشكل المسلمون كثرة عددية غزيرة ومن أبحاث ذلك المؤتمر «التجديد الاسلامى خارج الاتحاد السوفيتى » و«الأيدولوجية الاسلامية».. وقد جاء هذا المؤتمر الخاص بعد موتمر عام سابق تقرر فيه أن عدد «المؤمنين» فى روسيا لا يزال كبيراً جداً رغم حملات الدعاية المتسمرة ضد الدين.. وقد تقرر إنشاء معهد تربوى «للإلحاد المدعوم بالأدلة العلمية» وإدخال دروس إلزامية عن الإلحاد فى مناهج الجامعات وغيرها من معاهد الدراسة، وأكد المؤتمرون وجوب مضاعفة استخدام الأفلام والنوادى والمحاضرات المعادية للدين.

وهل صحيح أن الخرافة كل الخرافة.. والوثنية كل الوثنية.. فى الهند وأفريقيا واليابان قد ولّت الأدبار؟

أم أن هناك من الآراء ما يلزم الحكومات أحياناً أن تخضع ومن المعتقدات ما يفرض على المؤسسات السياسية منهاجاً خاصا لا تحيد عنه؟

---

(١) المنهزمون : دراسة للفكر المتخلف والحضارة المنهارة ، ص ٢٣٨ .

(٢) جريدة برافدا الناطقة بلسان الحزب الشيوعى الروسى عدد ٥ شباط ١٩٦٤م.

وهل صحيح أن الدين فى أوروبا قد انهزم؟ رغم العلمانية القائمة المتنفذة - أم أن أحزاباً مسيحية تحكم ورجالا سياسيين ينادون بشعارات الإنجيل والكنيسة ويسوع المخلّص؟..

لو كانت الهزيمة ذاتية فى بنية الدين نفسه كما يزعم الزاعمون لكفوا أنفسهم مؤونة التعذيب الذى يصبونه على المؤمنين حرب إبادة وإفناء ولأظهروا أنفسهم على الأقل بمظهر الظافرين فكرياً بلا الات تعذيب، المنتصرين ديمقراطياً بلا وسائل إرهاب.

لقد ثبت دعاة الاسلام لذلك كله وصبر المؤمنون أمام زحف العلمانية الظافر المزعوم - والعلمانية هنا مرادفة للإلحاد لا للعلم ورغم ما ذاقه دعاة الاسلام العاملون على إعلاء كلمة الله، ورغم ما حل بهم من كوارث ظل الاسلام قمة القمم ودعاته سادة الموقف مهما تنكر الأهل وقسا العدو وغض الصديق الطرف عما يرى ويسمع.

إن كلمة الشهيد المؤمن ستظل تصفع كل أدعياء الهزيمة فى نفوسهم وأمتهم وديارهم المنكوبة: «إذا كنت سجيناً بحق فأنا أرضى حكم الحق، وإذا كنت سجيناً بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل » .

إن محاولات كثيرة تجرى فى أرضنا المحتلة على أيدى «يهود» لتزور العلاقة بين الايمان والعلم فى التوراة.. وتزيف الدعوة الى الحضارة والمدنية باسم التلمود إيماناً من القائمين على الأمر من المحتلين للديار، المدنسين للمقدسات، بأن الدين فى النفس البشرية أثراً عميقاً لا يستغنى عنه بحال من الأحوال.. ومن هنا فهم يحاولون التوفيق زوراً وبهتاناً بين ما يؤمنون به وما يصنعون، فى الوقت الذى يعمل فيه المنافقون عندنا لتحطيم الأواصر القائمة فى ديننا بين العلم والايمان وتمزيق الصلات التى تربط فى عقيدتنا بين الدين والحضارة لتقع الكارثة ويكون الخسران المبين..

هذه هى الصورة المهزوزة الملطخة التى يريدها المنافقون بأن تتخلى الأمة كلها عن مواقعها فى الريادة وأن تكفر بها، وأن تبدل الثلة المؤمنة الصالحة ثباتها هزيمة، وأن

تلقى بسلاحها الايمانى وعدتها العلمية وتراثها الحضارى، ثم تمضى فى صفار الأمة المغلوبة الخاسرة التى تمدّ يدها راعشة هزيلة لكل سيد مستغل وفكر مستورد تصدره لنا مصانع الغرب والشرق على السواء.. حيناً تقذف به فى وجوهنا لندن وواشنطن.. وطوراً تصبه فوق رؤوسنا موسكو أو بكين!..

إن الذين لم يعيشوا ولو لحظات بتجرد وإنصاف فى سيرة الرسول الأعظم ﷺ ولم يعرفوا شيئاً عن أصحابه عقيدة وعقلا وخلقاً وسلوكاً، ولم يسمعوا عن عمر غير قصة العجوز وصغارها الجياع - وإن كانت من القصص الشوامخ ذوات الدلالة الانسانية السامقة - ولم يدركوا عن على وخالد ومصعب وسعد وأبى عبيدة أكثر مما لقنوا بأنهم قوم ركبوا إبلاً وخيلاً ليحاربوا الشعوب ويفتحوا البلدان. إن الذين لم يقرأوا كتاباً لابن سينا أو بحثاً لابن حيان أو رأياً فقهياً لأحد الأئمة أو لم يطلعوا على قول للغزالى ، وفكرة للماوردى ونظرية لابن خلدون عار عليهم أن يقرأوا كل شىء عن لينين وأن يحفظوا كل أفكار ماو أو يبحثوا فى تفاصيل حياة جيفارا أو يخوضوا فى سراديب التفسخ الوجودى والحقد الماركسى وجنون اللامعقول..

إنهم ليسوا منا ولكنهم أجساد هائمة فى دنيانا هابطة عن قيمنا تباهى بعقول غريبة ومبدأ مستور وفكر لقيط!!

إن الجامعات العربية والاسلامية والمؤسسات الثقافية والفكرية مدعوة (أن تحترم نفسها وتؤمن بذاتها وأن تنفض عنها غبار الإذلال وتنزع عنها مسوح التبعية والاستجداء الفكرى الدخيل فتقرر فى كل كلياتها ومع جميع تخصصاتها مادة الفكر الإيمانى والثقافة الاسلامية.. ولا نعنى بذلك الخلافات المذهبية والغزاوت الحربية وحدها ونهمل بعد ذلك العديد من جوانب الإشراق الفكرى النير والحضارة الاسلامية البانية تمهيداً لقيام جامعة عربية أو إسلامية تحترم نفسها وتعود الى تراثها فتقيم كليات الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء والرياضيات والسياسة والاقتصاد والفلسفة والآداب فى أفياء المحاريب وظلال القرآن.

وعندها لا نسمع الضلالات المستوردة هذيانا يدور على ألسنة الشباب وفى عقولهم:

لا علم مع الدين..

لا حكم مع الدين..

لا حضارة مع الدين..

لأن الدين حين يفهم على حقيقته داعية «للعلم ونظام» للحكم وصانع للحضارة[1] والثقافة.

فهل نسمع قريباً برشد أصحاب الملايين ونبصر هداهم عين اليقين وهم يقيمون الجامعات والمختبرات والمصانع فى طاعة الله وأفياء الدين، أم أنهم ينتظرون هبوب رياح الحقد الأحمر والاستعمار البغيض والصهيونية الحاقدة فلا تبقى ولا تذر.. ويومئذ فقط يدركون عمق الدلالة ودقة المفهوم لقول الله جل وعلا ويدركهم فى الدنيا والآخرة ما يدرك الكافرين الذين قال فيهم رب العزة:

« إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون . والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض، فيركمه جميعاً، فيجعله فى جهنم، أولئك هم الخاسرون[2] ».

---

(١) راجع ليوسف العظم: المنهزمون : دراسة للفكر المتخلف والحضارة المنهارة ص ٢٠٩-٢١٤ بتصرف وأختصار.

(٢) الأنفال: ٣٦، ٣٧.

الطب والعلوم بعد ظهور الإسلام

لما ظهر محمد ﷺ كان ظهوره رحمة للعالمين ، ولاسعاد الإنسان ، والإنسانية جمعاء ، كان طبيبه : الحارث بن كلدة ، وكان أكثر اهتمامه بعلم حفظ الصحة ، فأوصى بالحجامة ، والحقن ، وعدم الاستحمام بعد تناول الطعام .

كان الحارث بن كَلَدة من الطائف تعلم الطب في مدرسة (جنديسابور) من أعمال بلاد فارس ، وتمرن هناك ، وعرف الداء والدواء ، وشهد أهل فارس بعلمه ، واشتهر طبه بين العرب ، وكان الرسول ﷺ يوصى بالتطبيب عنده ، وكان للحارث هذا معالجات كثيرة ، ومعرفة بما كانت العرب تعتاده ، وتحتاج إليه من المداواة ، وله كلام مستحسن فيما يتعلق بالطب وحفظ الصحة [١] .

محاورة بين الحارث بن كلدة ، وكسرى أنُو شروان :

لما وفد الحارث .. على (كسرى...) أذن له بالدخول عليه ، لما وقف بين يديه منتصبا قال له :

ماصناعتك ؟ قال : الطب ، قال : أأعرابى أنت ؟ قال : نعم من صميمها ويحبوحة دارها .

قال : ماتصنع العرب بطبيب مع جهلها وسوء أغذيتها ؟

قال : أيها الملك ، إذا كانت هذه صفتهم ، كانت أحوج الى من يصلح جهلها ، ويقيم عوجها ، ويسوس أبدانها ، ويعدل أمشاجها ، فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه ، ويميز موضوع دائه ، ويحترز عن الأدواء كلها بحسن سياسته لنفسه .

---

(١) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٣٣ .

قال : فاستوى كسرى جالسا ، وجرى ماء رياضة الحلم فى وجهه ، ولما سمع من محكم كلامه ، أمره بالجلوس ، فجلس .

فقال : كيف بصرك بالطب ؟ قال : ناهيك .

قال : فما أصل الطب ؟ قال : الأزم ، وهو ضبط الشفتين ، والرفق باليدين ، قال: أصبت ، قال فماهو الداء الدوى ؟ قال : إدخال الطعام على الطعام ، هو الذى يفنى البرية ، ويهلك السباع فى جوف البرية .

قال : أصبت ، قال : فما الجمرة التى تصطلم فيها الأدواء ؟

قال : هى التخمة ، إن بقيت فى الجوف ثقلت ، وإن تحللت أسقمت .

قال : صدقت ، قال : فما تقول فى الحجامة ؟ قال : فى نقصان الهلال فى يوم صحو ، لا غيم فيه والنفس طيبة ، والعرق ساكنة ، لسرور يفاجئك وهم يباعدك

قال : فما تقول فى دخول الحمام ؟ قال : لا تدخله شبعانا ، ولاتغش أهلك سكرانا ، ولاتقم بالليل عريانا ، ولاتقعد على الطعام غضبانا وارفق بنفسك يكن أرخى لبالك ، وقلل من طعامك يكن أهنأ لنومك قال : فما تقول فى الدواء ؟

قال : مالزمتك الصحة فاجتنبه ، فإن هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ، فإن البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت ، وان تركتها خربت .

قال : فما تقول فى الشراب ؟

قال : أطيبه أهنؤه ، وأرقه أمرؤه ، وأعذبه أشهاه ، لاتشربه صرفا فيورثك صداعا ، ويثير عليك فى الأدواء أنواعا .

قال : فأى اللحمات أفضل ؟ قال : الضأن الفتىّ ، والقديد المالح مهلك للآكل ، واجتنب لحم الجزور والبقر

قال فما تقول فى الفواكه ؟

قال : كلها فى إقبالها ، وحين أوانها ، واتركها إذا أدبرت وولت وانقضى زمانها .

قال : فما تقول فى شرب الماء ؟ قال : هو حياة البدن ، وبه قوامه ينفع ماشرب منه بقدر ، وشربه بعد النوم ضرر ، أفضله وأرقه أصفاه .

قال أفتامر بالحقنة : قال نعم ، قرأت فى بعض كتب الحكماء : أن الحقنة تنقى الجوف ، وتكسح الأدواء عنه ،

وإن الجهل كل الجهل ان يأكل الإنسان ماعرف مضرّته ، ويؤثر شهوته على راحة بدنه .

قال : فما الحمية ؟ قال : الاقتصاد فى كل شئ ، فإن الأكل فوق المقدار ، يضيق على الروح ساحتها ، ويسد مسامها [1].

أرأيت ذكاء هذا العربى ؟ الذى لم يدخل مدرسة ، أو جامعة ؟ كيف حاور ملك الفرس ، بكلمات حكيمة تفجرت من ينبوع فياض بعلوم الطب المختلفة ، ومعرفة الداء ، وتشخيص الدواء مما يدل على معرفة العرب بعلم الطب .

بين غاية الإسلام ، وهدف العلم [2] :

يهدف الإسلام والعلم الى سعادة الإنسان عن طريق كشف أسرار الله فى الكون، التى أودعها الله سبحانه فى الكائنات ، ويمثل المعتقد الدينى القوة المحركة (الدافعة) بينما يمثل العلم عنصر الإرادة والمنطلق الإسلام رسالة (علمية - تربوية) :

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) أى العلم التجريبى ، وهو ناحية تأملية ، يراها الناظر المدقق كأنها نزعة من نزعات الدين ، مُمَهدة له - وباعثة عليه ، وذلك حينما يدفع العالم عقله إلى البحث الدائب ، لاستطلاع ماوراء تجاربه (العلمية - التطبيقية) من أسرار ونواميس ، تعلو على متناول الحس المباشر ، ويفعل ذلك بقصد الوصول الى اليقين العلمى ، والألفة العقلية التى تربط بين الأسباب ومسبباتها أى (قانون السببية) راجع أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ٢٢١.

رسالة الرحمة ، والسعادة للإنسان والإنسانية ، إنها شريعة الله ، ومنهاجه فى الحياة ، ارتضاه الله لعبادة المؤمنين ، ليكونوا خلفاء فى أرضه ، يمثلن بسلوكهم حكمة الله سبحانه ورحمته وعدالته ، حين يفقهون عن الله تعالى دعوته ، ويلبون نداءه ، ويعملون بطاعته .

الإسلام تعريف بالخالق العظيم وتوجيه تربوى نحو صراطة المستقيم ، نحو قانونه فى الحياة وسنته فى الوجود ، لقد أراد الله سبحانه الحياه لنا حركة كريمة إخاء وتعاونا وتنافسا شريفا فى سبيل الحياة الأفضل ، وجعل الثقة والإيمان به ، والاعتصام بهديه سبحانه ، نورا هاديا الى السعادة لمن اتبع رضوان الله .

غاية الإسلام من تربية الإنسان المؤمن (على حب الله ونفع الآخرين) وتنظيم العلاقات الاجتماعية على ذى الحكمة والرحمة والعادلة .

غاية الإسلام ان تكون كلمه الله (منهاجه فى الحياة) هى العليا ، رائدة موجهة ، ضابطة للسلوك ، تضمن تالف القلوب ، ووحدة الرأى والهدف وشمول الرحمة والسعادة ، تمثل القوة المحركة للحضارة الإنسانية ، والثقافة الإسلامية ، ترقى بالحياة نحو التطور والازدهار والتكامل[1] .

أما الحديث عن العلوم والطب ، فإليك أثارنا التى تدل علينا .

(١) المرجع نفسه ص ٢٢٣ هامش : ٢

تلك آثارنا تدل علينا

كان لدى العرب معرفة بالنجوم، والرياضيات، ومداواة الأمراض - وهى الميادين الثلاثة التى برع فيه العرب فيما بعد - كانت أقوالا مأثورة وصلت إليهم من طريق الرواية الشفهية.

واهتمام العرب بالنبات والحيوان حملتهم عليه حاجتهم إلى الطعام ثم قادتهم تلك الحاجة فى النهاية إلى دراسة علم الحياة. ثم أن علم الحياة بدوره حملهم على دراسة الطب. غير أن تلك المعارف الطبية والقائمة على الروايات كانت، فى بلاد العرب قبل الإسلام. إن الشعر والنثر اللذين وصلا إلينا من الجاهلية وصدر الإسلام يتضمنان إشارات إلى استخدام الحشائش والبذور للتداوى. كما أن الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام هى التي أدت إلى هذا الاحتكاك الحيوى للعرب بالتراث الثقافى النفيس الذى خلفه اليونان والسريان والفرس والمصريون القدماء. لقد كان فى الطب وفى غيره من العلوم- فى الفلسفة وفى الفن وفى العمارة- أوجه كثيرة.

ومن أفضالهم (على العلم)، أنهم أدركوا هذه الحقيقة ثم شجعوا كل جماعة من رعاياهم على أن تحافظ على تراثهم القومى وعلى أن توسعه ما دام هذا التراث ليس مخالفا للإسلام.

وإليك نماذج من علماء الإسلام ومؤلفاتهم :

مكانة الخوارزمى العلمية :

إن كوكبة العلماء التى لمعت فى سماء الإسلام كان يتقدمها رجل بغدادى الدار فارسى الأصل، وكان اختصاصه فى الرياضيات والفلك. ذلكم الرجل كان محمد بن موسى الخوارزمى، وهو الذى اشتقت من اسمه الكلمة اللاتينية «الغورزموس» ثم انتشرت فى اللغات الأجنبية المختلفة بمعنى الحساب أو علم الحسبان بالأرقام التسعة والصفر. وأقدم من ترجم للخوارزمى و(أورد تاريخ حياته) كان (أبا الفرج محمد بن

إسحاق الوراق) البغدادى المعروف بابن النديم، فى كتابه «الفهرست» والذى نعرفه اليوم عن الخوارزمى أنه بلغ أشده بين عام ٨١٣ (٢٠٤هـ) وعام ٨٤٦ للميلاد (٢٣٢هـ) حينما قضى جانبا من هذه الفترة فى بيت الحكمة الذى أسسه المأمون والذى كان مركزا من المراكز النادرة فى الإسلام، تلك المراكز التى تحتوى على وسائل كثيرة لتسهيل وضع التآليف المبتكرة (فى العلم). ومن الغريب أن ابن النديم يورد أسماء كتب للخوارزمى تتعلق بالأصطرلاب والساعة الشمسية والتاريخ -وكلها قد ضاعت- ولكنه يغفل عن ذكر كتابه فى «الجبر والمقابلة»، ذلك الكتاب الذى جعل للخوارزمى شهرة عالمية.

ومن نتاج الخوارزمى فى علم الفلك: كتاب الزيج[1] الأول وكتاب الزيج الثانى وقد بناهما الخوارزمى على مصادر هندية (فى المعارف الفلكية). وبعد قرن ونصف قرن اختصر مسلمة بن أحمد المجريطى (ت ٣٩٨هـ = ١٠٠٧م) وكان من كبار علماء الرياضيات والفلك فى الأندلس - زيج الخوارزمى . ثم، بعد قرن ونصف قرن آخرين، نقل زيج الخوارزمى إلى اللغة اللاتينية، نقله-عام ١١٢٦م (٥٥٧هـ)- العالم الانكليزى أديلارد الباتى. وهكذا أصبح زيج الخوارزمى أساسا لتصانيف كثيرة فى الفلك فى الشرق والغرب معا. وبعد مدة يسيرة حل زيج الخوارزمى، فى علم الفلك، محل الكتب اليونانية (ككتاب بطليموس) والكتب الهندية (ككتاب السندهند) وأصبح أساسا لبحوث علماء الفلك فى بقاع واسعة من الأرض ما بين انجلترة والصين. ومع أن كلمة جَيْب (فى علم الأنساب أو المثلثات كلمة هندية: جيفا) فإن علماء الغرب أخذوها عن العرب فجعلها المؤلفون باللغة اللاتينية sinus (بمعنى الفجوة فى الأرض أو فوهة النهر أو فرضة البحر لمحل رسو السفن ، أى الخليج، نقلا أو ترجمة حرفية ظاهرة الشبه بلفظة «جَيْب» العربية). وتبنى الفرنسيون والألمان الكلمة اللاتينية نفسها sinus، وجعلها الانكليز

---

(١) الزيج : كل كتاب يتضمن جداول فلكية يعرف منها سير النجوم، ويستخرج بواسطتها التقويم سنة سنة. المعجم الوسيط مادة الزيج.

ساين sine، ثم أخذ منها أهل اللغات الغربية الباقية صيغا متقاربة .

ومن تصانيف الخوارزمي كتاب «صورة الأرض من المدن والجبال والبحار والجزائر والأنهار»، هذا الكتاب في الحقيقة جدول بمواقع الأماكن على الخارطة؛ وفيه عدد من الخرط، وقد صنع الخوارزمي هذا الكتاب بالاشتراك مع ستة وتسعين من العلماء بإشارة من الخليفة المأمون، وكان هذا الكتاب الأول من نوعه في اللغة العربية، وقد اعتمد الخوارزمي في إعداد هذا الكتاب على كتاب الجغرافية لبطليموس القلوذي بعد أن نقحه ووسعه، وكذلك قام علماء الفلك في زمن المأمون وفي بادية الشام، بعمل من أدق الأعمال المتعلقة بمساحة الأرض ، بقياس درجة من انحناء سطح الأرض، وكان هدف علماء الفلك استخراج حجم الأرض ومقدار محيطها، وهذا يستند بلا ريب إلى الافتراض بأن الأرض كروية، وقد انكشفت هذه المحاولة عن أن الدرجة من انحناء الأرض تبلغ ستة وخمسين ميلا وثلثي الميل العربي (الهاشمي)؛ وهذا يزيد على طولها الحقيقي ٢٨٧٧ قدما فقط.

ويرجع الفضل – بعد الله سبحانه– إلى المأمون في بناء أول مرصد في بلاد الإسلام، ولقد بني عدد من المراصد فيما بعد في فارس والشام (والعراق) ومصر. أما الأدوات الفلكية في تلك المراصد –كالاسطرلاب وذات الربع (أداة هي ربع دائرة لقياس زاوية ارتفاع الاجرام السماوية) وذات الحلق (أداة على شكل نصف كرة في مركزها كرة تمثل الأرض وعلى سطحها الداخلي سبع حلقات دائرة عليه تمثل مواقع الأفلاك الرئيسة في السماء –كفلك الشمس والقمر إلخ)؛ فقد كانت كلها بطبيعة الحال بدائية جدا (بالإضافة إلى ما أصبحت عليه الآلات والأدوات الفلكية فيما بعد)، ويقال إن إبراهيم (بن حبيب) الفزاري منجم المأمون كان أول من صنع اصطرلابا عربيا.

إن محمد بن موسى الخوارزمي الرياضي والفلكي كان مخالفا في الاتجاه للعلماء والفلاسفة والرياضيين الذين جاءوا بعده في أنه استند في بحوثه إلى المصادر الهندية أكثر من استناده إلى المصادر اليونانية، ذلك لأن نقل الكتب اليونانية إلى اللغة العربية

كان لايزال فى دور الطفولة، ومصدر الخوارزمى فى البحث كان على حصر تلك المعارف الرياضية والفلكية التى كان قد جاء بها عالم هندى متطوف - فى عام ٧٧١ للميلاد (١٥٦هـ) - إلى بلاط المنصور ثم نقلت (بإشراف إبراهيم الفزارى) إلى اللغة العربية باسم «السند هند».

وكتاب الخوارزمى فى الحساب - وهو فيما يبدو أقدم الكتب العربية فى موضوعه، أو هو على الأقل أقدم الكتب التى حلت مسائل الحساب باستخدام ما يسميه العرب «الأرقام الهندية» - قد وصل إلينا فى نقل لاتينى (ترجمة لاتينية). أما فى الأصل العربى فكان اسمه «كتاب الجمع والتفريق» (الجمع والطرح بالأرقام الهندية). والخوارزمى هو الذى (وضع نظام الترقيم) فى كتابه هذا، ومن هذا الكتاب انتشر تدوين الاعداد بالأرقام فى الشرق والغرب. وكان الخوارزمى قد أخذ الأرقام [لا التدوين بالأرقام] عن الهنود الذين طوروا تلك الأرقام. وكان فى الأرقام رمز للصفر[1]- استخدام الصفر على الوجه الذى نستخدمه نحن الآن فى المسائل الحسابية من ابتكار العرب أو من ابتكار الخوارزمى على وجه التخصيص. ومن المؤلفات اللاتينية «كارمن دى ألغورزموس من تأليف الكسندر دى فيلا دائى- نحو عام ١٢٢٠ للميلاد (٦١٧هـ)- نحو عام ١٢٥٠ للميلاد (٦٤٨هـ) - وهما يحملان عنوانين مشتقين من اسم العالم العربى محمد بن موسى الخوارزمى.

والخوارزمى ليس أبا علم الحساب فقط، بل هو أيضا أبو علم الجبر . أن كتابه «كتاب الجبر والمقابلة» قد فرق بين الجبر والحساب وجعل الجبر علما مستقلا منظما ثم حمله إلى المسلمين والنصارى والأصل العربى لهذا الكتاب قد وصل إلينا فى نسخة

(١) ومعنى الصفر: الخالى عند الحسابيين، وهو رقم يدل على الرتبة الخالية من الكمية، ودرجة الصفر نقطة البدء تقدر بعدها الدرجات المعجم الوسيط مادة : صفر .

فريدة كتبت بعد موت المؤلف بخمسة قرون ولا تزال محفوظة فى مكتبة جامعة أوكسفورد. فى هذه النسخة نجد المؤلف يستخدم نظام الترقيم أيضا. أن الصيغة اللاتينية «ألغورزموس» قد أصبحت تعنى أيضا «الأرقام العربية». ونجد هذه الكلمة أكثر تشويها: «أوغريم» فى كتاب ألفه تشوسر بالانجليزية عنوانه: مقالة فى الاصطرلاب[1] .

سبب تأليف كتاب الجبر والمقابلة:

وأول نقل (ترجمة) لهذا الكتاب قام به روبرت الشستري (فى مدينة سقوبية فى الاندلس) فى العام ١١٤٥ للميلاد (٥٣٩ - ٥٤٠هـ) ثم نقلها شيخ النقلة الذين كانوا فى جامعة طليطلة فى الأندلس جررنو ديكريمونا - المتوفى فى إيطالية عام ١١٨٧ للميلاد (٥٨٣هـ)-. وسرعان ما أصبح كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمى الكتاب المعتمد فى هذا الميدان. ويذكر المؤلف فى مقدمة كتابه سبب تصنيف هذا الكتاب فيقول: «وقد شجعنى الإمام المامون أمير المؤمنين... على إيضاح ما كان مستبهما وتسهيل ما كان مستوعرا (و) على أن ألفت من حساب الجبر والمقابلة كتابا مختصرا حاويا للطيف الحساب وجليله لما يلزم الناس من الحاجة إليه فى مواريثهم ووصاياهم وفى مقاسمتهم وأحكامهم وتجاراتهم وفى جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين [2] ....». ومن الذين تاثروا بجهود الخوارزمى وتحسن الإشارة إليهم، ليونارنو فيبوناتشى الذى كان من مدينة بيزا (فى إيطالية) والمتوفى عام ١٢٤٠ للميلاد (٦٣٨- ٦٣٩هـ)، وهو من الذين زاروا الشرق الأدنى. ثم تحسن الإشارة أيضا إلى المعلم يعقوب الفلورانسى الذى كانت مقالته فى الحساب - عام ١٣٠٧ للميلاد (٧٠٦ - ٧٠٧هـ) تحتوى على ستة أبواب من

---

(١) راجع د. فيليب حتى : الإسلام منهج حياة ص ٢٠٨ - ٢١٤ بتصرف واختصار ، وأثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية ص ١٥٣ ، وأثر الثقافة الإسلامية فى تكوين الإنسانية ص ١١٧ هامش ١ .

(٢) نقلا عن الإسلام منهج حياة ص ٢١٥

المعادلات من الدرجة الثانية موجودة فى كتاب الخوارزمى. وكذلك تحسن الإشارة إلى عمر الخيام - المتوفى عام ١١٢١ للميلاد - ٥١٥هـ) والذى اشتهر فى الغرب برباعياته فى الخمر والغزل أكثر ما اشتهر بجهوده فى الفلك والرياضيات.

هبة العرب للأوروبيين :

وأبطأ الأوروبيون كثيرا حتى أدركوا قيمة الهبة العربية: «التدوين بالأرقام». وجادل بعضهم فى منفعة هذا النظام الجديد فقال: إنه نظام يعير نفسه بسهولة للتزوير بالغش وخصوصا فى إمساك الدفاتر (سجلات الحسابات). ولم يستطع (الأوروبيون) قبل القرن السادس عشر للميلاد (العاشر للهجرة) أن يدركوا مدى ذلك الأفق الفسيح الذى رفعت الحجاب عنه تلك الوسيلة الجديدة (التدوين بالأرقام). إن استخدام تلك الأرقام العربية هو الذى جعل التقدم الحديث فى علم الحساب ممكنا. أما فيما يتعلق بالصفر، فإن الخدمة التى قام بها وحيدة فى بابها: أنها تساعدنا على أن نحفظ لمراتب الأعداد قيمتها فى سلسلة مقاديرها (الآحاد، العشرات، المئات، الألوف، إلخ) حينما لا تكون هذه المرتبة ممثلة بعدد من الأعداد التسعة ، أن العدد اثنين وعشرين (٢٢) يمكن أن يصبح مائتين واثنين (٢٠٢) أو ألفين واثنين (٢٠٠٢) بوسيلة يسيرة هى أن نفرق بين ذينك الرقمين بصفر أو بصفرين، بينما لو كنا ندون هذه الأعداد نفسها (٢٢، ٢٠٢، ٢٠٠٢) بالأرقام الرومانية لاقتضانا ذلك تبديلا أساسيا فى التدوين[1].

دور البتانى :

ثم أن الذين جاءوا بعد الخوارزمى فى بغداد (العراق) وفى الرقة (الشام) وفى نيسابور (فارس) قد ساروا فى دراساتهم المنظمة للاجرام السماوية شوطا جديدا وأغنوا معارف الإنسان فى الرياضيات . كان أحد هؤلاء أبو عبدالله محمد بن جابر

(١) المرجع نفسه ص ٢١٦ ، وانظر أثر الثقافة الإسلامية فى تكوين الإنسانية ص ١١٨ هامش ١ ، ص ١٥٨ .

الحرانى المعروف بالبتانى والمتوفى عام ٩٢٩ م (٣١٧هـ) من أهل حران، وقد قام البتانى بأرصاد كثيرة فى الرقة. وسار البتانى على خطى الخوارزمى فصنع زيجا وصحح عددا من نظريات بطليموس. فمن آراء بطليوس التى فندها البتانى ثبات أوج الشمس.. أما زيج البتانى الذى ضم أرصاده (نتائج ملاحظاته لحركات النجوم) فقد نقل مرتين إلى اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر للميلاد (القرن السادس للهجرة) مرة إلى اللغة الأسبانية فى القرن الثالث عشر. ولما طبع هذا الزيج مرارا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد (العاشر والحادى عشر للهجرة) وأصبح اسم البتانى – فى صيغته اللاتينية: ألبتانيوس – مشهورا عند العلماء. وكذلك كان أثر هذا الزيج فى تطور علم الفلك وعلم الأنساب (المثلثات) الكرية (الكروية) واضحا فى الكتب العربية واللاتينية. ثم أصبحت الرياضيات – بعد جهود البتانى هذه – وشيئا فشيئا، علما مساعدا مهما فى الفلك. ولقد ظلت أرصاد الخسوف والكسوف التى قام بها البتانى رائجة (يعتمدها العلماء) فى أوروبة إلى أواسط القرن الثامن عشر للميلاد (القرن الثانى عشر للهجرة).

هذا العالم الشامى المسلم قد صحح حساب فلك القمر وحدد ميل دائرة البروج بدقة ثم برهن على إمكان الكسوف الحلقى للشمس. وبما أنه كان قادرا على أن يقوم بما قام به – إذا نحن اعتبرنا حال الآلات والأدوات التى كان يعمل بها – فإننا لا نستغرب اليوم ذلك الزهو الذى أصبح لاسمه [1].

ازدهار العلم فى الأندلس :

ثم تقهقر العلم العربى على أرض الإسلام فى المشرق، ولكنه استأنف ازدهارا على أرض الإسلام فى المغرب. وهنالك خلفت قرطبة فى ذلك بغداد وأصبحت مركز العلم، كما شاركت طليطلة وإشبيلية فى هذا النشاط الفكرى. أن علماء العرب فى

(١) الإسلام منهج حياة : ص ٢١٧ .

الأندلس قد أقاموا صرح علمهم على الأسس التى كان قد وضعها إخوانهم فى الدين، فى العراق والشام ومصر وفارس. وكان عصرهم الذهبى فى مدى القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد (القرنين الخامس والسادس الهجريين) على وجه التقريب [1] .

الجريطى :

ومن أوائل أولئك العلماء العالم الرياضى الفلكى مسلمة بن أحمد المجريطى. كان مولد هذا العالم فى مدريد (مجريط) كما يدلنا اسمه، ولكنه بلغ أشده فى قرطبة حيث توفى فيما بعد عام ١٠٠٧ م (٣٩٨هـ) . وطاف المجريطى فى المشرق ودرس كتب العلماء المشارقة الذين كانوا قبله بعناية. ومن جهوده أنه عنى بزيج الخوارزمى ثم اختصره وحوله من حساب الفرس (السنين الشمسية) إلى الحساب الإسلامى (السنين القمرية)، فاستطاع بذلك أن يعين مواقع الكواكب منذ أول زمن الهجرة.

ثم التفت مسلمة إلى مشكلة توقيع خط الهاجرة (خط نصف النهار، وهو الخط الوهمى الذى تقطعه الشمس فى كبد السماء حينما ينتصف النهار) للعالم.

الزرقالى :

والزيج [2] الذى كان معروفا (فى الغرب اللاتينى) بالزيج الطليطلى كان مبنيا على الأرصاد التى قام بها علماء من عرب الأندلس أشهرهم أبو إسحاق إبراهيم الزرقالى المتوفى عام ١٠٩٩ للميلاد (٤٩٣هـ). وكان فى هذا الزيج حقائق مستمدة من المصادر المشرقية. هذا الزيج - لما نقله جراردو ديكريمونا إلى اللغة اللاتينية - أصبح المصدر

(١) نفس المرجع ص ٢١٨ .

(٢) جمعها أزياج وهى جداول فلكية بنيت فى قوانين عددية تبين حركة كل كوكب ، ويعرف منها مواقع الكواكب فى أفلاكها ، ومنها أيضاً تعرف تواريخ الشهور و الأيام ، والتقاويم المختلفة ، ومن أشهر الأزياج : زيج إبراهيم الفزارى ، زيج الخوارزمى ، زيج الشامى الطوسى ، زيج الشامل لأبى الوفاء . راجع أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية ص ١٦١

الرئيسي للكتب الفرنسية ولغيرها من الكتب الأوروبية، وكان الزرقالي أول من برهن على حركة أوج الشمس بالإضافة إلى النجوم (الثابتة)، وكان من آثار الزرقالي في الرياضيات شرح لجدول في الانساب (حساب الزوايا في علم المثلثات).

وجاء كوبرنيكوس -وهو الذى يعد مؤسس علم الفلك الحديث وصاحب النظرية التى تقول بدوران الأرض على محورها وبدوران الكواكب فى أفلاكها حول الشمس- فى كتابه الرائع (مقالة فى حركات عالم الأفلاك) على ذكر البتانى والزرقالى [١].

سبب دراسة علم الجغرافيا :

يرجع سبب دراسة هذا العلم إلى ان فريضة الحج وحاجة المسلمين إلى تعيين سمت القبلة (للتوجه نحو مكة) فى الصلاة كانتا من الدوافع الدينية لدراسة الجغرافية، وعلم الفلك الذى كان ضروريا لتحديد خطوط الطول وخطوط العرض فى (توقيع) الأماكن (على الخارطة)، زاد فى قيمة الجغرافية، كما أن التجار والملاحين العرب الذين قاموا - بين القرنين الثامن والعاشر للميلاد (الثانى والرابع للهجرة) بالتطواف فى جانب كبير من العالم المعروف يومذاك قد عادوا بأخبار أثارت الاهتمام وزادت فى حجم المعلومات الجغرافية، ثم قام نفر من العلماء أنفسهم برحلات للظفر بحقائق جغرافية أخرى، فكانت النتيجة أن أغنى المؤلفات التى وضعت بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر الميلاديين (بين القرن الثالث والقرن الثامن للهجرة) كانت كلها فى اللغة العربية [٢].

دور البيرونى [٣] فى علم الجغرافيا :

ثم أن البيرونى - أبا الريحان محمد بن أحمد المتوفى عام ١٠٥٠ للميلاد (٤٤٢هـ) - والذى كان من أهالى أفغانستان قد تجول فى الهند (مدة طويلة ودرس عددا

(١) راجع الإسلام منهج حياة ص ٢١٨ - ٢١٩ .
(٢) إنظر الإسلام منهج حياة ص ٢١٨ .
(٣) المرجع نفسه ، وانظر اثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية ص ١٥٨ . وانظر اعلام الفيزياء فى الإسلام ص ٢٢٢ .

من لغات الهند) ثم وضع كتابه الذى أصبح مصدرا أساسيا فى وصف الهند (تاريخيا وجغرافيا واجتماعيا وثقافيا) وهو «كتاب ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة». وقد بدا للبيرونى أن حوض نهر السند كان من قبل بحرا قديما ثم ملأه الطمى (الغرين: الرواسب الترابية التى يحملها كل نهر معه عادة). ومن نتائج جهوده العلمية تفسيره لخروج الينابيع من الأرض على أساس المبدأ القائل بتوازن الموائع وضغطها أى الاستطراق.

إن كثيرا من هذه المعارف الجغرافية قد وجدت طريقها شيئا فشيئا (إلى العرب) ثم استقر معظمها فى المصنف العظيم المسمى «معجم البلدان» والذى ألفه ياقوت (ت١٢٢٨ م = ٦٢٦هـ) الرومى (اليونانى) الذى كان من قبل عبدا رقيقا. إن هذا الكتاب الذى رتبه مؤلفه على الحروف الهجائية هو فى الحقيقة موسوعة [١] تضم - إلى جانب الحقائق الجغرافية - معارف تاريخية وعرقية، وعلمية وأدبية.

الشريف الإدريسى:

ولكن الجغرافى العربى ورسام الخرط البارز فى العالم العربى يومذاك- إن لم يكن فى العصور الوسطى كلها - كان **الشريف الإدريسى** أبا عبد الله محمد ابن محمد الأندلسى الأصل والمغربى المولد والمتوفى عام ١١٦٦م (٥٦٠هـ). عاش الإدريسى فى بلاط رُجَّار الثانى ملك جزيرة صقلية النورماندى، وكانت صقلية فى ذلك الحين ملتقى الحضارات من منطقتين (المنطقة الإسلامية، والمنطقة المسيحية). وسأل رجار الثانى نزيل بلاطه - بما كان المأمون قد فعل من قبل- أن يصنف له كتابا شاملا فى الجغرافية وأن يصنع له خارطة للعالم. وقال الإدريسى فى مقدمة كتابه «كتاب رجار» أو «الكتاب الرجارى» المسمى أيضا «**نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق**» إنه قد ضم فى كتابه هذا معارف جديدة جاء بها مندوبون قد بعثوا إلى البلاد المختلفة. وأبدى الإدريسى أصالة فى ضم بعض هذه المعارف إلى بعض وفى أدراك كروية الأرض؛

(١) الموسوعة: كتاب يجمع معلومات فى كل ميادين المعرفة، أو فى ميدان منها، مرتبة ترتيبا أبجديا. انظر المعجم الوسيط مادة: وسع.

وجعل الإدريسى منابع النيل فى خارطته تقريبا عند الأماكن التى يزعم بعضهم أنها كشفت، أول ما كشفت، فى القرن التاسع عشر.

وأول نقل (ترجمة) لكتاب الإدريسى قام به فى روما عالمان مارونيان وجعلاه نسخة موجزة ولم يذكرا فيها أسم المؤلف (١) .

جهود العرب فى الطب :

أما جهود العرب فى الطب فلم تكن أقل قيمة ولا أقل أثرا باقيا من الرياضيات والفلك.

ولعل معرفة العرب بالطب المزاجى (العلمى، الطبيعى) قد بدأ فى الأغلب فى عصر المأمون ، وكان من أشهرهم :

الرازى :

وجاء على رأس سلسلة من مشاهير الأطباء المسلمين أبو بكر محمد بن زكريا الرازى (١) الذى عاش ما بين عام ٨٦٥ وعام ٩٢٤ للميلاد (٢٥١- ٣٢١هـ) والذى اشتق لقبه «**الرازى**» من اسم المدينة التى ولد فيها «**الرى**» على مقربة من عاصمة إيران الحديثة وبدأ الرازى بدارسة الصنعة (الكيمياء القديمة) ثم أصبح طبيبا وجراحا . وكان الرازى فيلسوفا كسلفه الكندى وكخلفه ابن سينا ، ولكنه لم يحاول ما حاوله من الجمع بين الفلسفة اليونانية وبين الإسلام فلقد نظر الرازى إليهما على أنهما متباينان.

---

(١) راجع الإسلام منهج حياة ص ٢١٩ .

(٢) وهذا بخلاف الرازى المفسر أبو عبد الله بن عمر بن حسين القرشى الشافعى الملقب بفخر الدين الرازى صاحب التفسير الكبير ، إمام المتكلمين ، وقامع المبتدعين .. والعالم المتبحر ، ولد فى ٢٥/٩/٥٥٤ هـ . كان إذا ركب مشى معه نحو الثلاثمائة مشتغل بطلب العلم على اختلاف مطالبهم فى : التفسير والفقة والكلام والطب والأصول والحكمة وغير ذلك كان يعظ باللسانين : العربى والعجمى ، كما يقول ابن حلكان ، راجع مقدمة التفسير الكبير. وراجع أعلام الفيزياء فى الإسلام ص٢٧١ ومابعدها .

إن هذا الرجل كان مبتكرا فى الطب بقدر ما كان مبتكرا فى الفسلفة. إنه كان من الأوائل الذين حازوا قدرا كبيرا من الروح التجريبى وأنكروا الرمزية الخرافية. أما فى الجراحة فكان الشخص الأول الذى استخدم الفتيلة (من الخيوط المبرومة) والتى توضع فى الجرح لامتصاص الصديد منه ولمنع الجرح من الالتحام قبل الشفاء. وكذلك كانت طريقته فى أختيار مشهد لبناء مستشفى فى بغداد بوضع شرائح من اللحم فى أماكن متفرقة من المدينة، ليعرف مدى التعفن فى هذه الأماكن، طريقة تدل على أصالة فى التفكير. ومن الكتب المائتين المنسوبة إلى الرازى - والتى ضاع نصفها - نجد ثلاثة عشر كتابا منها فى الصنعة (الكيمياء القديمة). ثم تحسن الإشارة إلى كتابين من كتبه فى الطب: كتاب الحاوى ، وكتاب الجدرى والحصبة.

كان كتاب «الحاوى» كما يدل اسمه، موسعة طبية حقيقية تحوى كل ما عرفه العرب من طب اليونان والسريان والفرس والهنود مضافا إليه ما جمعه المؤلف من تجاربه (العلمية) ومن اختياره (الشخصى). ولقد قضى المؤلف خمسة عشر عاما فى جمع هذا الكتاب؛ ولعله استعمل فيه عددا من الكلمات أكثر من تلك التى استعملها ابن سينا فى كتاب «القانون». ونشرت إحدى دور النشر فى حيدر آباد (المطبعة العثمانية، حيدر آباد الدكن فى الهند) من كتاب الحاوى إلى الآن ثمانية عشر جزءا (١٩٥٥ - ١٩٦٦م) وهى تعد بإصدار أجزاء أخرى. وكان هذا الكتاب قد نقل أولا إلى اللاتينية - فى عام ١٢٧٩م (٨٧٦هـ)- وقام بنقله الطبيب اليهودى فرج بن سليم برعاية الملك كارلو ملك نابولى وصقلية. وقد نقل فرج بن سليم عددا من الكتب العربية الأخرى. وثبت كتاب الحاوى وشيكا كتاب تدريس وأعيد طبعه مرارا فى عام ١٤٨٦م (٨٩١هـ). وما بعده ، وظهرت منه طبعة خامسة فى البندقية (فى إيطالية) عام ١٥٤٢م) (٩٤٩هـ) . ثم إن اختراع الأحرف المفردة فى الطباعة، فى منتصف القرن الميلادى الخامس عشر (أواسط القرن التاسع الهجرى) سهلت انتشار كتب الرازى وسواه من علماء العرب ثم جعلت اسم الرازى معروفا فى مدارس الطب .

أما رسالة الرازى فى الجدرى والحصبة فهى زينة التصانيف الطبية العربية، ثم إنها تعد أقدم رسالة فى موضوعها. ففى هذه الرسالة يذكر الرازى أول وصف سريرى ويميز الجدرى من الحصبة. ولما نقلت هذه الرسالة إلى اللغة اللاتينية نشرت نحو أربعين مرة بين عام ١٤٩٨ وعام ١٨٦٦ للميلاد (٩٠٤ - ١٢٨٣هـ). ثم إنها نقلت إلى عدد من اللغات الأوروبية الحديثة ومنها اللغة الانجليزية - ١٨٤٨ للميلاد (١٢٦٥هـ). هذه الرسالة أكدت شهرة مؤلفها بأنه من أذكياء المفكرين ومن أكابر الأطباء العمليين، لافى بلاد الإسلام فحسب بل فى بلاد النصرانية أيضا (١).

ابن النفيس :

وهناك أحد الأطباء الدمشقيين - (**علاء الدين** أبو الحسن على بن أبى الحزم القرشى المعروف بلقبه) **ابن النفيس** - والذى أصبح رئيسا للبيمارستان (المستشفى) الناصرى فى القاهرة، ثم كانت وفاته عام ١٢٨٨ للميلاد (٦٨٦هـ). وابن النفيس هذا مكتشف الدورة الدموية الصغرى (بين القلب والرئتين) قد عاش قبل الطبيب الانكليزى وليم هارفى الذى كشف عن الدورة الدموية الكبرى (الكاملة) بقرنين ونصف قرن. غير أن الذى يجعل اكتشاف ابن النفيس جديرا بالتقدير جدا أن ابن النفيس وصل إلى ما وصل إليه بالاستقراء لا من طريق التشريح. وكان هذا الطبيب العربى من الذين لا يعالجون بالدواء ما أمكن العلاج بالغذاء.

ونقل الكتاب الملكى- قبل نقل الموسعة الشاملة (**كتاب الحاوى**)- إلى اللغة اللاتينية، نقله قسطنطين الإفريقى المتوفى عام ١٠٨٧ للميلاد (٤٨٠هـ) نقلا جزئيا ثم نقله كله أصطفان الأنطاكى الذى كان من أهالى بيزا (إيطاليا). ذلك كان الكتاب الأساسى الوحيد الذى عاد به الصليبيون معهم إلى أوروبا (٢).

---

(١) راجع الإسلام منهج حياة ص ٢٢٥ .

(٢) راجع الإسلام منهج حياة ص ٢٢٥ . وراجع أثر الثقافة الإسلامية فى تكوين الإنسانية ، ص ١٥٩ هامش١، وأثر العلماء والمسلمين فى الحضارة الأوروبية ص ١٣٨ .

هذا هو ابن النفيس العلامة الذى كان إماما فى الطب ، ومن مؤلفاته كتاب : (شرح تشريح القانون) له أهمية قصوى ، لأنه فى وصفه للرئة سبق غيره فى اكتشاف الدورة الدموية (الرئوية) الصغرى ، ووصفها وصفا علميا دقيقا .

والدورة الدموية الصغرى هى دورة الدم فى الرئتين ، ويبلغهما الدم بواسطة الشريان الرئوى ، مدفوعا من (بطين القلب الإيمن فيتنقى فيهما بأخذه الأوكسجين ، ثم يعود (بالأوردة الرئوية) الى البطين الأيسر من القلب متمما بذلك دورة نعتوها (بالصغرى) تميزا لها عن الدورة الكبرى ، وهى دورة الدم فى كافة انحاء الجسم .

أما أول من اكتشف الدورة الدموية الكبرى فهو (وليم هارفى) وهو عالم فسيولوجى انجليزى (١٥٧٨ – ١٦٥٧)م درس فى كمبردج ، وجامعة بادوا ، مارس الطب فى لندن ، ووضع نظريته عام ١٦١٦ م [١] .

ولقد سبق ابن النفيس «سرفينوس» البرتغالى بثلاثمائة عام فى وصف الدورة الدموية .

وهو الذى أجرى التجارب والاختبارات ، وأثبت أن الدم ليس سائلا مستقرا فى الأوردة والشرايين ، بل هو سائل متحرك يدور فى جميع أنحاء الجسم [٢] .

ابن ملكا البغدادى :

هبة الله بن على بن ملكا اشتهر بـ« أوحد الزمان » ، « البلدى » . ولد فى بغداد سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧م) يقول عنه خير الدين الزركلى فى موسوعته « الإعلام » :

هبة الله بن على بن ملكا البلدى أبو البركات ، المعروف بأوحد الزمان طبيب من سكان بغداد ، عرف بفيلسوف العراقيين ، ادعى انه نال رتبة أرسطو ، كان يهوديا

(١) راجع . احمد الملا : أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية ص ١٣٩ هامش ١ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

وأسلم فى آخر عمره ، وكان فى خدمة المستنجد بالله العباسى ، وحظى عنهد [1] .

كان ابن ملكا من علماء العرب المسلمين الذين اعتنوا بالامراض النفسية التى تصيب الناس ، وحاول جادا ان يعالجها بالطرق النفسية التى أدهشت علماء الطب فى القرن العشرين [2] .

وسمى بأوحد الزمان لضلعه فى شفاء المرضى النفسيين الذين وصلوا إلى درجة اليأس ، ومن بهم جروح خطيرة ، وأمراض مستعصية .

من مؤلفاته :

١- كتاب المعتبر فى الحكمة .

٢- مقالة فى سبب ظهور الكواكب ليلا ، واختفائها نهارا .

٣- اختصار التشريح من كلام جالينوس .. الخ .

وقد وصلت مؤلفاته الى تسع ، كما جاء فى كتاب أعلام الفيزياء .

جهوده فى الميكنيكا منها :

١- أنواع الحركة فى كتابه « المعتبر فى الحكمة » .

٢- كمية الحركة .

٣- التساقط الحر للأجسام .

٤- القانون الثانى للحركة .

٥ - القانون الثالث للحركة [3] .

---

(١) راجع أعلام الفيزياء .. ص ٢٥٤ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦١ .

(٣) راجع تفسير هذه الجمل فى كتاب أعلام الفيزياء من ص ٢٦٥ - ٢٧٠ .

نصير الدين الطوسى :

أبو جعفر نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسى (١) ، ولد فى خراسان ، وعاش فى بغداد فيما بين ٥٩٧ – ٦٧٢ هـ (١٢٠٣ – ١٢٧٤ م) درس مؤلفات الإغريق ، وترجم لإقليدس : «كتاب الأصول » .

كما اشتهر بمؤلفاته فى علم المثلثات ، والجبر ، والفلك والهندسة وكان عالما فذا فى الرياضيات والفلك .

يقول عنه جور سارتون (٢) : « إن نصير الدين الطوسى يعتبر من أعظم علماء الإسلام ، ومن أكبر رياضييهم » .

عرف بين علماء المشرق والمغرب بلقب « العلامة » كما لقب « بالمحقق » (٣) ومن المتفق عليه ان نصير الدين هذا خلف ابن سيناء فى سعة الإطلاع ، والقدرة على الاستيعاب .

فى مجال الرياضيات يقول : د. دريك ستروبك فى كتابة : « ملخص تاريخ الرياضيات :

(١) هناك عالم آخر بهذا اللقب هو : شرف الدين المظفر بن محمد الطوسى من طوس عاش فى القرن (الثالث عشر الميلادى) رحل إلى الموصل ودمشق واشتهر بالعلوم الرياضية ، وباختراعه لأحد الاسطرلاب .

ومن مؤلفاته : كتاب فى الجبر والمقابلة ، ورسالة فى الاسطرلاب الخطى ، راجع أعلام الفيزياء ... ص ٢٩٤ هامش ١ .

(٢) فى كتابه : تاريخ العلوم : المجلد الثانى .

(٣) وكان يجيد اللغات : اللاتينية والفارسية والتركية مما أعطاه القدرة على التمكن فى شتى المعارف .

« إن نصير الدين من المفكرين الأوائل فى الاعداد التى ليس لها جذور « الأعداد الصم » ، ولو أعطى كل ذى حق حقه فإنه من الجدير ان يقال : إنه المبتكر الأول لهذه الأعداد التى لعبت فى الغابر دورا مهما ، ولاتزال لها أهميتها العظمى فى الرياضيات الحديثة التى تدرس الان فى جميع أنحاء العالم » (١) .

ألف نصير الدين الطوسى أكثر من ١٤٥ مؤلفا فى مجالات مختلفة منها :

حساب المثلثات ، والهندسة ، والجبر والمقابلة ، والهيئة (٢) ، والجغرافيا والطبيعيات ، والمنطق ، والتنجيم ، وقد ذكر فى أعلام الفيزياء .. جانبا من هذه المؤلفات (٣) .

عبد الرحمن الخازنى : (٥٥٠ هـ - ١١٥٥ م) .

عاش أبو الفتوح عبد الرحمن الخازنى فى أواخر القرن السادس الهجرى ، أو (أواخر القرن الثانى عشر الميلادى) .

وكان الخازنى غلاما لعلى الخازن المروزى ، فترعرع فى ظله ، ودرس فى مدينة مرو ، وهى من أشهر مدن خرسان فى جمهورية التركستان .. نبغ فى علوم الفيزياء ، والفلك ، والرياضيات ، ومع أنه كان رقيقا لعلى الخازن إلا أن رقه لم يحل بينه وبين تعلم العلوم .

يقول جورج سارتون فى كتابه : « المدخل إلى تاريخ العلوم » .

« ان أبا الفتح عبد الرحمن الخازنى اشتهر بين زملائه بعلم الفيزياء فى الفترة مابين سنتى ١١١٥ ، ١١٢١ ميلادية ، وله كتاب يسمى ميزان الحكمة أتمه فى سنة

(١) نقلا عن أعلام الفيزياء .. ص ٢٩٨ .

(٢) علم الهيئة : علم الفلك وهو علم يبحث عن أحوال الأجرام السماوية ، وعلاقة بعضها ببعض ، ومالها من تاثير فى الأرض ، راجع المعجم الوسيط مادة : هاء .

(٣) فى ص ٣٠١ - ٣٠٩ .

١١٢٢م. ويحتوى على دراسات فى علوم الميكانيكا ، والإيدر وستاتيكا (توازن السوائل والفيزياء) [١] .

كما ان له نصيب وافر فى علم الجاذبية حتى يجدر به ان يكنى بأبى علمى الحركة ، وتوازن السوائل (الإيدروستاتيكا) .

كما كنى الخوارزمى بأبى علم الجبر ، وابن الهيثم بأبى علم المناظرة ، والبتانى بأبى علم المثلثات ، وثابت بن قرة بأبى علم الهندسة [٢] .

وفى كتاب « العلم عند العرب » للمستشرق الإيطالى الدوميلى عام ١٩٣٩ م ذكر فيه مقارنة بين قيم الثقل النوعى لبعض المعادن والاحجار الكريمة كما عينها كل من أبى الريحان البيرونى ، وعبد الرحمن الخازنى ، والقيمة الحالية [٣] كما اثبت المستشرق نفسه فى كتابه « العلم عند العرب » .

أن « الخازنى قد استعمل ميزان الهواء لتعيين الثقل النوعى للسوائل بكل نجاح» [٤] .

ابن اللباد :

هو موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد على البغدادى المشهور بابن اللباد (٥٥٥ – ٦٢٩ هـ = ١١٦٠ – ١٢٣١م) .

---

(١) نقلا عن أعلام الفيزياء فى الإسلام ص ٢٤٠ .

(٢) نقلاعن نفس المرجع ص ٢٤١ .

(٣) مثالث : المادة الهب عند الخازنى ١٩,٠٥ ،عند البيرونى ١٩,٢٦ والقيمة الحالية ١٩,٢٦ .

(٤) مثال : ماء البحر : القيمة عند الخازنى ١٠,٠٤١ ، والقيمة الحديثة ١,٠٢٧ نسبة الخطا ١,٣٦ .
راجع أعلام الفيزياء ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

من فلاسفة الإسلام ، وأحد العلماء المكثيرين تصنيفا فى الحكمة وعلم النفس ، والطب ، والتاريخ ، والبلدان والأدب .

مولده ووفاته ببغداد ، وأقام مدة بحلب ، وزار مصر ، والقدس ، ودمشق ، وحران وبلاد الروم وملطية والحجاز ، وغيرها ، وحظى عند الملوك والأمراء ، وكان دميم الخلقة قليل لحم الوجه ، قوى الحافظة ، من كتبه : الإفادة والاعتبار بما فى مصر من الآثار ، طبع .

قوانين البلاغة .. ، الجامع الكبير فى المنطق والطبيعة والإلهيات فى عشر مجلدات ، والقياس فى أربع مجلدات ، والسماع الطبيعى ، وغريب الحديث ، وشرح حديث ابن ماجه المتعلق بالطب ، كما اختصر كتاب الحيوان للجاحظ ، وكتاب فى النبات، وكتاب العمدة ، وحقيقة الداء والغذاء ، والنفس والصوت والكلام ، والمدينة الفاضلة ، والعلوم الضارة ، وتزييف مايعتقده ابن سينا ، واللغات ، وكيفية تولدها ، والقدر ، وغيرها من المؤلفات [1] .

ابن البيطار :

هو ضياء الدين عبد الله بن أحمد الملقى المعروف بابن بيطار إمام النباتيين ، وعلماء الأعشاب ، ولد فى مالقة ، وتعلم الطب ، ورحل إلى بلاد الاغارقة ، وأفضى الى بلاد الروم باحثا عن الأعشاب والعارفين بها . حتى كان الحجة فى معرفة أنواع النباتات وتحقيقه وصفاته وأسمائه واماكنه ، واتصل بالكامل الأيوبى (محمد بن أبى بكر) فجعله رئيس العشابين فى الديار المصرية .. واشتهر شهرة عظية ، وهو صاحب كتاب الأدوية المفردة طبع فى مجلدين ، ويعرف بمفردات ابن البيطار ، وله المغنى فى الطب مرتب على مداواة الأعضاء ، وميزان الطبيب [2] .

---

(١) ولمعرفة المزيد عن مولفات ابن اللباد ، راجع أثر الثقافة الإسلامية فى تكوين الإنسانية ص ١٣٠ هامش ٢ .

(٢) أثر الثقافة الإسلامية فى تكوين الإنسانية ص ١٢٩ هامش ١ .

جمع ابن البيطار النماذج النباتية من العالم الإسلامى بأسره ، وقارن بين نباتات الهند ، ونباتات إيران ، ونباتات يونان ، ونباتات إسبانيا . ففى تصفية الذى يشرح ١٤٠٠ نباتات قال المؤرخ الألمانى « ماير » فى المجلد الثانى من تاريخه للنباتات ص٢٣٣ . « إنه تذكار لكده ومثابرته »[1] .

وبعد حياة حافلة فى البحث والمشاهدة ، والتصنيف توفى هذا العالم فى دمشق سنة ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م .

ابن سينا :

كان لقب ابن سينا بين قومه «الشيخ الرئيس» (شيخ العلماء ورئيس أهل الدولة)، وكان مستحقا لهذا اللقب. واشتهر ابن سينا بأنه طبيب وفيلسوف وعالم ووزير. وهو يعد أعظم الأطباء فى القسم الأول من العصور الوسطى.

ولد أبو على الحسين بن عبد الله- وهو اسم ابن سينا الكامل- عام ٩٨٠ للميلاد (٣٧٠هـ) فى مدينة بخارى ما وراء النهر (التركستان) ووضع كتبه فى الدرجة الأولى، باللغة العربية سوى عدد يسير منها كتبه باللغة الفارسية. ولما بلغ السادسة عشرة من عمره- كما يقول هو فى الترجمة التى كتبها بنفسه- كان قد أتقن عددا من العلوم المعروفة يومذاك ومنها الطب الذى وجده يسيرا عليه. بعدئذ بدأ حياته متصدرا لتدريس الطب ومتطبباً. وبلغت شهرة هذا الشاب العبقرى إلى نوح بن نصر السامانى ملك بخارى – وكان الأطباء قد حاروا فى علته- فاستدعاه إليه. فلما شفى على يديه نال حظوة فأذن له أن يدخل إلى مكتبة القصر ، ويقال : إن ابن سينا قد التهم محتويات الكتب فى هذه المكتبة كلها فى ثمانية عشر شهرا.

وبين الكتب الطبية الأربعين التى صنفها ابن سينا كان كتاب «القانون فى الطب» رائعته الفريدة، وكان قد أتم وضعه فى مدينة همذان، حينما كانت حياته لا تزال

(١) المرجع نفسه ص ١٢٩ .

مضطربة. لقد جاء هذا الكتاب فى ألف ألف كلمة لخصت تراث أبقراط ، وجالينوس ثم جمعت إليه ما فى المصادر السريانية العربية والهندية الفارسية وكملته بما كان المؤلف قد اختبره (فى أثناء حياته) وجربه (فى أثناء تطبيقه). ولقد استطاع ابن سينا أن يجعل المعارف القديمة التى ضمها إلى كتابه هذا تبدو جديدة ونافعة: إذ كان هذا الكتاب، كتاب القانون، أجمل نهجا فى ترتيبه وتقسيمه وأحسن عرضا وسردا من كتاب الحاوى. إن كتاب القانون يمثل الذروة فى تنظيم العرب لعلم الطب ولقد رسخ هذا الكتاب على أنه الثقة الأسمى فى الطب فى الإسلام حتى القرن التاسع عشر. ولم يكن رواجه فى الغرب أقل مدعاة إلى الإعجاب. وبعد أن نقل جرارد ديكريمونا كتاب القانون (إلى اللغة اللاتينية) فى الثلث الأخير من القرن الخامس عشر (أواخر القرن التاسع للهجرة) صدر كتاب القانون هذا فى ثلاث طبعات لاتينية وفى طبعة عبرية. وكان جرارد ديكريمونا الإيطالى نظير حنين بن اسحاق الناقل العربى، وإليه يرجع الفضل فى نقل عدد من الكتب تبلغ ثمانين كتابا على الأقل وتمثل ثلاثة أرباع الكتب العربية التى نقلت إلى اللغة اللاتينية. وقد جعل كتاب القانون كتابا للتدريس فى جامعة باريس (فرنسة) وجامعة لوفن (بلجيكة) إلى أواسط القرن السابع عشر للميلاد (الحادى عشر للهجرة) وإذا أخذنا بقول مؤرخى علم الطب فى العصر الحديث قلنا معهم: «إن كتاب القانون لابن سينا كان الكتاب المقدس فى الطب مدة لم يتمتع بمثلها كتاب آخر» (1) .

هذا الكتاب قد تناول الطب العام والمرض ، والصيدلة وذكر طريقة معالجة الأمراض التى تنتاب الجسم كله من نقرة الرأس إلى أخمص القدم مرضا مرضا، إنه أدرك قيمة الحمية وأثر المناخ فى الصحة ثم تلك الصلة الوثيقة بين العوامل العاطفية وبين حال الأعضاء فى أداء وظائفها. وأنكر ابن سينا الصنعة (الكيمياء القديمة). ومن خصائص كتاب القانون أنه ناقش طبيعة العدوى فى مرض السل وانتشار الأمراض

(1) الإسلام منهج حياة ص ٢٢٦ - ٢٢٨ بتصرف واختصار ، وراجع أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية ص ١٣٤ ، ١٤٢ .

بواسطة التراب والماء. وأشار ابن سينا إلى استخدام الخمر مخدرا من طريق الفم عند القيام بالعمليات الجراحية [1] .

والجراحة كانت ميدانا من الميادين التى لم يكن للعرب فيها جهد بارع ظاهر. إن الإسلام- كما تأول الفقهاء (بعض نصوصه)- ينهى عن التشريح، والتشريح مقدمة لاغنى عنها لفهم أحوال أعضاء الجسم.

الزهراوى :

غير أن الإسلام فى الاندلس قد وهبنا أعظم جراح فى العرب وأحد أعاظم الجراحين فى أوروبا فى العصور الوسطى. ذلك هو أبو القاسم الزهراوى المتوفى نحو عام ١٠١٣ للميلاد (٤٠٤هـ).

كان الزهراوى طبيبا فى بلاط الحكم بن عبد الرحمن- وفى أيامه بلغت الخلافة الأموية فى قرطبة أوج ازدهارها . وشهرة الزهراوى ترجع إلى كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف». فى هذا الكتاب فصل مبسوط (مفصل) فى التشريح هو الأول فى بابه، ثم هو يجمل المعارف المتعلقة بالتشريح فى أيامه تلك. هذا الفصل قد نقل، أول ما نقل إلى اللاتينية، نقله جراردو ديكريمونا الذى لا يعرف الكلل ولا الملل. بعدئذ نقل إلى البروفنسالية (الفرنسية القديمة) والعبرية. وفى أواسط القرن الرابع عشر للميلاد (وأواسط القرن الثامن للهجرة) ضم جراح فرنسى مشهور هذا الفصل إلى كتاب له. وظهر كتاب الزهراوى فى طبعات عديدة منها واحدة فى البندقية (إيطالية ١٤٩٧= ٩٠٢- ٩٠٣هـ)، وثانية فى باسل (سويسرة ١٥٤١م= ٩٤٨هـ) ثم ثالثة فى أوكسفورد (انكلترا ١٧٧٨م ١١٩٢هـ). وغبر زمن طويل وكتاب الزهراوى كتاب تدريس فى كليات الطب فى سالرنو (بجنوبى إيطالية) ومونبليه (فى فرنسة) وفى غيرهما . وهو الذى أدخل التعقيم

(١) المرجع السابق .

فى الجراحة أو أكد قيمته تأكيدا كبيرا ثم تكلم على تفتيت الحصا فى المثانة وعلى حاجة المشتغلين بالطب إلى تشريح الأجسام ميتة وحية. ومن خصائص هذا الكتاب أن فيه صورا للآلات التى كان الزهراوى يستخدمها (فى الجراحة)، تلك الآلات التى كانت فى ذلك الحين نموذجا يحتذى فى آسيا وأوروبا [1] .

جابر بن حيان :

وفى ميدانين من ميادين الطب- فى الكيمياء وعلم النبات- كان التقدم الذى أحرزه العرب لايقل عن التقدم الذى كانوا قد أحرزوه فى الطب نفسه. ويكفى هنا أن نشير إشارة عارضة إلى أن الكلمة التى كانت تدل فى العصور الوسطى على العلم الكيماوى «الكمى» ترجع إلى الكلمة العربية لهذا العلم «الكيمياء»! إن أبا هذا «العلم» كان رجلا مسلما من أهل المشرق هو جابر بن حيان الذى بلغ أشده عام ٧٧٥ للميلاد (١٦٠هـ)، وإلى أن أشهر علماء النبات بعد ديوسقوريدس (اليونانى) كان ابن البيطار المالقى الاندلسى المتوفى عام ١٢٤٨ م (٦٤٦هـ).

ظهرت الصنعة (الكيمياء القديمة، فى الشرق الأدنى، أول ماظهرت) فى مصر اليونانية (فى عهد البطالسة) ثم بلغت ذروة رواجها فى العراق فى العصور الوسطى. وحوالى القرن الرابع عشر للميلاد (الثامن للهجرة) كانت رسائل جابر بن حيان فى الكيمياء- ما كان منها صحيحا أو منحولا- قد أصبحت أكثر التصانيف فى الكيمياء أثرا فى آسيا وأوروبا . وكان علماء الكيمياء المسلمون فى كل مكان يعدون جابرا أستاذا لهم. وقد كانت بحوث ابن البيطار تتناول جنوبى الاندلس والشواطىء الشمالية من أفريقية كما تتناول الشام. ثم أن ابن البيطار جمع نتائج بحوثه فى كتابه القيم «الجامع

---

(١) راجع الإسلام منهج الحياة ص ٢٢٩ ، وأثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية ص ١٣٦ ، وأثر الثقافة الإسلامية فى تكوين الإنسانية ص ١٥٥ .

فى الأدوية المفردة» من مملكة النبات ومملكة الحيوان ومملكة الجماد. ونجد قسما من هذا الكتاب منشورا باللغة اللاتينية بعنوان «سيمبليكيا»، عام ١٧٥٨م (١١٧٢هـ) فى كريمونا بإيطالية.

وفى أثناء ذلك الركض الجنونى للكيماويين العرب وراء ذينك السرابين: الأكسير لإطالة الحياة وحَجَر الفلاسفة لتحويل المعادن الخسيسة إلى معادن شريفة، استطاع هؤلاء الكيمائيون العرب أن يطوروا الفن الصناعى فى التجارب- فى أثناء معالجة المعادن المختلفة- فوقعوا على حقائق علمية قيمة. لقد حسنوا العمليتين الكيماويتين الأساسيتين المتعلقتين بالتحميص (التكليس بالإحماء) وبالاختزال (خفض نسبة الصدأ أو التأكسد)، كما حسنوا طرق التبخير والتصعيد والصهر (إذابة المعادن) والتبلور. ثم أنهم أضافوا عناصر كيماوية كالإثمد والزرنيخ ورهج الفار والبورق والقلى. وإليهم أيضا يرجع الفضل فى صنع أدوات كالأنبيق والأثال.

وكذلك ترك الأطباء العرب - كما كان الكيماويون العرب قد فعلوا - آثارا لغوية معروفة عند دارسى الطب. هنالك عدد من المصطلحات الطبية كالغول والجُلّاب والرُبّ والسوداء والشراب، وهذه كلها ألفاظ عربية استعيرت فى موضوع الطب ودخلت فى اللغات الأجنبية مشوهة قليلا أو كثيرا: ألقهول[1]، جولب، رب (بضم الراء المفخمة)، صودا، سيروب، وهنالك ألفاظ جاءت إلى اللغة الانكليزية بوساطة اللغة اللاتينية. نحو:دورا ماتر- الزم الجافية: وهى الغشاء القاسى الذى يلف الدماغ- بياماتر- الأم اللطيفة: الغشاء الرقيق الذى يغطى الدماغ[2] - وكذلك ترك علماء الفلك العرب على

(1) alcohol (al-kuhl), julep (jullab), rob (rubb), soda (sdda, sawda), syrop (sharad).

(2) dura mater,pia mater.

صفحة السماء آثار جهودهم: أقراب (العقرب)، ألفيدى (الجدى)، ألطاير (الطائر)، دينيب (الذنب)، فيرقاد (الفرقد)[1]. إن هذا (وأشباهه) يشهد للتراث الثمين الذى خلفه الإسلام فى أوروبا المسيحية شهادة جميلة [2].

ولحرص الإسلام، وميزته على سائر الأديان أن وضع للإنسان أصولاً تصلح لأفضل إقامة لأكرم مدنية تسود العالم كله .

(1)acrab (aqrab), Algedi (al-jadi), Altair (al-tair) Denb (dheneb), Pherkad (farqad),.

(٢) راجع : الإسلام منهج حياة ص ٢٢٩ - ٢٣١.

أصول الإسلام التى تصلح لإقامة
أكرم مدنية فى العالم

مما يميز الاسلام عن سواه من الأديان التى تقدمته تصريح كتابه بأنه دين عام قال تعالى «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا» (١) وقد كاتب النبى ﷺ ملوك الممالك المعروفة لذلك العهد يدعوهم إلى الاسلام باسم هذا النص القرآنى : (٢).

لكن هل كان بالأمم حاجة إلى دين جديد؟ إن مجىء الاسلام للناس كافة وليس للعرب خاصة يستدعى أن يكون لجميع أمم الارض حاجة إلى دين جديد فكيف كان حال تلك الأمم فى عهد البعثة النبوية، وماذا كان مبلغ تلك الحاجة منها الى الدين أو الى أى حادث اجتماعى جلل؟

يجمل بنا أن نورد ذلك على لسان أحد الأجانب عن الدين من بحاثى الافرنج فانه أدنى لأن لا نتهم بتحيز وأن لا نوصم بمغالاة. فقد كتب البحاثة الفاضل المسيو (جون لابوم) الفرنسى فى مقدمة الفهرس الذى وضعه للقرآن الكريم المترجم إلى اللغة الفرنسية بحثا فى هذا الموضوع قال:

«لأجل أن يفهم الانسان تمام الفهم مرمى دعوة من الدعوات يلزمه أولا الالمامُ بحال الداعىَ فى ذاته، ولأجل أن يقدر قدر دعوته يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التى وجه همته للتأثير عليها. هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التى خصصناها للمشرع العربى مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الاسلامية.

---

(١) سبأ : ٢٨ .

(٢) راجع تاريخ الطبرى: ٤٢/٤، وسيرة النبى ﷺ لابن هشام: ١٧٤/٤، والطبقات الكبرى لابن سعد ٣٢/٢.١

«حوالى ميلاد محمد ﷺ فى القرن السادس الميلادى كان جو العالم ملبدا بغيوم الاضطرابات والفتن فكان شعب (الوزيغو) الآريين فى أسبانيا وفرنسا الجنوبية يصاولون الملك (كلوفيس) وأولاده الكاثوليكيين فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة امبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو (جوستينيان) ثم اجبروا إلى الدخول معه فى حرب جديدة تخلصا من سلطة القواد الذين جاؤهم بتلك المساعدة فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين لا مجرد ولاء المساعدين المحامين.

«أما فى فرنسا نفسها فكان أولاد (كلوفيس) هذا متغادرين متسافكين وكانت الحروب التى شبت نيرانها بين الملكة الوزيغوتية (برنهو) والملكة الفرنكية (فيريديجوند) تهيىء للتاريخ أشد الصحائف اثارة للاسى والكمد .

«أما فى انجلترا فكان (الانجلو) ينازعون (السكسونيين) الأرض التى احتلوها واستعبدوا فيها ذرية (كيمريس) وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة التى تتطلع اليوم للوقوف فى مقدمة الأمم علما وصناعة وقوة – وهى التى كانت فى ذلك الوقت مجالا للقوة الوحشية السائدة فى تلك الغياهب الحالكة.

«أما فى إيطاليا فكان اسم (الرومان) وهو ذلك الاسم الشامخ قد فقد خطورته القديمة ، وكانت رومة وهى الشظية الأخيرة أو رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم (يعنى مملكة الرومان) فى حالة تململها من استحالة أمرها إلى مركز دينى بسيط ترتج وتضطرب كلما ألم بها طائف من ذكرى عظمتها القديمة أيام كانت مركزا دينيا أصليا، فكانت تهيىء نفسها لأن تكون مركزا للبابوية وهى تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة (شارلمان) أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان. ولكنها بعد ذلك لم يسعها حمل نير (الهيروليين) (والاستروغوتيين) وامبراطرة المملكة الرومانية (واللومبارديين) الذين تداولوا السلطة عليها تداولا.

«أما مملكة اليونان التى كانت قد نسيت مجدها القديم فكانت تابعة لملكة الرومان الشرقية مثلها مثلها كمثل الزينة ذات الضوضاء وكان شرق أوروبا مقلقا جنوبها من أول مصاب نهر (الران) من جهة الغرب لغاية مصاب نهر (الدانوب) من جهة الشرق فكان (الاسكندينافيون) و(النورفيجيون) و(الدانيماركيون) يتزاحمون فى الطريق الذى سلكه (الجوتيون) و(الهونيون) الذين احتلوا (تراقيا) و(مقدونيا) و(لومبارديا) و(إيطاليا) سواء بالقوة أو بالخديعة.

«فى ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى وهى تلك الأمة التى قصرت فيما بعد مملكة اليونان على أسوار القسطنطينية.

«التصوير البديع الذى جادت به قريحة المسيو (رينان) لبيان مركز الامبراطورية الرومانية فى القرن الأول من التاريخ المسيحى لا علاقة له البتة بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوروبا فى القرن السادس: تلك كانت مفاسد قيصرية مختمرة، أما هذه فوحشية حربية تلعب بالأرواح وتتمرغ فى الأوحال [1].

«أما آسيا فلم تكن أهدأ بالا من أوروبا فى شىء فمملكة (تيبت) والهند التى اقتبست منها الأمم السائدة فى أوروبا الآن قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها، السياسية والفلسفية، وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية، كانت هذه الممالك كلها متمزقة الأحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية.

«أما السفح الشمالى من الهضبة الأسيوية العالية التى هى فى حوزة الروسيا الآن، فكانت غير معروفة على الاطلاق، أما مملكة الفرس التى كانت أحوالها مرتبطة بأحوال العرب خصوصاً من لدن غارة الاسكندر المقدونى فكانت مشتبكة فى حروب مع اليونان الرمانيين فى القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على اسيا الغربية.

(١) كتاب الأنبياء الفصل السابع عشر نقلا عن المدنية والاسلام ص١٢٩ وما بعدها.

«أما فى افريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعة من آفاق مختلطة دائبين على امتصاص دم القطر المصرى وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجثة المصبرة عديمة الحس والحراك وكان هذا شأنهم أيضا فى الأقاليم الخصبة وقتئذ الواقعة فى الجهات الشمالية من أفريقيا التى انتزعوها من أيدى (الفندالين) .

«والخلاصة كان جو العالم الأرضى ملبدا بسحب الاضطرابات الوحشية فى كل جهة وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة فى أصلاء نيران الحروب والمعارك ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولو يؤثر عليها تأثيرا حدا وان كان وقتيا إلا شىء واحد وهو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحراثين وبسطاء المتسولين. ولا لاشعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق فى بعض صوامع الكهنة وبعض الجراثيم الفلسفية التى كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب وانتقلت من روح إلى روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الرقى فى المستقبل لكانت البربرية أسرعت فى خطاها مقودة بغطرسة زعماء البهيمية واستحالت إلى وحشية محضة.

حالة الجزيرة العربية : كان هذا حال العالم قبل ظهور الإسلام . لكن :

«ومع هذا كله كان هناك ركن من أركان الأرض لم تصبه لفحة من هذه الحركة ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم، بل بسبب موقعهم الجغرافى البعيد عن مضطرب الأمم التى كان يقال إنها متمدينة. ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التى ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة فى أوروبا إلا عن بعد وما كان يصلها ذلك اللغط إلا فى غاية الضعف والضئولة. وكانت تجهل وجود الهند والصين ولم تك تتعدى علاقاتها مع اسيا حدود بلاد الفرس، ولم تعرف لديها الفرس الا بواسطة أخبار الانتصارات أو الهزائم التى كانت من ورائها رد بعض الوديان الغربية القريبة من روسيا

إلى تبعية امبراطرة القسطنطينية تبعية اسمية، أو رفع نير تلك بالتبعية الاسمية عنها. على أن ذلك الوادى الأخير كان يهم بلاد العرب جدا لأن أبناءها كانوا يذهبون اليه للتجارة وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطىء الغربى من نهر الفرات وصعدوا رويدا رويدا إلى بحر قزوين . ومما يشبه المساتير الدينية انها بقيت منفصلة عن القطر المصرى الذى أغار على جنوبه العرب الرعاة ولم ينجلوا عنه تماما إلا بعد أن انجلى عنه بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم.

«أما المملكة الوحيدة التى كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهى بلاد الحبشة، أما الجهة الشمالية من أفريقيا التى أغاروا عليها مرتين والتى كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرمانيين والقطاجيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين فكانوا لا يحلمون بوجودها.

ثم قال المسيو (كوسان دوبو سوفال) فى كتابه تاريخ العرب: «إن المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين أما المتبدون منهم فكانوا فى الحقيقة أحراراً لا سلطة عليهم وكان عرب سورية دائنين للرومان. أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بنى حمير سيادة وقتية فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ولكنها فى الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذى لا غبار عليه».

ثم قال (جول لا بوم): «ولم يكن العرب أحسن استعداداً من غيرهم لقبول أى دين من الأديان قال المسيو «دوزى» فى كتابه تاريخ «عرب إسبانيا»: كان يوجد على عهد محمد «ﷺ» فى بلاد العرب ثلاث ديانات: الموسوية والعيسوية والوثنية ، فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكا بدينهم وأكثرهم حقدا على مخالفى ملتهم، نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية فى تاريخ العرب الأقدمين ولكن ما وجد فمنسوب إلى

اليهود وحدهم أما النصرانية فلم يكن لها اتباع كثيرون. وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية.. وكانت هذه الديانة تحتوى على كثير من الخوارق والاسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسى كثير الاستهزاء. أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الاعظم من الامة الذين كان لكل قبيلة بل أسرة منهم آلهة خاصة ، والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعاءهم لديه فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام. ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم يتحقق إخبارهم بالمغيبات أو لو عولوا على فضحهم عند الأصنام إن قربوا لها ظبية بعد أن نذروا لها نعجة وكان من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصاً الشمس. فكنانة كانت تدين للقمر وللدبران ، وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشترى ، وكان الأطفال من بنى عقد يدينون لعطارد ، وبنو طى يدعون سهيلا ، وكان بنو قيس عيلان يوجهون للشعرى اليمانية وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة أفكارهم الدينية. قال (كوسان دوبر سوفال) فى كتابه تاريخ العرب: «كان منهم من يعتقد بفناء الانسان إذا خلعته المنون من هذا العالم ومنهم من كان يعتقد بالنشور فى حياة بعد هذه الحياة. فكان هولاء الأخيرون إذا مات أحد أقربائهم ينبحون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعاً معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى وهى نوع من البوم لا تبرح تطير بجانب قبر الميت نائحة ساجعة تأتيه بأخبار أولاده فاذا كان الفقيد قتيلا تصيح صداه قائلبه «أسقونى » ولا تزال تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه » .

قال المسيو لا بوم بعد إيراده هاتين الجملتين عن الأستاذين السابقين «وكانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع لو لم تكن الأسرة عندهم بل القبيلة أيضا – وهى نقطة تلفت النظر تهتم اهتماما عظيما بحفظ سلسلة نسبها ، ولو لم يكن – وهو أمر أغرب من سابقه ادراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى داعيا إلى الالتفات بنوع أخص». ثم

قال مباشرة «قال المؤلف المحقق الذى اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقطعة: كان العرب مغرمين بشرب الراح.

«ويوجد من الشعر ما يدل على أنهم كانوا يفرحون ويعجبون به ويلعب الميسر وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج من النساء بقدر ما تسمح له به وسائله المعيشية، وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها، ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الاب وقد حرم ذلك الاسلام وعده زواجا ممقوتا [1] وكان هنالك عادة أفظع من كل ما مر وأشد معارضة للطبيعة وهى وأد الأهل لبناتهم. (أى دفنهم أحياء).

هذا كله لا يشير إلى أن العرب لم يكن فيهم أى جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها، فقد كانوا يحبون الحرية حبا جما ويمارسون فعائل الكرم وبذل القرى، والنجدة والمروءة وقوة الحافظة، وقوة الجلد، والصبر . أما :

«الأفراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الأمة العربية والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب فكانوا قليلى العدد جداً ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة إلى مللهم فاليهود الذين كانوا متشبعين بالأثرة الشعبية على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين لا يرى منهم لليوم خاصية التأثير على غيرهم إلا بالخضوع لقوانين الأمة التى يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية، ولئن شوهد أنهم أدخلوا إلى ملتهم بعض العرب فلم يكن ذلك إلا نتيجة بسيطة لاشتراكهم فى الأساطير التاريخية. وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين. تلك القرابة يستدل عليها بتساويهم فى حب الكسب وتأزيهم فى الاستعداد لعدم الأنفة من سلوك أى طريق من

(١) اشارة إلى قوله تعالى : « ولاتنكحوا مانكح آباؤكم من النساء إلا ماقد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » . النساء : ٢٢ .

الحيل والمكر لنيل كسب أو حطام ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ترق أدبى . أما المسيحيون فكانوا يفدون شيئا فشيئا إلى بلاد العرب هربا من الاضطهادات الدينية التى كانت فى مملكة الرمانيين . ولكن لم يكن فى حالهم نور يستلفت البصر تألقه، وفى حالة مسيحى الحبشة اليوم نموذج لذلك، فانه لا يمكن أن يتحلى الانسان بمدركات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد .

«فى عهد هذه الأحوال الحالكة وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ولد محمد بن عبد الله (ﷺ) فى ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠» [١]

من هذا البيان يرى القارىء الفاضل أن العالم الانسانى كان بحاجة إلى حادث جلل يزعج الناس ويوقظهم عما كانوا فيه ويضطرهم إلى النظر والتفكير فى أمر الخروج من المأزق الذى تورطوا به، ولله فى خلقه سنن لا تتبدل ولا تتحول، فلا يتقادم العهد على دين، ويجمد منه الناس على شكل يمنع ترقيهم حتى يبعث إليهم ما يلفتهم إلى النظر، وينبههم إلى العبر ليجدوا مارث من تقاليدهم وفسد من أحوالهم، وقد جاء الاسلام فأحدث هذه النتيجة المطلوبة بما أقام من الدول وأسقط من الممالك، وأصل من الأصول، وهدم من التقاليد وناهيك به من انقلاب زعزع أركان دولتى الرومان والفرس وهما دولتا العالم إذ ذاك فى أعظم قارتيه آسيا وأوروبا وقد استتبع تزعزع أركانهما ضعفاً سرى فى مجموع تقاليدهما الرثة فتخلصت أمم من نير استبدادهما وتهيأ ما بقى منها للدخول فى أدوار جديدة من الحياة وتلا ذلك كله ما تراه اليوم من النهضة المستمرة فى عالمى العلم والعمل [٢] .

---

(١) نقلا عن المدنية والاسلام ص ١٣١ ومابعدها ، وراجع الإسلام فى عصر العلم ، محمد فريد وجدى ص ٢٣٤ وما بعدها .

(٢) المدنية والإسلام ص ١٣٥ .

والسؤال الذى يطرح نفسه ما هى الأصول الجديدة التى حملها الاسلام للأمم وتغلب بها على جميع الأصول الموجودة لذلك العهد؟

إنها الأصول العلمية والاعتقادية التى تتنازع الحياة كما تتنازعها الأمم فيغلب الأكمل منها ما عداه ويبيده ويستولى على العقول والأرواح دونه ولا يزال سائداً حتى يأتى ماهو أكمل منه فيتغلب عليه كما تغلب هو على ما سبقه وهلم جرا . هذه سنة الله فى الأمم من يوم وجودها إلى اليوم.

نعم قد يتغلب الباطل على الحق أحياناً ولكنه لا يتغلب عليه إلا إذا كان الحق قد ألبس لبوس الباطل وصار بما شيب به من الأضاليل أشد ضرراً من الباطل نفسه. أما ما دام الحق بديباجته الخاصة به لم تشبه شوائب الاضاليل فلا سبيل لأى باطل عليه مهما كان حوله وبطشه.

فاذا قلنا جاء الاسلام فتغلب بأصوله على جميع الأصول التى كانت قائمة على عهده فمعنى ذلك أن أصوله كانت أكمل – ولاتزال – من تلك الأصول القديمة وأصلح للأمم منها.

كانت فى العالم مدنيات وثقافات قائمة قبل مجىء الاسلام وعلى عهده أجملها وأكملها كانت المدنية الرومانية ناهيك أنها تغلبت بها على دول الأرض فلم تبق فيها أمة تنازعها السلطان إلا دولة الفرس فى آسيا وقد يتلو الناس تاريخ الرومان فيرون حروبا تشب وملوكا تتولى، وقوانين تسن، وأصولا تدعم وربما أكبر جهلة المؤرخين هذا الأمر وعدوه مما يصل إلى حد الخوارق ولكن لاهل العلم نظراً غير نظر الجاهلين فان تلك المدنية الرومانية على ما ولدت من الأصول والقوانين ومصرت من الأمصار وأقامت من الآثار كانت مطبوعة بطابع الوحشية وكانت فى أكمل أدوارها بحاجة إلى التعديل والتقويم بل إلى قارعة سماوية تحل بها فتقلبها رأساً على عقب (١).

(١) انظر المدنية والإسلام ص ١٣٦ .

جاء في دائرة معارف لاروس ما ترجمته:

«ماذا كانت نظامات الرومان على وجه الاجمال كانت عين الوحشية والقسوة مرتبة في صور قوانين. أما من جهة فضائل روما مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والاخلاص المطلق للجماعة فهي بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص أما وطنيتها فكانت لابسة لبوس الوحشية فكان لا يرى فيها إلا شرا مفرطا وحقدا على الاجنبي وضياعا لعاطفة الشفقة الانسانية. أما العظمة في روما والفضيلة فيها فكانت عبارة عن أعمال السوط والسيف في العالم والحكم على أسرى الحروب بالتعذيب أو بالاسر وعلى الاطفال والشيوخ بجر عربات النصر».

نقول إذا كان هذا شأن الرومان في نظر العلم فشأن الفرس لا يحتاج لبيان فقد كانت القسوة والاستبداد الحكومي وتأله الاكاسرة وغطرسة القادة فوق ما يتصوره العقل. فان كان الاسلام قد تغلب على الرمانيين والفارسيين فانه لم يغلبهم بقوة سلاحه ونظام جنوده، لان السلاح والنظامات الحربية كانت من خصوصيات تلك الأمم، ولكنه غلبهم بسلامة أصوله، واصالة تعاليمه. فماذا كانت تلك الأصول القديمة وما هي هاتيك الأصول الاسلامية وكيف تغلبت الثانية على الأولى وانتهى الأمر بأن قادت العقول والأرواح معاً؟

الاصل الاسلامي الأول: الاخلاص بين الانسان وخالقه:

كان الرجل من أهل الملل السابقة تحت وصاية الكهنة حتى في خطرات نفسه وهواجسها فلم يكن ليبرم أمراً أو لينقضه في شؤونه الخاصة أو العامة إلا باقرار رجال الدين عليه. ولو وقف الامر عند هذا الحد لكان الحال أشبه بتغلب طائفة على أخرى في الامور الحيوية، ولكن الأمر المزعج أنهم فصلوا ما بين الانسان ومبدعه سبحانة وأقاموا أنفسهم وسطاء بينهما فما كفى الرجل أنه لايستطيع أن يبيع أو يرهن أو يتعاقد أو يموت إلا بحضور أحدهم حتى حرموه أن يدعو ربه أو يتوب إليه من ذنبه إلا بوساطتهم.

فكان الرجل إذا أراد الزلفى من الله رشاهم وملأ أيديهم بالنضار فيؤذن له أن يتصل من مولاه بسبب، وان ضن عليهم وقبض يده عنهم أقصوه عن تلك الحضرة وأوهموه أنهم حبسوا عنه رحمة ربه.

بمثل هذه الايهامات تغلب رجال الدين على عقول الأمم فأصبحت فى أيديهم كالطفل فى يد أمه وناهيك بما يستتبع هذه العبودية من وقف حركة الأفكار، ونضوب معين العقول وتعطل حياة الشعور فلا جرم عاشت الأمم دهورا طويلة وهى فى حالة جمود شامل تحت آصار هذه الوصاية الثقيلة حتى جاء الاسلام بهذا الاصل الأول وهو التخليص بين الانسان وخالقه، فقرر أن الله قريب من عباده يسمعهم ان نادوه ويستجيب لهم ان دعوه. فقال تعالى : «وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى» [1] بل قرر الاسلام أن الله أقرب الاشياء الى عباده فقال تعالى «ونحن أقرب اليه من حبل الوريد» [2] .

ولم يشترط في قبول عبادتهم أن يرأسها شخص من طائفة تنحل نفسها صفة التوسط بين الناس وخالقهم فلكل إنسان أن يؤدى صلاته ونسكه بنفسه. أما الصلوات الجامعة كصلاة الجمعة والعيدين والجماعة فالذى يرأسها الامير نفسه أو من ينيبه عنه ولا يشترط فى النائب والامير أن يكون من طائفة خاصة بل يجزىء فى النيابة كل رجل من المسلمين ولو كان صانعاً أو تاجرا أو زارعا.

---

(١) البقرة : ١٨٦ .

(٢) ق : ١٦ ، والوريد : كل عرق يحمل الدم الأزرق من الجسد إلى القلب ، والوريدان : عرقان تحت الودجين ، والودجان : عرقان غليظان عن يمين ثغرة النحر ويسارها .

و«حبل الوريد» : عرق تزعم العرب أنه من الوتين . يقال : فلان منتفخ الوريد : سيئ الخلق غضوب، ويقال للغضبان : قد انتفخ وريده . المعجم الوسيط مادة : ورد .

بهذا الأصل الاسلامى خلص ما بين الانسان وربه فلم يعد تابعاً لاحد من إخوانه فى البشرية ولم ير لرجل مثله فضلا عليه من وجهة روحانية. فكان هذا الاصل أول حجر وضعه الاسلام فى أساس الحرية الانسانية الصحيحة (١) .

الاصل الثانى : تقرير المساواة العامة :

كان الناس قبل الاسلام ينقسمون الى ثلاثة أقسام : قسم رجال الدين وقسم رجال الحكومة ومن التحق بهم من الشرطة والجنود وقسم العامة. فكان رجال الدين هم الاعلون مكانا، والارفعون مقاماً، وكان رجال الحكومة يلونهم فى الدرجة وكانت الطائفتان معا عاملتين على تسخير العامة لمصالحهما وابتزاز ثروتها واجتياح ثمراتها لسد حاجة شهواتهما وتوفير لذاتهما الأولى باسم الدين وخدمة منزله والثانية باسم السلطة الدنيوية. فلما جاء الاسلام قرر أن الناس كلهم سواء أبوهم ادم وأمهم حواء. لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربى على أعجمى إلا بالتقوى أو عمل صالح فقال تعالى : «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم» (٢) .

بهذه المساواة محيت السلطة الروحية التى طالما سامت الشعوب الخسف وألبستهم لباس الذل، ولم يعد للكبراء والقادة ما كان لهم من مزاعم فى احتكار السلطة وتوريثها ألهم وذويهم بغير حق، وصار ميزان التمايز .

الأعمال الصالحة، والفضائل الحقة، حتى اضطر أول خليفة ولى أمر المسلمين أن يخطب الناس فيقول: «يا أيها الناس قد وليتكم ولست بخيركم ولقد وددت أن واحدا منكم قد كفانى هذا الأمر فلو وجدتم فى اعوجاجاً فقوموه » (٣).

(١) نقلا عن المدينة والإسلام ص ١٤٠ .

(٢) الحجرات : ١٣.

(٣) المدنية والإسلام ص١٤٠ .

الاصل الثالث : تقرير مبدأ الشورى فى الحكومة :

كان الناس قبل الاسلام يرون أنفسهم قد خلقوا لأن يطيعوا طائفة الحاكمين طاعة عمياء، ليس لهم من أمرهم حق النظر فى سلام ولا حرب أو فى ابرام ونقض، فكانوا يسيرون كما تسير الانعام السائمة الى حيث يريدون ولا يريدون. وما نقرأه فى تواريخ الرومان واليونان من تكوين المجالس الشورية وتأليف النظامات الدستورية لم يكن فى حقيقته الا نوعا من الاستبداد فان السلطة فيها كانت لا تزال وقفا على أفراد من الاقوياء، أما عامة الشعوب فكانوا على ما كانوا عليه قبل قيام تلك المجالس والجمهوريات لاحق لهم فى تقويم عوج الحاكمين، وهل كانت المجالس الشورية فى أثينا وروما الا من حظ طائفة الاشراف دون سواهم فتارة كانوا يستبدون بالناس جميعا وطرا يكونون آلة فى يد الحاكم الفرد يسوق العامة بهم الى حيث أراد .

فلما جاء الاسلام قلب هذا النظام رأسا على عقب وجعل لكل فرد حق الرقابة على الحكومة وابداء الرأى فى الشئون العامة فقال تعالى : «وأمرهم شورى بينهم» (١) وقال تعالى «وشاورهم فى الامر » (٢). وزاد فجعل الدين النصيحة قال عليه الصلاة والسلام : «الدين النصيحة. قالوا لمن يارسول الله؟ قال لله ولرسوله وللمؤمنين عامتهم وخاصتهم» .

بهذا الاصل علم كل مسم ان له حظا من ادارة شؤونه العامة فلم يعد يعتبر نفسه آلة فى يد الرؤساء، ولاجسما مهملا فى بناء المجتمع .

---

(١) الشورى : ٣٨.

(٢) آل عمران : ١٥٩.

الأصل الرابع : تعليق السعادة والشقاوة فى الحياة الاخرى على الاعمال والصفات الذتية، لا على الشفاعات والقرابات :

كان الناس قبل الاسلام يعتقدون أن أمر العالم الروحانى بيد رؤساء الدين لاراد لإرادتهم فيه، فهم المسعدون والمشقون، بأيديهم الاثابة بالجنان، والحور والولدان، أو العقاب بالنيران، والتعذيب والحرمان، فكان من لا يمت اليهم بنسب، أو يتصل منهم بسبب يعتبر نفسه فاقداً مزية الحظوة للحياة الأبدية فيعمل على استنزال رضائهم جهده بالمال تارة، والطاعة العمياء أخرى حتى مرنت الشعوب بهذه الوساوس وصارت الذ لة ألصق بها من أقرب غرائزها ففقدت نخوة الاحياء وعزتها، وأصبح الآخذون بتلك الاديان كالآلات الصماء فى أيدى الرؤساء يرمون بهم حيث يشاؤون من متاهات الوجود. ولا تسأل عما يلحق نفوسهم من الصفات، ويلم بمواهبهم من الانحطاطات من جراء مثل هذه العقائد التى تريهم أن الظلم والمحاباة من أخص صفات الحياة. فهل يستقيم مع مثل هذه الحال ميزان الاخلاق وينتظم شأن المعاملات ؟ .

جاء الاسلام فقرر أن مناط السعادة فى الدنيا والآخرة الاعمال الشخصية وان القرابات والشفاعات وجميع أسباب الزلفى من الرؤساء لا تغنى عن الانسان شيئا. فقال تعالى : «كل نفس بما كسبت رهينة» [1] وقال تعالى: «وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى» [2] وقال عن الذين لا يعملون صالحا «فمالنا من شافعين» [3] « فما تنفعهم شفاعة الشافعين» [4] وقال عليه الصلاة والسلام لابنته فاطمة الزهراء (اعملى يا فاطمة فانى لا أغنى عنك من الله شيئاً) وقد ورد فى القرآن أن نوحا شفع لابنه فلم يجبه الله لان ابنه كان غير صالح قال تعالى فى سياق تلك الحكاية «ونادى نوح ربه

(١) النجم : ٣٩.

(٢) المدثر : ٣٨ .

(٣) الشعراء : ١٠٠.

(٤) المدثر : ٤٨.

فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت احكم الحاكمين. قال يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح[1] بهذا الاصل أجهز الاسلام على ما كان قد بقى من سلطة الرؤساء الروحانيين وزاد النفوس نزوعا الى الخلاص من أسر المسيطرين . فأدرك الانسان حقيقة مركزه فى مجتمعه وعالمه، فكيف لا ينتج من هذا الشعور أصل الاعتماد على الذات، والثقة بالقوى النفسيه والاعتقاد بانها كافية فى ايصال الانسان ارقى ما يتوق اليه من درجات السعادة المرجوة فى هذه الحياة وما بعدها.

الاصل الخامس : الاعتراف بحقوق العقل والعلم :

كان الناس قبل الاسلام يعتقدون ان الدين والعقل نقيضان لا يجتمعان وعدوان لا يتفقان، لما كانوا يرونه من الخلاف الشديد بين عقائدهم وعقولهم، وقد غلوا حتى زعموا أن العقل أحط من أن يدرك العقائد فى جلالها وسموها، وزادهم رؤساء الدين ضلالا فى هذا الزعم بما كانوا يبثونه فى أذهانهم من أن حقائق الدين يجب أن تكون أرفع من مدركات العقل ، لانها انما تتنزل عليهم من عالم روحانى يختلف فى جميع شؤونه عن عالمهم الحسى وغاب عن تلك الامم انه لو صح هذا الزعم لصحت جميع الخرافات التى يدعى أصحابها بانها أديان منزلة ولما استطاع انسان أن يميز بين غث وسمين مما يقدم اليه من مختلف المدركات ومتناقض المقالات.

جاء فى دائرة معارف لاروس :

ما ترجمته: «إن قلنا الاحسان يقتضى اعتقاد الأشياء المعقولة قالوا : لا لا. ثم يسعون فى تذليل هذا العقل الانسانى الذى يدعى لنفسه حق التمييز بين الخير والشر وبين العدل والظلم، حتى إذا أعموا عين العقل وغشوا باصرة البصيرة لدرجة بها ترى

(١) هود : ٤٥ ، ٤٦ .

الكرامات كأنها أمور عادية وتظن الابيض أسود وتعد الرذيلة فضيلة يعود الدين فيقول أطيعوا. نطيع من؟ هل نطيع العقل؟ الواجبات الطبيعية، العواطف القلبية، النواميس الحقيقية المفيدة للانسانية والتي تنتج من تلك القواعد نفسها؟ لا ولكن أطع وأنت أعمى للذي يحكم باسم الله حتى ولو أمرك بقتل قائدك أو أبيك أو باحداث مقتلة عامة فانه ليس لك لا روح ولا ضمير انما أنت ميت في الله »(1) .

فلما جاء الاسلام قرر أن العقل مناط التكليف ومحك التمييز بين الحق والباطل وأنه قسطاس الحكم، وفيصل التفرقة بين المشتبهات، فأكثر القرآن من ذكر العقل في مثل قوله (أفلا تعقلون) (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير »(2) . « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .(3) وقال عليه الصلاة والسلام (الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له) وقال (يا أيها الناس أعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه، واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم (4) قال عليه الصلاة والسلام: (لا يعجبكم إسلام رجل حتى تنظروا ماذا عقده عقله) وأثنى قوم على رجل عند رسول الله ﷺ حتى بالغوا فقال لهم: كيف عقل الرجل؟ فقالوا نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ؟ فقال «ان الاحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر ، وانما يرتفع العباد غداً في الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم».

لم يقف الاسلام عند هذا الحد في رفع قيمة العقل بل نحله سلطته المطلقة في الحكم على العقائد فطالب كل معتقد بالدليل على حقيقة معتقده، حتى ذهب جمهور من

---

(1) نقلا عن المدنية والاسلام ص ١٤٢، ١٤٣ .

(2) الملك : ١٠ .

(3) لعنكبوت: ٤٣ .

(4) نقلا عن المدنية والاسلام ص ١٤٣.

العلماء ان ايمان المقلد غير مقبول قال تعالى من باب المطالبة بالدليل: (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه [١] :

(قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين [٢].

وقال من باب النعى على الاخذين بالظنون والأوهام: (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ان الظن لا يغنى من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون) [٣] وقال سبحانه وتعالى : (وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون »[٤].

ثم بين خطر الاعتقاد بدون عقل ولا علم وكشف عن عظم العهدة فى ذلك فقال تعالى : «ولا تقف ما ليس لك به عم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا»[٥].

بهذا الأصل تحررت العقول من أسر العقائد الباطلة وظهر الدين لاول مرة مؤاخياً للعقل، معتضدا به فى تقرير المعتقدات، وتحديد المعاملات. فكان هذا فاتحة عصر جديد دخل به الدين فى مجال المقررات العلمية بعد أن كان مطروحا فى زوايا التوليدات الخيالية. ولا تسأل عما استتبع هذا الاصل من رقى الأمم فى معارج الفهم، وسموها فى مراقى الفقه ووقوفها قوية عالية الرأس أمام أهل الخداع والمطامع من المتأولين للنصوص الدينية الذين يرمون اقيادة العامة بأهوائها، وتسخيرها بأوهامها [٦].

(١) المؤمنون : ١١٧ .

(٢) البقرة : ١١١ .

(٣) يونس : ٣٦ .

(٤) الأنعام : ١١٦ .

(٥) الإسراء : ٣٤.

(٦) وكان هذا مدعاة لقيام حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا .

قال لاروس فى دائرة معارفه: «إذا بحثنا بدون غرض ولا وهم عن سبب الرقى الذى حدث فى العالم المادى والفكرى والخلقى منذ طفولة الجماعات البشرية إلى أيامنا هذه فلا نراه إلا خلاص العقل من الضغط عليه» .

الأصل السادس : المؤاخاة بين الدين والمدنية :

الانسان بما فطر عليه من حب الذات مدفوع لأن يحصل لنفسه أقصى ما يستطيعه من كمال جسدانى ولذة بدنية ويدفع عنها ما يمكنه دفعه من مبيدات الوجود ومهلكاته ، ثم إن ما متع به من القوى المعنوية البعيدة المدى يمكنه من الوصول لأكثر رغائبه مادام يعمل للحصول عليها بالوسائل المقررة.

ولكن قادة الأديان لأجل أن يقبضوا على نواصى الأمم ويسخروها لأهوائهم خشوا أن تكون السعادة الجسدية مغرية للانسان إلى التملص من قيودهم والتخلص من سطوتهم فيضيعوا مكاناتهم الموهومة فمزجوا بتعاليم الدين ما ليس منها من الدعوة إلى الذل والاستكانة وحببوا إليهم الزهد والتقشف نعم أن الله أرسل بعض الرسل بالدعوة إلى الزهد المطلق فى الدنيا ونعيمها ، ولكن كان ذلك لأسباب خاصة فى أحوال تقتضيها لا لأن الدين بطبيعته عدو للمنافع المادية، وخصم للسعادة الجسدية.

فلما ظهر الاسلام قرر أن الدين ليس عدوا للمدنية بل هو دليلها الصادق ومرشدها الخبير فقال تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرجج لعباده والطيبات من الرزق» [1] وقال تعالى : (ربنا آتنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة [2] وقال تعالى : (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين) [3] وقال تعالى : (ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك) [4] .

(١) الأعراف : ٣٢.
(٢) البقر: ٢٠١ .
(٣) النحل: ٣٠ .
(٤) القصص : ٧٧ .

ولما كان العامل فى ايجاد المدنية المادية هو العلم قرر الاسلام طلبه على كل مسلم ومسلمة فقال تعالى : (وقل رب زدنى علماً) [1] وقال: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) [2] وقال: (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) [3] وقال ﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم » [4] وقال : «من علم علماً فكتمه ألجمه الله بلجام من نار » [5] .

الأصل السابع : تنبيه الانسان إلى أن للوجود الانسانى سنناً لا تتبدل :

كان الناس قبل الاسلام يتخيلون أن الجمعات البشرية كقطعان السوائم تصرفها إرادة رعاتها وتقودها إلى حيث يتفق مع مصلحتها، وما كانت أدوار التاريخ فى نظرهم إلا صنع الرؤساء والقادة يستطيعون تغييرها وتبديلها على ما تقتضيه سياستهم فكان نظرهم يتجه إلى أولئك الرؤساء كلما لاح لهم عارض مصلحة، واستشرفوا بارق أمل، ثقة منهم أن إرادة سادتهم كافية فى تغيير كل حال أن هموا به وأرادوه. وفى هذه العقيدة من زيادة توريطهم فى العبودية لهم ما فيه.

فلما جاء الاسلام قرر أن للوجود الانسانى سنناً لاتتحول ولا تتبدل لا تزال عاملة على مقتضى نظامها المقرر لها حتى تبلغ الغاية مما ترمى إليه. فالجماعات البشرية في مجموعها كائنات حية لها أدوار تأتى عليها وحالات تدخل فيها لكل دور منها شؤون ومقتضيات ولكل حال لوازم وعلاقات لابد من ظهورها جميعاً كل فى حينه المقرر له.

هذا الخلاف فى النظر بين القدماء والاسلام ذو شأن خطير فى باب الحقائق العلمية، فالقدماء كانوا ينظرون للقادة نظرهم للآلهة المتحكمين فى إسعادهم وإشقائهم،

(١) طه : ١١٤ .

(٢) الإسراء : ٨٥ .

(٣) الزمر : ٩ .

(٤) رواه ابن ماجه من حديث أنس ، وضعفه الامام أحمد والبيهقى راجع احياء علوم الدين : ١ /٣ .

(٥) أخرجه أبو داود والترمذى .. من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

إرشادهم واضلالهم فكان هذا الضلال فى العقيدة مكسباً وظائف أولئك القادة عظما وجلالا، ونفوس تلك الشعوب حطة وإذلالا ولكن الاسلام يقرر أن الأمم وفى مقدمتها قادتها منفعلون جميعا لقوى متسلطة عليهم تابعة لناموس عام ينظم سيرها ويرتب أفاعيلها على حسب أحوالهم ويقدر استعدادهم وقابليتهم فهو ينظر فى أمر إصلاح الأحوال وترقية النفوس لا إلى القادة المتسلطين ومن ثم أكثر القرآن من الزجر والوعظ والترغيب والترهيب فلم يوجه الكلام فى واحدة للكبراء والقادة ولكنه وجهه للناس كافة مثل قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » (١) و (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم) (٢) وما ذكر أولئك السادة إلا فى معرض النعى على الامم فى استسلامها لضلال قادتها واهواء كبرائها فقال: (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » (٣) بل انه عدهم من آثار حيادها عن الطريق المستقيم كأنهم من كسب أعمالها، وثمرة ضلالها فقال (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) (٤).

ثم إنه لفت الناس لاستخدام قواهم المودعة فيهم إذا أرادوا تغيير أحوالهم، وتحسين شؤونهم فقال تعالى : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (٥).

لا جرم أن هذا الأصل أقوى باعث لهداية الأمم إلى الطرق الحقة فى حصولها على سعادتها وعروجها إلى كمالها. فان الأمم متى عرفت أن بيدها سعادتها وشقاءها وأن أحوالها المختلفة من ثمرة أعمالها لم تعد تعتمد فى تبديل شؤنها على غير جهادها وفى تكميل وجودها على سوى قواها الكامنة فيها.

---

(١) التحريم : ٦ .
(٢) النساء : ١٧٤ .
(٣) الأحزاب : ٦٧ .
(٤) الأنعام : ١٢٩ .
(٥) الرعد : ١١ .

من الآيات الدالة على ما ذكرناه من أن الاسلام قرر أن للوجود الانسانى سننا لا تتبدل قوله تعالى : « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» [1] وقوله تعالى : (قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين)[2].

الأصل الثامن : لفت الانسان لنظام الطبيعة وتوجيه نظره لاسرارها الخفية :

حرم رؤساء الدين على الأمم السابقة النظر فى الكون إلا فيما يمس العبادة ويتعلق بأداء واجباتها فرصد الآشوريون الأفلاك لمعرفة مواقيت العبادة.

وبرع المصريون الأقدمون فى صناعة النقش والتصوير والنحت والتحنيط والبناء بسائق الدين وأيضا لتصوير الآلهة وإقامة النصب لها وبناء الاهرام عليها وعلى الموتى وليس فيما بين أيدينا دين يدعو الانسان للنظر فى الطبيعة لدرس أسرارها واستكناه خافياتها ليستخدم ذلك فى تحسين أحواله وترقية وجوده إلا الاسلام، فانه لما جعل غرضه ترقية الانسان وإبراز قواه الكامنة فيه حرضه على النظر فى الكون فقال: (قل انظروا ماذا فى السموات والارض» [3] وقال: (أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت) [4] وقال: (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب) [5].

لا جرم أن النظر فى الكون يستتبع استكناه نظامه، واستكشاف أسراره ولا يخفى ما فى ذلك الأثر البين فى إقامة الأمم على النظام. وتدريبها على محاكاة صنائع

---

(١) الأحزاب : ٦٢ .

(٢) الأنعام : ١١ .

(٣) يونس : ١٠١ .

(٤) الغاشية : ١٧ ، ١٨ .

(٥) آل عمران : ١٩٠ .

الله فى الابداع والاحكام وقد عملت الامة الاسلامية الأولى بهذا الاصل فبرع منها ألوف من العلماء جعلوا لعلم الطبيعة شأنا يذكر فى تاريخهم. ثم إنهم لم يتخذوه علما كلاميا نظريا بل جعلوه علما عمليا فاستخدموه فى إبلاغ مدنيتهم أوجا لم تصل اليه أمة قبلهم ولا يزال الاوربيون يترجمونه من كتبهم ما يقفهم على أن العرب بلغوا من العلوم الطبيعة شأوا لا يزال مداه مجهولا .

الأصل التاسع : الاعتراف بحق ميل الانسان وعواطفه :

فى الانسان ميول مختلفة وعواطف جمة ، وكلها فيه غريزية طبيعية أودعتها فطرته لتكمله فى شخصه ونوعه وتوصله بما تنشئه له من الحاجات والعاديات إلى أقصى ما قدر له من المدنية.

فالانسان يميل لأجل حفظ شخصه للغذاء والكساء ولحفظ نوعه للزواج والاجتماع ولكنه بما ركب فيه من القوى المرقية لا يقف من هذه الحاجات ... عند حد الضرورة ... على هذا فطر الانسان ومن هنا نشأت مدنياته وعلومه وصنائعه وسيتأدى من هذا الطريق نفسه إلى كماله المنتظر الذى يعلو به عن مستوى الحيوان الأعجم .

كانت قبل الاسلام أديان تنزع إلى وقف تيار هذه الميول بتقرير صنوف الرياضات وأشكال الحرمان ومنها ماعد الزواج دنسا من الأدناس ونظر إليه نظرة للشر الضرورى فكان هذا النزوع من تلك الاديان سببا لتعطيل قوى النفس الانسانية وصدها عن استخدام جميع وسائلها ومنع بذلك ظهور آثارها البديعة فى عالم الحس. فجاء الاسلام معترفا بحقوق هذه الميول الطبيعية غير مطالب الانسان إلا بخصلة واحدة وهى الاعتدال فيها على حد قوله تعالى : (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) [1] حتى أنه لم يحرم عليه الدفاع عن نفسه بالقوة والتبسط فى استعمار الأرض لعلمه بأن الحرب كانت لدى

(١) الأعراف : ٣١ .

بعض الأمم من الحاجات التى لا غنى لها عنها وهى تجتاز دورا من أدوار الاجتماع فطالب ذويه بالعدل فيها . وعدم الايغال فى اشباع عاطفة الانتقام فقرر أولا ضرورة الدفاع بقوله: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) (١) ثم نص على وجوب الانصاف فيها فقال تعالى : (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) (٢).

بهذا الأصل حفظ الاسلام لمتبعيه جميع صفات الأمم الحية المستأهلة للتدرج فى مراقى الكمال البشرى، ولو كان العرب الأولون أمروا بصدم هذه الميول الطبيعية بالزهد والتقشف وحرمت عليهم جميع مقومات الاجتماع من مقابلة القوة بمثلها لما كان من أثره إلا تكوين جماعة من المتبتلة يعيشون ضعافا ويموتون أسرى سواهم من المتغلبين، ولما قاموا بهذه الأعمال الجليلة من بناء مدنية فخمة وإقامة دولة عظيمة وحفظ ميراث العالم من العلم والحكمة ولا نتهى أمرهم كما انتهى أمر كل طائفة مستضعفة مستكينة.

الأصل العاشر: توحيد العالم فى دائرة المعاملات :

يلاحظ الناظر فى الأديان السابقة على الاسلام أن الأثرة القومية ظاهرة فى تعاليمها ظهورا بينا وكثير منها حرم التعدى على الآخذين بها وأحله لمن عداهم من سائر الأمم. من هنا حدث التضاغن والتغابن بين أهل الممالك المختلفة وورث الناس هذه الأخلاق جيلا بعد جيل حتى ليكاد أحدهم يفضل أن يرى الحيوانات الكاسرة ولا يرى وجه رجل يخالفه فى معتقده.

ولكن الاسلام رمى إلى توحيد العالم كله فى دائرة المعاملات الحيوية تاركا لكل أمة حريتها فى اعتقاد ما تريده من العقائد. فقرر لمتبعيه من هذه الوجهة أصولا فقال لهم ان اختلاف الأمم والنحل فى الاعتقادات أمر يقتضيه نظام الكون وأنه مراد لله

(١) البقرة : ٢٥١ .
(٢) البقرة : ١٩٠ .

تعالى وأنه من المحال جمع الأمم على عقائد واحدة فقال تعالى : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) (١).

علم المسلمون بهذه الاية أن هذا الخلاف مراد الله تعالى لحكمة يعلمها هو وان الأمم لا تزال عليه حتى يأتيها أمر ربك فلم تغل مراجل الاحقاد فى صدورهم ولم تلتهب جذوة الأضغان فى نفوسهم بل تركوا ما لله لله وعملوا بقوله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) (٢).

أمر الله متبعى الاسلام بهذه الآية أن يبروا ويقسطوا الى الاجانب عن دينهم الذين لم يقاتلوهم من أجل ملتهم ولم يخرجوهم من ديارهم. ثم أيد ذلك بقوله تعالى بعد هذه الآية : (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم منكم فأولئكم هم الظالمون) (٣).

بهذه الآيات لم يجد المسلم حقدا على مخالفيه ، مالم يفتنوه عن دينه بل أمر بالعدل والبر فى معاملتهم .

لا جرم نشأ المسلمون نشأتهم الأولى والدين أقوى حاكم على شعورهم فلم يشاهد منهم ما يعابون عليه من جهة التسامح مع مخالفيهم، ثم لما انتشر فيهم العلم ونبغ منهم المؤلفون والباحثون لم تكابد هذه النزعة فيهم أدنى انحراف بل زادوها رونقاً بما قاموا به من حماية علماء الملل الأجنبية وما والوه عليهم من الاقبال والاجلال حتى صار أطباء الخلفاء والقادة منهم مثل بختيشوع طبيب الرشيد والمأمون وغيره بين نصارى واسرائيليين لا يعدون كثرة.

(١) هود : ١١٨ ، ١١٩ .
(٢) الممتحنة : ٨ .
(٣) الممتحنة : ٩ .

هذا الاصل الاسلامى يعتبر فى ذاته آية على حقية هذا الدين فان هذا التسامح الدينى لا يكاد يعرفه العالم إلى اليوم وأن أوروبا الحالية على ما حصلته من علم ومدنية لا يزال يرى منها جنوح عن مثل هذا المبدأ الكريم فى أحوال كثيرة.

الأصل الحادى عشر : الاعتراف بناموس الترقى :

ليس فيما بين أيدينا من الاديان التى سبقت الاسلام دين يرفع بالرقى الإنسانى رأسا ، أو يأبه بحصول الناس على ماينفعهم فى أمر حياتهم الدنيوية فلما ولد العلم وتأيدت دولته زالت من على سطح الأرض ولولا أوقاف محبوسة على قادتها لما وجدت لها ممثلا فى بلد متمدين اليوم.

ولكن الاسلام خالف جميع هذه الأديان فى اعترافه بناموس الترقى واعتباره الانسان مسوقا لغايات من المدنية بعيدة لم ينلها إلى اليوم. وهو لاجل تقرير هذا الأصل فى أذهان متبعيه قطع كل علاقة بينهم وبين الأمم السابقة إلا من وجهة تاريخية فلم يعلق تعاليمه على حادثة ماضية، ولم يبن أصوله على أمر سبق الزمن الذى نزل فيه بل قال عن العلاقة الموجودة بيننا وبين الامم السابقة: (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) [1].

هذا الأصل يعتبر اعترافا صريحا بناموس الترقى وقد حقق المسلمون مؤداه فانهم لم يقصروا فى طلب العلم فى عصر من عصورهم بل هبوا هبة رجل واحد فأخذوا كل ما رأوه من علم نافع وصناعة محكمة وجمعوا بين مظاهر مدنيات الفرس والرومان واليونان والهنود.

(١) البقرة : ١٤١ .

الاصل الاسلامي الثاني عشر : تقرير أن الدين شرع لخير الناس ومصلحتهم لا لتسخيرهم واذلالهم :

غرس الأسلام في نفوس ذويه أنه انما شرع لمصلحتهم، وأنزل لترقيتهم وما العبادات التي فرضها الله على عباده [1] ، والسنن التي أمر بها نبيه ﷺ إلا وسائل لفوائد روحانية تأتي من ورائها وليست هي ذاتها مقاصد تطلب لنفسها بمعنى أن الصلاة وما ركبت منه من ركوع وسجود وما يسبقها من وضوء لم تشرع لذاتها بل لما تستتبعه من الفوائد الروحانية والامدادات الربانية وكذلك كل العبادات المشروعة والمناسك المفروضة قال تعالى: (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) [2] وقال في بيان حكمة تشريع الصلاة : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) [3] وقال في بيان حكمة الحج (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله) [4] .

أين هذا من قوم يعتقدون ان الدين لم ينزل الا لتسخيرهم وإذلالهم. وإن الله يود منهم هذه العبادة لذاتها لا لنفع الانسان من طريقها . لا جرم أن مثل هذه الأمم تعتبر الأديان عبأ ثقيلا. فلا ترى مندوحة للتخلص .

---

(١) مثل أركان الإسلام الخمسة ، والطهارة بنوعيها : مائية وترابية والمعاملات ، والانكحة ، والعلاقات الدولية .. الخ .

إنما الهدف منها سمو روح الإنسان وتكريمه .

(٢) المائدة : ٦ .

(٣) العنكبوت : ٤٥ .

(٤) الحج : ٢٦ ، ٢٧ .

الأصل الثالث عشر : حرية البحث والنظر :

أباح الاسلام لمتبعيه البحث والنظر فى الاصول الدينية ناهيك أنه طالب المتمسك بالدليل، وكره الايمان بالتقليد فكانت هذه الاباحة فاتحة رقى كبير فى الأفكار وثمراتها إذا لا يخفى أن الحرية فى البحث تؤدى الى تحاك الاراء، وتنازع الافهام فتتجلى الحقيقة من خلال هذه المنازعات الأدبية بل تتادى العقول الى باحات لا حدلها من العلوم الاجتماعية التى عليها قوام الجماعة ، وحياة الأمة.

أخذ المسلمون يعملون بهذا الاصل فى فروع العبادات ونظام المعاملات فنشأ الخلاف فى الاراء ولكنه كان خلافا سلميا محضا اذ كان الجميع يستندون على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية فكان المتخالفون يعرض بعضهم اراءه على البعض الآخر فيحمى بينهم وطيس الجدال فان أقام أحدهم الحجة على أخيه صرفه عن رأيه وإلا بقى الاثنان على رأيهما، لا يؤديهما خلافهما الى المنابذة والملاحة.

نشأت من هذه الاباحة فى البحث ميول أخرى كلها كانت ذات فائدة فى ترقية الأمة، ودفع الجمود الفكرى عنها مثل الميل لتمحيص الأحاديث ومعرفة صحيحها من موضوعها والنظر فى التفسير وجمع الآراء المتباينة فيه، ونقل اختلاف المؤلين لمعانية والجرى وراء استيعاب اللغة ليفهم على وجهه الحق وغير ذلك فلم تمض مائة سنة حتى رأينا المذاهب تعد بالعشرات فى الفقه وفروعه وإذا كان قد بقى منها أربع فما ذلك إلا لكثرة أتباعها وانتشار زعمائها فى أرجاء الأرض.

ومع هذا فإن أولئك الأئمة الاربعة لم يحتموا على الناس الأخذ بمذاهبهم ولم يدعوا أنهم بلغوا الغاية مما تمس الحاجات اليه فى كل زمان ومكان بل اعترفوا بأن ما جاؤا به هو أقصى ما قدروا عليه وحظروا على متبعيهم الأخذ بما قالوا إلا بعد الفكر فى أدلتهم عليه فقال الامام الاعظم ابو حنيفة : «حرام على من لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى» وكان إذا أفتى يقول «هذا رأى أبى حنيفة وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب».

وكان الامام مالك بن أنس إذا استنبط حكما يقول لأصحابه «انظروا فيه فانه دين وما من أحد إلا ومأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا صاحب هذه الروضة »يعنى رسول الله ﷺ .

وقال الامام الشافعي للربيع: «يا أبا اسحق لا تقلدنى فى كل ما أقول وانظر فى ذلك لنفسك فانه دين ».

وقال الامام احمد بن حنبل: «أنظروا فى أمر دينكم فإن التقليد لغير المعصوم مذموم وفيه عمى للبصيرة»

هذه أقوال الائمة الأربعة أنفسهم ومنها يتضح أنهم أفتوا بحرمة تقليدهم لمن لم يعرف أدلتهم وقد استحال أمر المسلمين اليوم من الجمود أنهم يلومون من يسأل عن أدلة المجتهدين ويدعون أنه يجزىء أحدهم أن يفهم من أقوالهم أو من أقوال تلاميذهم .

لاحظ هذه الاباحة التى قررها الأسلام للنظر وتأمل فى أديان سبقته كان قادتها يحرقون بالنار كل من يأت بفهم يخالف فهمهم ثم قارن بين أئمة هذا الدين فى تحريمهم الأخذ بأقوالهم بدون نقد وبين الحظر العظيم الذى كان يصدر من قادة تلك الأديان على الناس أن ينظروا فيما يصدرونه من الأوامر مدعين أنها والأوامر الالهية فى مستوى واحد، يجب أن تترفع عن كل نقد وتمحيص [1] .

نظرات وعبرة :

هذه الأصول الثلاثة عشر التى نراها من خصوصيات الاسلام قد غالب بها جميع العقائد التى كانت منتشرة على عهده فغلبها وحل من النفوس والعقول محلها ولا يزال يحل بما بقى منها فى أعماق الصدور ويختلط بهوى القلوب . كل ما فى الانسان

(١) راجع المدنية والإسلام ص ١٤٧ ومابعدها بتصرف واختصار .

من تعاليم إنما تتفرع عن هذه الأصول وتشتق منها كاحترام الغرباء والحنان على الاسراء وصيانة حقوق الضعفاء

والسؤال الذى يفرض نفسه هو لماذا انحط المسلمون وفيهم هذه الأصول ؟

حقا إن هذه الأصول الثلاثة عشر التى ذكرت تصلح لاقامة اكرم مدنية فى العالم وتؤلف أشرف مجتمع فيه بل هى أصول تدأب العلوم الكونية والاجتماعية على غرسها فى النفوس، فلماذا انحط المسلمون وهى أصولهم المقررة فى دينهم، وبأى علة تدهوروا وأصبحوا حيارى لا يجدون مخلصا مما وقعوا فيه؟

الجواب ليس بالأمر الصعب. ذلك انهم انحرفوا عنها، وتنكبوا طريقها بل دابروها كل المدابرة وعادوها جد العداء وعملوا على خلافها جهد طاقتهم كأن حظهم من الدين استحال إلى مناقضتها والعمل بما يعاكسها واليك التفصيل:

إن أول الأصول الاسلامية الاخلاص بين الانسان وخالقه، فهل بقى المسلمون على هذا الأصل ؟ لا.

أنهم اتخذوا قبور صالحيهم قبلة يتوجهون إليها وبنوا عليها القباب واتخذوا فوقها المقاصير ورفعوها عن الحد الشرعى ووضعوا عليها العمائم وأشعلوا فيها السرج وقد ورد فى السنة النهى بالنص الصريح عن إدخال القبور فى المساجد وعن إيقاد السرج عليها، حتى لا تفتتن العامة فيعبدوها ويتخذوا من فيها وسطاء بين الله وبين عباده. فترى دهماء المسلمين اليوم لا يدعون الله وحده ولا يرفع أحدهم يده إلا مستشفعاً بواحد من أولئك الصالحين ومتخذا إياه وسيلة إلى الزلفى من خالقه.

نعم إن المسلمين لم يصلوا من هذه الوجهة إلى مثل ما وصل اليه سابقوهم من أهل الملل الأولى ولكنهم حادوا عن أصلهم الأول بما لا يتفق مع روحه الخالصة النقية وزادوا انحرافهم ضوضاء بما يتخذونه من الاحتفالات حول تلك القبور فيما يسمونه

بالموالد فتراهم شيعاً متحلقين إلى حلقات يذكرون الله بأصوات منكرة وبألفاظ لاتفهم صاخبين مصفقين متمايلين مضطربين فاذا فرغوا من ذلك ساروا فى الطرق حاملين الرايات والطبول وطافوا شوارع المدينة على حجال لو رآها النبى ﷺ أو أحد خلفائه لحدهم عليها حد المشاغبين، امتلاعبين بالدين.

أما الاصل الاسلامى الثانى وهو المساواة العامة فقد صدف عنه المسلمون أيضاً فقسموا الناس قسمين قسم سموهم رجال الدين وقسم سموه أهل الدنيا فأبقوا الأولين حيث هم قطعوهم عن الاعمال الدنيوية وقصروهم على خدمة المساجد وتعليم الدين ليس فى طبيعة الاسلام ما يسمح بوجودهم فلم يبلغوا شأو نظرائهم فى الملل الاخرى لا من ناحية التأثير على الارواح ولا من جهة قيادة العامة وتوالت على المسلمين حكومات أقرت هذا التقسيم وأمسكت يدها عن ترقية شؤونهم فبقوا حيث كانوا منذ مئات من السنين يعتبرون من جهة أئمة الدين وحملة شرائعه وليس لهم من جهة أخرى ما لغيرهم من السلطة فصار هذا التقسيم أضر على المسلمين مما كان منه فى الامم السالفة، لان تلك الامم كانت فيها وظائف روساء الدين منصوصاً عليها فى ذات الدين فلما نشأت السلطة الدنيوية وقويت شوكة الشكوك وتنازعت السلطتان قياد الامم حصلت تلك الامم من ذلك التنازع تجارب نفعتها فى تحديد السلطة الدنيوي وردها إلى ما يوافق مصلحتها فيما بعد ولكن نشأ هذا التقسيم فى المسلمين ضد طبيعة الدين بمحض ارادة الحاكمين فلم يكن لطائفة رجال الدين دائرة اختصاص يدافعون عن حدودها وكانوا طول عهدهم العوبة فى يد القادة الدنيويين فلم تشعر الامة من وجودهم إلا برؤية ذواتهم.

أما عن الأصل الثالث وهو تقرير مبدأ الشورى فى الحكومة فقد انحرفت عنه الأمة من زمان بعيد أى من عهد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه حين ناهض الخليفة الرابع ولم يعبأ باجماع أهل الحل والعقد فى إسناد الخلافة إليه فأدرع بالقوة القاهرة لتحقيق أمانية وأوجب على الناس طاعته بقوة السلاح وعهد بالأمر لابنه يزيد وأخذ له البيعة بالأرهاب والرشا فأعطى السيف من استعصى، وبذل المال لمن مد يده،

حتى استتب له الأمر فنجمت نواجم الفتن الداخلية فخرج عليه الحسين بن على بن أبى طالب بالكوفة وعبد الله بن الزبير بمكة ونشبت الحرب الاهلية ثم استقر الأمر لبنى أمية حيناً من الزمان ثم ظهر دعاة بنى العباس فأوغلوا فى خصومهم قتلا وسفكا حتى أسندوا الأمر لأنفسهم فذهلت الأمة عن وجودها بهذه الحروب المتوالية واستكانة للغالب الفاتح وأخطأ العباسيون فى إحاطة أنفسهم بشذاذ الآفاق من الاتراك فصارت الخلافة ألعوبة بأيديهم وقامت فى كل صقع من أصقاع المملكة دولة يرأسها متغلب مغتصب وصارت البلاد بين ثائريهم فى معارك مستمرة حتى سطا عليهم المغوليون فأسقطوا الخلافة العباسية التى لم يكن لها حظ من هذه الوظيفة غير الاسم فضاع أصل الشورى واستحال الأمر الى الاعتماد على القوة وعجز المركز العام عن حفظ وجوده فلم تقف المطامع عند حد واستمر المسلمون فى حركتهم القهقرية حتى ورث الغرب أكثر أصولهم فما شعروا إلا وهم محاطون بالامم الاستعمارية من كل مكان.

أما عن الأصل الرابع وهو تعليق السعادة والشقاوة فى الحياة الأخرى على الأعمال والصفاة الذاتية لا على الشفاعات والقرابات فقد كابد عين الانحراف الذى كابده ما تقدمه من الأصول بسبب الكتب التى كان الدهماء يقرءونها وفيها البطالة والتعطيل والمكانة الأخروية تنال ببعض الأدعية انتشرت هذه الكتب بين المسلمين فصرفتهم عن حقائق الدين وموهت عليهم الأباطيل وصورت لهم العالم الروحانى تصويراً خيالياً وجعلت زمامه بأيدى أفراد من المقربين حاكمة بأن من انتمى إليهم فاز بالحور والجنان، ولو كان عليه من الذنب ما أتعب الملكين، وإن من فاته اللياذ بهم، فاته الخير كله ونسوا قوله تعالي: (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به) وضاع فى نظرهم معنى الثواب والعقاب فى الآخرة واضطرب فى وهمهم ميزان العدل الالهى فبطلت حكمة الترغيب والترهيب وفقدت العبادات والمجاهدات ثمرتها

(١) النساء: ١٢٣.

المقصودة منها واستحال الأمر إلى أمان كاذبة، وأوهام باطلة ولا تسل عما ينبنى على هذا الضلال من ضياع حكمة الدين وخروج أهله عن سننه القويم.

أما عن الأصل الخامس وهو الاعتراف بحقوق العقل والعلم فقد لقى من أعراض المسلمون ما لقى سابقوه من الأصول كيف لا وقد راجت فيهم الحكايات الخيالية مما جمعه جهلة المؤلفين من أساطير الاولين وخرافاتهم، وما رووه عن الأفراد منهم فانحطت قيمة العقل واتسعت أمامهم دائرة الممكنات حتى شملت المستحيلات، واستعدت الأذهان لقبول كل ما يقال ولو كان فيه هدم لأصول الشريعة ثم زادوا فى هذه الطريقة غلوا فحرموا الاعتراض ما يروى من تلك المناقضات للعقل، وأوعدوا من يتجارى على تكذيبها بالحرمان من الرحمة الالهية والاستهداف لسوء الخاتمة فلم يبق للآيات الداعية إلى تعقل الأمور وتدبرها بعين النقد أثر فى نفوس المسلمين وانحطاط مداركهم ووقوفهم موقف العاجز أمام الحقائق الساطعة.

أما الأصل السادس وهو المؤاخاة بين الدين والمدنية فقد انحرف به المسلمون انحرافاً يناسب انحرافاتهم فى كل ما عداه فان الحروب التى وقعت بين أمراء المسلمين فى القرن الثانى وما يليه صرفت الأذهان عن نعم الحياة الارضية ولفتتها إلى ما أعد لها فى الحياة الاخروية. فراجت الكتب الزارية على الدنيا، الناعية على أهلها ولوعهم بها، وأكثر المؤلفون من ايراد الحكايات عن الزهاد والمتصوفة فأشربت نفوس المسلمين الاستكانة والذلة وتوجهت إلى إيثار الزهد والاقلال .

وإن كان مثل هذا الزهد القسرى لا يعد فضيلة .

أما الأصل السابع وهو تنبيه الانسان بأن للوجود الانسانى سننا لا تتبدل فقد انقلب فى نظر المسلمين إلى ضده، لأنهم لما اعتمدوا فى حياتهم على الأوهام والأمانى وعولوا فى تصرفاتهم على الخرافات والاضاليل الموضوعة ذ هلوا عن النظر للواقع المحسوس وشغلهم الطيران فى أجواء الخيالات، عن التدبر فى الحقائق الراهنة فلم

يتحروا الأسباب، ولم يتلمسوا وجوه النجاة وكأنه وقر فى نفوسهم أن تبدل حالهم إلى أحسن حال يجىء بمحض الدعاء أو بحادثة غير الحوقلة والاسترجاع فراجت عليهم الكتب الرمزية الدالة على مستقبل الحوادث كالجفر واعتمد حاكموهم على حركات الأفلاك فاسترشدوا بالمنجمين واستهدوا بالمضللين من المتنبئين فضل سعيهم فى الحياة الدنيا. فلما احتك بهم الغربيون وجدوا منهم أمماً على غير هدى ولا بصيرة لها بدين ولا دنيا فسهل عليهم قيادهم ولولا أن الاستعمار العصرى ترقت أساليبه وصار للعدل فيه حظ كبير لبادت أكثر الأمم الاسلامية كما بادت أمم أمريكا الشمالية والجنوبية تحت سيطرة المستعمرين.

أما الأصل الثامن وهو لفت الانسان إلى نظام الطبيعة وتوجيه نظره لأسرارها الخفية ليستفيد منها لتغذية روحه وعقله ونظامه الاجتماعى فقد حاد عنه المسلمون إذ قصروا العلم عن العلوم الكلامية وصار كل اهتمامهم فى المجهودات العقلية موجها الى تفهم كلام الأقدمين.

فبينما نرى الامم قد وصلت من العلم الطبيعى إلى حيث يستخدمون قوى الماء والهواء فأصبحوا يقطعون القفار المترامية الاكناف فى الساعات المحدودة ويحلقون فى الجو الى أبعد مما تصل إليه النسور والعقبان، تجد المسلمين لا يزالون من علومهم الكلامية فى حال مقيم مقعد. (١).

أما الاصل التاسع وهو الاعتراف بحقوق ميول الانسان وعواطفه فقد خبطوا فيها على غير بصيرة تبعاً لانحرافهم فى الاصول السابقة وهل يميز بين الميول الحقة والوهمية، وبين العواطف الحسنة والرديئة إلا العالمون بأسرار العلوم النفسية وأنى لهم ذلك وتلك العلوم فرع من العلوم الطبيعة وهى قابلة للترقى الى غير حد .

---

(١) مما لا ريب أن المسلمين فى هذا العصر بدأوا يمسكون بأساليب العصر وأفانينه، ويحافظون على ثقافتهم وأصالتهم الدينية.

أما الاصل العاشر وهو العمل على توحيد العالم فى دائرة المعاملات فقد أصابه ما أصاب سائر الأصول إما من عدم الباحثين فى هذا الامر أو لعدم امكان تنفيذه بما دخل فيه المسلمون من الجمود فانهم لذهولهم عن جميع أصولهم الحيية صار أمرهم ليس فى أيديهم وأصبحت شؤونهم الخاصة والعامة تبعاً لشؤن سواهم.

أما الاصل الحادى العاشر وهو الاعتراف بناموس الترقى فقد كابد إنحرافا عظيما فالمسلمون بحالهم وقالهم اليوم يميلون . إلى دور من أدوارهم الماضية فقادة أرواحهم يحلمون باعادة مثل عصر بنى العباس أو سواه مما تكون المدنية الاسلامية فيه بلغت شأوها .

مع أن أسلافهم فى العصر العباسى نهضوا نهضتهم من طريقها الطبيعى فترجموا الكتب الطبيعية التى كانت لليونان والفرس والهنود الى لسانهم وأخذوا فى دراستها وتفهمها حتى برعوا فيها ولم يكفهم ذلك بل رحلوا الى بلاد تلك الامم وتعلموا لغاتها وبحثوا فى مجتمعاتها ونقبوا فى آثارها وتعرفوا نباتاتها وحيواناتها ونقلوا لبلادهم كل ما توسموا فيه الفائدة والمصلحة فهل نحن على الدرب سائرون؟

أما الأصل الثانى عشر وهو تقرير أن الدين انما شرع لفائدة الانسان ومصلحته لا لتسخيره واذلاله فلم يعد أحد يبحث فيه فترى ألوفا من المعلمين يعلمون الدين فى المساجد والمعاهد العلمية مكتفين منه بكيفية الوضوء والصلاة والحج والزكاة ولم يتعرض واحد منهم لبيان الحكمة المقصودة من هذه العبادات حتى وقر فى نفوس العامة والخاصة أنها تطلب لذاتها لا أنها وسائل لغيرها، لذلك يكتفى أحدهم من الصلاة بالركوع والسجود على أسرع ما يكون كأنه مسخر لأداء حركات معدودة لا مزية فيها، وان صام أمسك عن الأكل طول نهاره صاخباً لاغياً مشاغباً كأنه يؤدى سخرة حتى إذا قال المؤذن حى على الصلاة أقبل على مائدته بكليته فلا يزال يملأ وعاءه حتى يعجز عن الحركة ثم يأخذ فى التنقل من ناد إلى ناد حتى يجيء وقت السحور فيعاود الأكل جهد

استطاعته وهكذا فلا ينسلخ شهر الصوم إلا وفى معدته أثر سيء من ذلك النهم الذى سماه صوماً. ولكن لو كان قادة العقائد وقفوا الناس على حكمة العبادات وعرفوهم أنها رياضات لتحصيل الكمال الروحى وتوسعوا فى هذا البحث الخطير بما يليق به من البيان لكان حظ المسلمين منها غير حظهم اليوم.

أما الأصل الثالث عشر ، وهو اطلاق حرية البحث لأولى البصر بالدين فقد استحال إلى عكسه فوقر فى النفوس اليوم أن ليس فى الامكان أبدع مما كان وأن الأمة يكفيها أن تكون عالة على أسلافها فى جميع الكليات والجزئيات ليس فى أمور العبادة فقط بل وفى جميع المسائل الشرعية مما يختص بالمعاملات ولم يكفهم هذا التضييق حتى قرروا أنه لا يجوز لانسان أن يخلط بين المذاهب فيقلد إمامين فى وقت واحد فقرروا العمل بمذهب أبى حنيفة وحده وترك ما عداه من المذاهب وفى هذا من الحجر على أمة برمتها ما فيه. فبينما نرى للأمم الأوربية جماعات تشريعية تواصل العمل فى سن النظامات وتقنين القوانين وتنقيح الأصول وتجديد ما رث منها وبطل موجبه، ترى المسلمين جامدين على شكل واحد منها لا يبغون عنه حولا. فلو كان فى طبيعة دينهم ما يحرم عليهم النظر والتجديد لكان لهم بعض العذر فما بالهم ودينهم يحضهم على النظر ويزعهم عن الوقوع فى الجمود، وأئمتهم قد تبرأوا ممن يأخذ بأقوالهم بدون نقد وقرروا أن باب الاجتهاد مفتوح إلى يوم القيامة.

هل خفى عن المسلمين اليوم أن الحوادث تتجدد وأن النظامات تبلى كما تبلى الأثواب، وأن القوانين تتطور فى حالات شتى لتتفق مع مصلحة الأمة ؟ (١) .

---

(١) انظر : المدنية والاسلام بتصرف واختصار ١٥٨ ومابعدها.

ليس فيما تقدم دعوة للقنوط ، أو اليأس ، وإنما هى كلمة للتذكر وشد العقول ويقظتها ، للواقع المعاصر ، وأن على كل مسلم أن يعمل ماوسعه العمل فى محيطه « قل كل يعمل على شاكلته فربكم بمن هو أهدى سبيلا »[1] .

وحتى يعود للمسلمين مكانتهم لابد من رجعوهم الى أصول الإسلام ، ليقيموا أكرم مدنية فى العالم .

---

(١) الإسراء : ٨٤ .

أسس الوحدة الثقافية [1]

جاء الإسلام فدعا إلى الوحد فقال سبحانه « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » [2] .

« وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » [3] .

نعم لقد دعا الاسلام الى الوحدة على أسس بينة وقواعد راسخة لا يتسرب اليها الضعف ولا يتسلل الى بنيتها التفسخ والانحلال يتضح هذا فيما يلى :

أولا :

وحدة الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فانتزع الخلاف الذى يمكن أن يقوم بين أبناء الامة حول طبيعة الإله، كالذى قام بين المسيحيين عبر العصور المتعاقبة حول طبيعتى الإله البشرية والإلهية كما يزعمون، فالمسلمون جميعا لهم آله واحد خالق قادر مالك، ليس كمثله شيء و«خلقه وعبيده» يستوون أمامه، لا فضل لأحد منهم على سواه الا بالتقوى والعلم النافع والعمل الصالح.

ثانيا :

وحدة الاتجاه نحو كعبة واحدة يتجهون اليها فى صلاتهم حيثما كانوا من كل أطراف الكون وجوانب المعمورة مما يحقق بينهم وحدة الهدف ويعودهم وحدة التوجه

(١) نقلا عن « المنهزمون » : دراسة للفكر المتخلف والحضارة المنهارة ليوسف العظيم ، ص ٢٦٥ – ٢٧١ باختصار.

(٢) الأنبياء : ٩٢ .

(٣) المؤمنون : ٥٢ .

الخالص الذى لا تشتته أهداف جانبية ولا تتنازعه غايات دنيوية تزول، ما دام الجميع يسعون الى رب الارباب ويتجهون الى بيته العتيق فى طهر وصفاء وجهاد دائم لا ينقطع.

ثالثاً :

وحدة الكتاب العزيز الذى يقوم عليه التشريع وتنبع منه الأحكام فى مختلف شؤون الحياة التعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والعسكرية مما يحقق وحدة الفكر ووحدة الثقافة.. وهى من الاسس الهامة التى لا يقوم لأمة بغيرها قائمة، ذلك أن قيام ثقافات عدة وأفكار متطاحنة فى بنية الامة الواحدة إنما يزرع التفكك والانحلال فى صفوفها ويمكن للثقافة الوافدة أن تهيمن وأن تفرض سلطان أصحابها من الغالبين.. ومن هنا كان للأمة المسلمة ثقافة واحدة عبر القرون فى عصور الوحدة، يؤثرون فى غيرهم ويتأثرون، ويأخذون ويعطون بفكر مستنير وعقلية متفتحة تأخذ وتعطى ولكن فى حدود شريعة الله وضمن اطار المفاهيم الاسلامية القائمة على وحدانية الله وحاكمية الخالق سبحانه وأخوة المؤمنين.

رابعـــاً :

وحدة اللغة التى أنزل الله بها القرآن الكريم وحث نبيه الناس على تعلمها والتكلم بها لمعرفة أحكام الإسلام وتفهم تشريعاته، وهى الوسيلة الحيوية الفعالة لتوحيد الفكر ونشر الثقافة، وللإسلام عليها فضل لا ينكره الا المكابر الكنود، فقد حفظها القرآن وصانها الاسلام، ونشرتها بين الامم دعوة التوحيد حتى صارت اللغة الشريفة واللسان الكريم لكل الامة الاسلامية على امتداد رقعتها واتساع ديارها، ولولا مؤامرة الاستعمار الانجليزى فى الهند والفرنسى فى افريقيا والهولندى فى أندونيسيا لما وجد مع العربية فى شبه القارة الهندية والشرق الاقصى ومعظم أفريقيا لغة أخرى تضارعها انتشارا وتفوقها تمكنا على الالسن وفى النفوس..

خامسا:

وحدة الآمال والالام التى تجعل من المسلمين أمة واحدة يحس الواحد منهم بإحساس الآخر فى السراء والضراء، فوطدها الاسلام على أسس من المفاهيم النيرة والمشاعر الخيرة التى جعلت الامة المسلمة عبر عصور الوحدة والازدهار كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى.

يقول سبحانه : «ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص[1] ».

ولو استعرضنا مجال الآمال والالام عبر تاريخنا الطويل لما وجدنا المشاركة الوجدانية الخالصة والوحدة العملية الحقة إلا فى مواقع بدر واليرموك والقادسية وحطين وعين جالوت وغيرها من مواقع العطاء والبناء تتجه الى الله وتمد يد الخلاص للانسان المعذب فى كل بقاع الارض، تحرك فيه نظرته الخيرة وتستثير فيه انسانيته لعله يعود إلى أصالته وفطرته.

سادسا :

وحدة القيم والمثل والتقاليد والعادات وهو أمر لا سبيل الى انكاره فى أمة توحدت عقيدتها ولسانها وفكرها وثقافتها وأمالها والامها .. أن يقوم بينها وحدة فى القيم والمثل والتقاليد والعادات. ومن هنا يدرك المطلعون على حياة شعوب الامة المسلمة كيف ذابت عادات الجاهلية فى ديار العرب، وتلاشت عادات الوثنية فى شبه القارة الهندية والملايو واندونيسيا والفلبين وأفريقيا وغيرها بمجرد أن آمنت شعوب تلك البلاد بالاسلام الذى ينشر بينهم مفاهيم صلة الرحم وحق الجار والحشمة والوقار ونبذ المنكرات وأكل الطيبات ويعلمهم أعراف الأسرة واداب المعاملات وما الى ذلك.

---

(١) الصف : ٤ .

لقد شكا لي[1] من أعرفه: بأنه سافر يوما الى بلد أهله مسلمون متدينون فأحس نحوهم بعاطفة طيبة، ولكنه مع ذلك أحس بغربة بينهم..

قلت له: طبيعي أن يحس انجليزي بغربة بين هولاء المؤمنين!

قال : ويحك ولكني عربي مسلم؟

قلت: لا تعجل.. ألم تعش فترة من عمرك طويلة في بلاد الانجليز؟

قال: بلى.

قلت: ألم تأكل مما يأكلون وتشرب مما يشربون وتلبس مما يلبسون؟

قال : هكذا فرضت علي الحياة..

ولم أعلق على تبريره ولكني سألته: ألم تحمل الفكر والثقافة التي يحملون؟

قال: بلى.

قلت: وهل تصوم رمضان.. وتؤدي الصلاة؟

قال : وقد أخذته العزة بالاثم شأن المنهزمين أو المنافقين الذين يجادلون: هذه أمور شخصية تقوم على العلاقة بين الفرد وربه!

قلت: فما بقي من اسلامك وقد هجرت دينك وتخليت عن قيمك وصببت نفسك في قالب من عادات الغرب وتقاليدهم؟؟ وتريد ألا تشعر بغربة بين قوم مؤمنين يقيمون الصلاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر! إن شعورك نحو القوم المسلمين الذين زرتهم بعاطفة طيبة كما ذكرت مرده الى فطرتك الأصيلة ونشأتك الاولى.. وشعورك بالغربة بينهم مرده الى الدخيل من العادات المستوردة من القيم والتقاليد والثقافة التي استقرت في نفسك وجرت في دمك وصارت جزءا من حياتك اليومية وأسلوبك المعاشي الوافد!..

---

(١) المتحدث : يوسف العظيم .

وبعد : فأية أمة تقوم وحدتها على مثل هذه الدعائم المتينة والأسس الراسخة ولا تكون أمة قائدة رائدة تتسلم زمام القيادة الفكرية والسياسية وتؤدى دورا حضاريا واضح المعالم فى جنبات الكون وفى مجالات الحياة الانسانية كافة؟

ومن الواضح الذى لا يغيب عن القلب البصير والعقل المستنير الدعوة المبثوثة فى ثنايا القرآن للمؤمنين باعتبارهم امة واحدة وجماعة متكاملة متماسكة لا مجموعة من الأفراد لا يربطهم رباط ولا يؤلف بين قلوبهم ميثاق.

إن المتتبع لآيات الخطاب فى القرآن الكريم يجدها جميعاً ودون استثناء قد وردت بصيغة الجمع لا المفرد والامة لا طبقة دون طبقة أو فئة من الناس دون الأخرى:

«يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » [1].

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » [2] .

«يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير كم ان كنتم تعلمون» [3].

وهكذا.. يمضى الخطاب فى الكتاب الكريم على هذا النسق فى مخاطبة الأمة لا الأفراد فى شتى مجالات النشاط التى تشمل السلوك والعبادة والقيادة ليقرر وحدة الامة وتماسكها فى الهدف والسلوك والعمل.. ومن هنا كان النداء الذى يحرك فى المسلمين – لو وعوا كتابهم – لتحقيق الوحدة التى تحفظ كيانهم وتصون وجودهم وتصنع أمجادهم وترفع مكانتهم بين الناس:

---

(١) التحريم : ٦.

(٢) البقرة: ١٨٣.

(٣) الصف: ١٠، ١١.

«وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون»(١) .

محاولة الغرب تفتيت الوحدة الإسلامية الثقافية :

أن الغرب الرأسمالى فضّل بعد سلسلة من المحاولات الفاشلة القضاء على كل أثر للمسلمين فباء بالفشل ، ونسى فى غمرة حماسه أن الله سبحانه هو الذى يتولى حفظ الإسلام ، وإظهاره ، وإحقاق الحق ، وأزهاق الباطل . بدليل :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(٢) .

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون »(٣) .

ولايتأتى حفظ الإسلام بدون حفظ المسلمين الذين يدافعون عنه ولكن الغرب قرر وبإصرار ان يفسح المجال أمام الغرب الشيوعى فى روسيا - روسيا غربية فى الجغرافيا التاريخية ، وكل المناطق الآسيوية التى يتحكم فى مصيرها النظام الشيوعى السوفياتى هى مناطق إسلامية كليا - لمشاركته فى التحكم بهذه المنطقة بعدما تأكد له بالتجربة أنه وحاجزه الوقائى (إسرائيل) لن يتمكنا مهما كلف الأمر من تحقيق الهدف الذى رسمه العقل الغربى منذ الغزو الصليبى ، فجاء لورنس يبلوره ويحدده بوضح ، بعدما حاز على لقب « ملك العرب غير المتوج » ، « وأمير مكه » ،

قال لورنس :

« أهدافنا الرئيسية ، تفتيت الوحدة الإسلامية » .

---

(١) الانبياء : ٩٤.

(٢) الحجر : ٩ .

(٣) التوبة : ٣٣ .

لقد قرر الغرب الرأسمالى الاستعانة بخبرة الغرب الشيوعى فى مكافحة أخطار «الإسلام» وهو صاحب التجربة الضخمة فى محاولات القضاء على مسلمى الجزء الآسيوى من روسيا الحالية :

فقد أعلن الاتحاد السوفياتى – سابقا – عبر مجلته « العلم والدين » مايلى :

« إن بين الاشتراكية العلمية والأديان السماوية صراعا مستمرا . لقد ادركنا فى الاتحاد السوفياتى – سابقا – منذ البدء خطورة بقاء الميراث الدينى على حاله فى المجتمعات السوفياتية : مسيحية أو إسلامية ولا زلنا نواجه اليوم تحديات خطيره ، وخصوصا فى المناطق الإسلامية ، لذا قرر المؤتمر الثانى والعشرون للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفياتى زيادة اليقظة والحذر ، وتجديد العزم على قهر البعث الدينى فى المناطق الإسلامية .

وحين نستخدم الميراث الدينى ، ونظهر الأهتمام به فى مرحلة التحويل الاشتراكى، فلنفعل ذلك ، وبين أعيننا وصية انجلز التى تقول :

« حتى لو كان فى الإنجيل ، والكتب الدينية الأخرى صفحة هنا وآية هناك تصلح لتأييد التفسير الاشتراكى للأشياء ، فإن علينا دائما أن نتذكر بأن جوهر الدين كله معاد للاشتراكية .. »[1] .

ويقول أرنولد توينبى [2] : معلنا رأيه فى مستقبل الإسلام ، وأن فاعليته ودوره متعلقان بظروف دولية واجتماعية وثقافية واقتصادية قائلا :

« صحيح أن الوحدة الإسلامية نائمة ، لكن يجب ان نضع فى حسابنا ان النائم قد يستيقظ إذا ثارت البروليتاريا [3] العالمية للعالم المتغرب ، ضد السيطرة الغربية ،

(١) د. صلاح الدين المنجد : بلشفة الإسلام ص ٢١ – ٢٣ ط الثانية عن لورنس العرب ص ٩٢ و ٩٣ .
(٢) فيلسوف ومؤرخ شهير .
(٣) الطبقة العمالية .

ونادت بزعامة معادية للغرب فقط يكون لهذا النداء نتائج نفسانية لاحصر لها فى إيقاظ روح النضال الإسلامية حتى لو انها كانت نائمة نوم أهل الكهف إذ يستطيع هذا النداء أن يوقظ أصداء التاريخ البطولى للإسلام .

وهناك مناسبتان تاريخيتان ، كان الإسلام فيهما رمز سمو المجتمع الشرقى فى انتصاره على الدخيل الغربى :

ففى عهد الخلفاء الراشدين بعد الرسول حرر الإسلام سورية ، ومصر من السيطرة اليونانية التى أثقلت كاهلها مدة ألف سنة تقريبا .

وفى عهد نور الدين ، وصلاح الدين ، و المماليك احتفظ الإسلام بقلعته قوية صامدة أمام غزو الصليبيين والمغول .

وهكذا .. فإن الوضع الدولى الراهن ، إذا سبب حربا عنصرية .. يمكن للإسلام حينئذ أن يتحرك ليلعب دوره التاريخى مرة أخرى .. وأرجو ألا يتحقق ذلك .. (١) !!

والملاحظ هنا ان توينبى يتنبأ بمستقبل للإسلام ، يأخذ دوره التاريخى بجدارة واقتدار ، ويستمر فى تحذيراته وإنذارته للغرب إلى أن يستعمل كلمة « إنذار » بالذات فيقول :

« إن السوابق التاريخية تنذر Warn بأن الإسلام إذا دخل عالم بروليتاريا الحضارية الغربية الحاضرة فإنه قادر فى النهاية على منافسة الهند ، والشرق الأقصى، وروسيا على الغنيمة ، وقادر على التأثير فى المستقبل بأساليب عدة تسمو على فهمنا وإدراكنا (٢) ..».

---

(١) نقلا عن لورنس العرب .. ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٢) نقلا عن نفس النرجع ص ١٠٠ .

ومن ثم يعرب توينبى فى محاضرة ألقاها سنة ١٩٥٢ مؤكدا عن قلقه من دخول الإسلام الى عالم بروليتاريا «الحضارة» الغربية الحاضرة لأن السوابق التاريخية على حد تعبيره« تنذر» بأن الإسلام :

«قادر على منافسة الهند والشرق الأقصى وروسيا على الغنيمة !! ...» وقادر أيضاً على التأثير فى المستقبل – أى مستقبل العالم – بأساليب تسمو على فهمنا وإدركنا »[1] .

إن توينبى لايجد مفرا من الاعتراف بصلاحية الإسلام للمجتمعات فيقول :

إن « تمييز بعض مبادئ الإسلام التى إذا هى طبقت فى الحياة الاجتماعية للبروليتاريا العالمية الحديثة ، يمكن ان تولد نتائج حسنة ومفيدة لهذا المجتمع الكبير فى المستقبل القريب » .

إلا أن توينبى يعتبر حدوث ذلك رد فعل لـ« مصدرين ظاهرين من مصادر الخطر:

الأول : نفسانى ، **والثانى** : مادى .. فى العلاقات الراهنة بين البروليتاريا العالمية وبين الفئة الحاكمة فى المجتمع الغربى ، ومصدر الخطر .. :

١– التمييز العنصرى .

٢– الخمر .

فهذا الخطران سبب من أسباب قلق الغرب واضطرابه .

---

(١) نقلا عن نفس المرجع ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

شمولية الإسلام :

لايريد توينبى وهو الفيلسوف المؤرخ الشهير أن يقر بأن دور الإسلام هو دور يتميز بالشمولية ، على صعيد تأثيره وفعاليته ، عملا وواقعا لافكر أو نظريا فحسب وبالحتمية بالنسبة لقيامه بهذا الدور .. سواء سنحت له ظروف العالم الراهنة أم اعاقته ، وسواء سمحت له بذلك القوى الكبرى المحركة لعالم اليوم أم لم تسمح .

ثم يعترف توينبى بأن « عدم وجود التمييز العنصرى بين المسلمين هو أحد أبرز الانجازات الاخلاقية للإسلام ، والعالم المعاصر فى وضعه الراهن بحاجة ماسة الى نشر هذه الفضيلة الإسلامية »[1] .

.. إن دراسة الإسلام ، وتاريخه الحضارى والثقافى تحتاج الى عقل حضارى رحب الأفق : أصيلة أعماقه الفكرية ، بالمحبة ، والإنسانية ، لا رواسب صليبية فى القرار ، ولاطبقات عنصرية ولاإسرائيلية على السطح : فالإسلام لايعترف ، قبل كل شئ بالوضع الراهن للعالم برمته .

وليست المشكلة فى تدهور حالة العالم هى فى التمييز العنصرى ، أو فى الإدمان على الخمر فحسب ، أو فى أى شئ من هذا المستوى ، أو أكثر أهمية وأرقى . المسألة أهم من ذلك كله بكثير ، وأعمق ..

إن توينبى يتجه تفكيره إلى قياس « مبادئ الإسلام» . كتراث أو نظريات بسوابق تاريخية ليخلص إلى الإيحاء بأن مثل « الإسلام»[2] قام بدور مماثل فى الماضى (كحضرات الاغريق والسوريين ، والفرس والفراعنة ، والبابليين والهنود ») ، لما هو مهيئ له الإسلام فى المستقبل ..

---

(١) نقلا عن لورانس العرب ص ١٠٦ .

(٢) نفسه ص ١٠٧ .

يستعمل توينبى فعل Warn أنذر ، دلالة على .. مبلغ قلقه ورعبه وجزعه من نتائج وعى البروليتاريا العالمية للإسلام ..

لكن

المقارنة تجرى – عادة – على أساس أن المقارن بينهما متساويان ، أوهما على مستوى ما من التشابه والتماثل : هذا يملك ميزة أهم من ذلك ، وذاك يتميز على صعيد آخر .. وهكذا .

أما أن تقارن بين كتاب ودجاجة ، فما أوجه المقارنة بينهما ؟

الكتاب مصنوع ، والدجاجة مخلوق .

ثمة الملايين من البشر ، يستطيعون صنع الكتاب ، لكن ثمة خالقا واحدا فى الكون للدجاجة ، ولغير الدجاجة ، وللكون برمته .

لا رد بغير هذا على وضع توينبى « الإسلام» والهند الشرق الأقصى ، وروسيا على قدم المساواة والمنافسة الواحدة (١) ....

فأساس المقارنة خاطئ تماما بين الحضارة الصينية التى ولدت وعاشت وماتت ، وبين الحضارة الإسلامية التى لاتموت رغم رقودها المؤقت المصطنع ، والمقدر من لدن خالق الدجاجة سبحانه وتعالى .

أما تعبير « الغنيمة » فى كلمة توينبى فهو طبيعى بالنسبة لعقلية مادية صرفه مغرقة فى المادية ، وهى العقلية التى تَسِمُ عقلية المدنية الغربية وجودا وروحا (٢) .

---

(١) انظر : لورنس العرب ص ١٠٨ .

(٢) المرجع نفسه : ١٠٩ .

فإذا اعترف توينبى بفضيلة المساواة فى الإسلام ، فإنه يتمنى نشرها فى عالم الغرب ، لترقيع المدنية الغربية ، وتأخير أجلها المحتوم .

إن الإسلام وحده و بشموليته يستطيع أن يصنع حضارة ذات ثقافة أصيلة ، لقد جاء الإسلام منقذا أو مصلحا ، فقال : « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها » [١] .

لكنه لم يأت كمؤثر هامشى ، وأداة لترقيعات لأبنية متهالكة أساساتها تختلف عنه جوهريا ..

الإسلام جاء ليعيش رحمة للعالمين .

« وما أرسلنك إلا رحمة للعاملين » [٢].

ليس هو بأفيون الشعوب ، ولابناظم علاقة العبد بربه فحسب ، وعلى العبد بعدها أن يصوغ المبادئ والنظم التى يشتهى ويحب ، فيغدو هذا العبد بعدها يشرع ويضع الدساتير ، الها آخر على الأرض [٣] .

لقد بلغ الإنسان ذرى العلم ، أرضا وكواكب ، حتى صعد القمر ، لكنه لم يستطع، ولاهو بمستطيع أن يبلغ أدنى حافة النفس الانسانية فيداويها بمايرضيها، ويجعل لها مستقرا من طبيعة فطرتها .

ذلك كله نتيجة طبيعية لخروجه وتمرده على عبادة الخالق الأوحد ، إلى عبادة الأصنام ، أصنام من رجال ، وأصنام من مبادئ وضعية وأصنام من عقائد ، وأصنام من شعارات ، على حد ما يقول الملك **فيصل ابن عبد العزيز** رحمة الله تعالى [٤].

---

(١) الأعراف : ٥٦ .

(٢) الأنبياء : ١٠٧ .

(٣) انظر : لورنس العرب : ١١٠ .

(٤) راجع زهدى الفاتح : لورنس العرب ص ١١١.

دور المسلمين اليوم :

لقد حان الوقت لخروج المسلمين لنشر الإسلام ، وإغاثة الإنسانية التائهة ، هذا هو قدر المسلمين الذين ورثوا تركة الأنبياء جميعا عليهم الصلاة والسلام ، فإن تقاعسوا ، عم الشر والفساد ، ولن تنجو منه حتى المجتمعات الإسلامية .

يقول مارماديوك باكتول :

إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم فى العالم الآن بنفس السرعة التى نشروها بها سابقا بشرط أن يرجعوا إلى الأصول والأخلاق التى كانوا عليها حينما قاموا بدورهم الأول، لأن هذا العالم الخاوى لايستطيع الصمود أمام روح حضارتهم (١).

هل الإسلام يدعو الى النزعة الفردية ؟

من الحق أن نقرر ان الاسلام يحتل مكان الصدارة بين الديانات التى تدعو الى التعاون ، وتحارب العزلة ، والانكماش ، وتقوى صلة الفرد بالمحيط الذى يعيش فيه عن طريق العبادة والتربية والتشريع (٢) . لتحقق التوازن بين الفرد والمجتمع .

«ومع كل هذا فقد بدا لبعض المستشرقين ان يصوروا المسلم عل أنه ذو نزعة فردية لاتقاوم ، لم يعرف معنى رباط التضامن فى يوم من الأيام » (٣) .

وإن الدين الإسلامى – كما يقول بعض المستشرقين .. يحترم النزعة الفردية ، ويقدسها ، ولايعرف معنى اندماج النفوس وتلاشيها فى تنظيم كبير :

---

(١) نقلا عن رسالتى إلى أهل المعاكسات ص ١٢ ص الأولى ١٤١١ هـ دار الراية – الرياض .
(٢) راجع د . مصطفى السباعى : أخلاقنا الاجتماعية ص ٤١ .
(٣) أخلاق وعادات المسلمين تاليف جوتييه ص ٢١٦.

« فليست الأعمال الجماعية مثل صلاة الجمعة ، ووقفة عرفات ، وصلاة الأعياد ، إلا اعمالا فردية يؤديها المؤمنون فى وقت واحد ومكان واحد ، دون أن تتخذ طابع الاحتفالات الموجهة ، أو المنظمة وفق تنسيق خاص » (١) .

وهذا كلام عار عن الصحة ، فإن من يشاهد المؤمنين فى الصلاة يراهم مصطفين فى نظام جميل ، متلاصقين كتفا الى كتفا ، الغنى بجانب الفقير ، والرئيس بجوار مرؤوسيه فى وضع واحد ، واتجاه واحد ، ودعاء واحد ، كل منهم يدعو للجميع : «إياك نعبد وإياك نستعين ، أهدنا الصراط المستقيم » .

إنهم جميعا يطلبون النجاة والفلاح ، ليس فقط لمجموعة المصلين ، وإنما لجميع عباد الله الصالحين أينما كانوا : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » (٢) .

بيد ان هناك بعض المستشرقين المنصفين عكس مايراه غيرهم من المتعصبين ،، ففى (كتاب الإسلام والجماعة المتحدة (٥)) جاء فيه :

« إن فكرة (الأمة) – كما جاء بها الإسلام – هى الفكرة البديعة التى لم يسبق إليها ، ولم تزل إلى هذا الزمن ينبوعا لكل فيض من فيوض الإيمان يدفع بالمسلمين إلى (الوحدة) فى أمة واحدة ، تختفى فيها حواجز الاجناس واللغات ، وعصبيات النسب والسلالة . وقد تفرد الإسلام بخلق هذه الوحدة بين اتباعه ، فاشتملت أمته على أقوام من العرب والفرس ، الهنود ، والصينيين والمغول ، والبربر والسود والبيض ، على تباعد الأقطار ، وتفاوت المصالح ، ولم يخرج من حظيرة هذه الأمة أحد لينشق عليها ، ويقطع الصلة بينه وبينها » (٤) .

فهل بعد هذه الشهادة من رجل أجنبى أن يقال : إن المسلم ذو نزعة فردية ؟ .

---

(١) راجع « الإسلام » فى مجموعة « التاريخ والمؤرخون » تاليف : جود فروا ديموجين ، ص ٧٣٩ . نقلا عن لمحات فى الثقافة الإسلامية ص ٢٤٣ .

(٢) انظر د. محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القران الكريم ص ١١٠ .

(٣) مونتجمرى وات .

(٤) عباس محمود العقاد : مايقال عن الإسلام ص ١٨٣ .

الخاتمـــة

وأسأل الله حسن الخاتمة

وفى نهاية المطاف أقدم لك أيها القارئ المفضال رحيق الختام ليكون زادك فى هذه الحياة ومابعدها .

فـإن الإسـلام الحنيف الذى ارتضـاه الخـالق لأعظم لنادينا أعطانا مـفـتـاح السعادتين فى الدنيا والآخر عندما قال فى محكم التنزيل :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا » .

إن ثقافة الإسلام ثقافة معطاءة تريك الحق وترغبك فيه ، وتريك الباطل وتحذرك منه :

تدعوك إلى عبـادة الرحمن ، وتبـغضك من اتباع الشيطان فطريق الرحمن هو طريق الحق ، وطريق الشيطان هو طريق الغواية والباطل .

والباطل لابد وأن يزهق ، والحق لابد وأن ينتصر ، « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق »

« فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

لابد أن نعـترف أن للإسلام أعداء يتربصـون به الدوائر وهـذا شـأن القـوى الذى يعمل له المخالفون ألف حساب ولولا قوة الإسلام وحفظ الله تبارك وتعالى له لاندثر كما اندثرت أديان سبقته على مر الزمن .

ومن ثم كـان لابد من تحـذير المسلمين مما يحـيق بهم من أقـوال قـادة الغـرب ومستشرقيهم فهذه وثيقة محفوظة فى دار الوثائق القومية فى باريس تقول [1] : إنه لا

---

(١) القائل هو لويس التاسع ملك فرنسا الذى أسر فى دار ابن لقمان بالمنصورة .

يمكن الانتصار على المسلمين من خلال حرب وإنما يمكن الانتصار عليهم بواسطة السياسة باتباع مايلى :

أ- إشاعة الفرقة بين قادة المسلمين وإذا حدثت فليعمل على توسيع شقتها ما أمكن حتى يكون هذا الخلاف عاملا فى إضعاف المسلمين .

ب- عدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية أن يقوم فيها حكم صالح .

جـ- إفساد أنظمة الحكم فى البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد والنساء ، حتى تنفصل القاعدة عن القمة .

د- الحيلولة دون قيام جيش مؤمن بحق وطنه عليه يضحى فى سبيل مبادئه .

هـ- العمل على الحيلوله دون قيام وحدة عربية فى المنطقة .

و- العمل على قيام دولة غربية فى المنطقة العربية تمتد حتى تصل إلى الغرب .

غاية المبشرين والمستشرقين والمستغربين خلق تخاذل روحى وشعور بالنقص فى نفوس الشرقيين المسلمين ، وحملهم على الرضا والخنوع للمادية الغربية .. وهذا كله لإحداث عملية التغيير الثقافى ، أو الإحلال الثقافى ، فلا بد من كشف ألاعيب هؤلاء أمام المسلمين ليأخذوا حذرهم ، وما مؤتمر السكان العالمى الذى حضرت له الأمم المتحدة، وعقد فى القاهرة ليس عنا ببعيد .

فقد كنا ننتظر منه بحث مشاكل السكان فى العالم ، بحيث :

أ- يطالب بشدة الدولة الغنية عدم القاء جزء من محصولاتها فى البحار .

ب- حث الدول بزرع صحاريها وعدم تركها هملا دون تعمير أو استصلاح ، وعلى كل دولة لديها صحارى أن تعلن لمواطنيها : « من أستصلح أرضا مواتا فهى له » .

جـ- مطالبة الدول التى لها سواحل على البحار الغنية بالثروة السمكية لإطعام رعاياها .

د- عدم السماح للمواطنين بمساكنة الموتى فى قبورهم ، وإيجاد البديل لهم . خاصة إذا كانت بعض الدول كمصر لاتشغل سوى ١٠ ٪ من أراضيها على وجه التقريب.

هـ- مساعدة الباحثين عن المتعة الحلال كالزواج بمساعدتهم ، وعدم التضييق عليهم بعدم وجود المساكن أو عدم إيجاد العمل المناسب فهذه كلها أمور توضع أمام الحكومات لحلها ، حرصا على مواطنيها التى تتكلم باسمهم فى المحافل الدولية .

كنا ننتظر من المؤتمر العالمى للسكان مثل هذه المطالب وغيرها لرفع درجة التنمية ، وإصلاح حال السكان فى العالم ولكنه فجر قضايا ... الغرب نفسه يصرخ منها .

فقد فجر قضية الإجهاض ، فقوبل بعاصفة من الاعتراضات .

وقضية الشذوذ الجنسى ، فهل جاء الإيدز طاعون العصر إلا بسبب هذا ؟

وقضية تعليم الأدب الجنسى للشباب المراهقين . على وجه الخصوص يعنى أن المؤتمر حول الأنظار إلى قضايا فرعية ، كل دولة أعلم بشئونها منه ، بل كل أسرة تستطيع أن تحلها بنفسها ، دون الحاجة إلى عقد مؤتمر عالمى .

و- أما قضية التنمية التى يقوم عليها تقدم المجتمع العالمى وسعادته فكانت قضية هامشية .

ز- الأدلة : البوسنة والهرسك ، قضية كشمير ، جنوب السودان ، أعتداءات إسرائيل ماذا فعل لها المؤتمر ؟

وبعد :

فإن البحث الذى بين يديك أخى القارئ قد حلق بك فى أفق الثقافة الإسلامية فاقتطف لك من كل بستان زهرة ، ووضعها فى باقة من المعلومات المفيدة النافعة ، ونبهك وحذرك من الأشواك التى توضع فى طريق كل ماهو إسلامى ، فإن الغرب ، وضع نصب عينيه عرقلة سير الإسلام وأهله ، حتى لاينتشر نوره ، وتعم فى الأرجاء ثقافته ، وحضارته.

بيد أن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون ، وإننى أضع أمامك حقيقة الثقافة الإسلامية فى كلمات وجيزة :

الحق أن الثقافة أو الحضارة التى نعتز بها، وننتمى إليها، ثقافة عربية إسلامية معاً. لا نقول هذا تملقاً للعروبة ، ولامجاملة للإسلام، إنما هى الحقيقة التى تدل عليها كل الأدلة.

هى ثقافة عربية، بحكم اللغة الأساسية التى كتبت بها، وعبرت عنها.

بحكم روح القرآن العربى السارية فى جنباتها، المؤثرة فى أعماقها.

بحكم تأثير البيان النبوى العربى والأسوة المحمدية فى مسيرتها.

بحكم أن العنصر العربى كان هو العنصر الأول فى تكوينها.

بحكم أن جزيرة العرب كانت مهبط وحيها، ومنطلق دعوتها.

وهى مع ذلك، وقبل ذلك، ثقافة إسلامية بلا ريب.

بحكم الأهداف التى تتوخاها، والحوافز التى تدفعها.

بحكم الفلسفة والتصورات التى تحركها وتفجّر طاقاتها.

بحكم الأجناس والعناصر الإسلامية المختلفة التى شاركت فيها عرباً وعجماً.

بحكم الرقعة الواسعة التى كانت مجالاً لها من الصين شرقاً إلى شواطىء الأطلسى غرباً.

فالأصوب – إذن – أن نقول : ثقافة عربية إسلامية، وحضارة عربية إسلامية، وبذلك ننصف الحقيقة، وننصف العروبة والإسلام جميعاً.

ويزداد هذا الأمر وضوحاً عندمانقرأ عن مكوِّنات هذه الثقافة وخصائصها [1]. فى ثنايا هذا البحث المتواضع الذى بين يديك .

والله ولى التوفيق .

د. محمود محمد رسلان

(١) د/ يوسف القرضاوى : الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة ص ١٦ ، ١٧.

ثبت المراجع حسب ترتيب ورودها فى البحث

١- القرآن الكريم .

٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقى ، ط. الشعب، مصر.

٣- المعجم الوسيط ، ط مجمع اللغة العربية ، مصر .

٤- أثر الثقافة الإسلامية فى تكوين الإنسانية : للأستاذ روبرت بريفالت . ترجمها بإذنه وعلق عليها : السيد أبو النصر أحمد الحسينى : مكتبة دار الكتب الحديثة ش الجمهورية - عابدين ، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م .

٥- الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة ، د. يوسف القرضاوى ، ط الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م .

٦- منهج الثقافة الإسلامية محب الدين الخطيب ، ط الأولى ١٤٩٥ هـ ، ط السلفية ، القاهرة .

٧- خصائص النبوة د. كمال محمد عيسى ، دار الشرق جدة ، ط الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م .

٨- التربية فى الإسلام د. أحمد فؤاد الأهوانى . ط دار المعارف ، مصر .

٩- أضواء على النظم والثقافة الإسلامية ؟

١٠- الإسلام والتغيير الثقافى محاضرة القاها د. أحمد أحمد عبد الرحيم إبراهيم الأستاذ المساعد بكلية الشريعة الرياض ، قسم الثقافة الإسلامية ١٤٠١ هـ .

١١- التبشير والاستعمار : الدكتوران : عمر فروخ ، ومصطفى الخالدى .

١٢- فاكهة البستان : معجم لغوى مختصر من البستان ، للشيخ عبد الله البستانى اللبنانى ، ط الأمير كانيه ، بيروت ، ١٩٣٠ م

١٣- المنجد فى اللغة والأعلام ، دار المشرق بيروت . لبنان ، ط الثلاثون ١٩٦٠ .

١٤- الصحاح فى اللغة والعلوم . معجم وسيط ، الجوهرى ط ، الأولى ١٩٧٥ م .

١٥- الثقافة الإسلامية ، محمد راغب الطباخ بدون تاريخ .

١٦- دراسات فى الثقافة الإسلامية مدخل إلى الدين الإسلامى ، د. أمير عبد العزيز ، ط الأولى ، مكتبة إحياء التراث الإسلامى ، مكة المكرمة .

١٧- لمحات فى الثقافة الإسلامية : عمر عودة الخطيب . مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الحادية عشر ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م .

١٨- الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار ، د. محمد البهى . ط الثامنة ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥ م . مصر .

١٩- ظلام من الغرب ، الشيخ محمد الغزالى ، ط الثالثة ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م . دار الاعتصام .

٢٠- مجلة الوعى الإسلامى ع ٣٣٤٤ سنة ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ . أطفالنا بين مخاطر الاغتراب الثقافى ، وإدمان مشاهدة التلفاز ، مقال د. بركات عبد العزيز محمد .

٢١- علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث : محمد الجوهرى . ط الثالثة ، دار المعارف : ١٩٨٢ مصر .

٢٢- تفسير النسفى. للأمام عبد الله أحمد محمد النسفى، ط الحلبى مصر بدون تاريخ.

٢٣- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، سليمان عمر العجيلى الشافعى الشهير بالجمل ، ط الحلبى مصر . بدون تاريخ .

٢٤- تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن ، ط الشعب .

٢٥- الأدب المفرد للإمام البخارى ، مراجعة وتصحيح محمد هشام البرهانى ١٤٠١ - ١٩٨١ ، مشروع زايد لتحفيظ القرآن الكريم .

٢٦- الخصائص العامة للإسلام ، د. يوسف القرضاوى ، ط مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط السابعة ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

٢٧- غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ، د. يوسف القرضاوى . ط الثامنة ، ط مكتبة وهبة .

٢٨- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبد الباقى .

٢٩- تفسير الحافظ ابن كثير ، ط الكلبى ، بدون تاريخ .

٣٠- الإسلام تشكيل جديد للحضارة ، محمد تقى الدين الأمين .

٣١- تعريف عام بدين الإسلام للشيخ على الطنطاوى ط. الثالثة . ١٤١٠ - ١٩٨٩ دار الوفاء المنصورة .

٣٢- الأصول من علم الأصول ، ط الرابعة ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٣٣- الإمام مالك ، حياته ، وآراؤه وفقهه د. محمود عبد المتجلى خليفة هدية مجلة الأزهر ١٤١٣ هـ .

٣٤- التشريع والفقه فى الإسلام للشيخ مناع القطان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط الثالثة ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م .

٣٥- الموطأ . للامام مالك .

٣٦- النبأ العظيم د. محمد عبد الله دراز ، ط الرابعة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م .

٣٧- التبيان فى أقسام القرآن لابن قيم الجوزية تعليق الشيخ محمد حامد الفقى ، ط دار المعرفة - بيروت - لبنان ، بدون تاريخ .

٣٨- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة للإمام أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الدمشقى الشهير بابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ١٨٤١ م

٣٩- الإسلام هداية وإصلاح ، محمد فريد وجدى ، راجعه وصححه محمد زهرى النجار، ط ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة .

٤٠- من روائع حضارتنا د. مصطفى السباعى ، دار الارشاد بيروت ، ط الثانية ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨ م .

٤١- سنن الترمذى .

٤٢- مستدرك الحاكم .

٤٣- أثر الثقافة الإسلامية للشيخ صادق ابراهيم عرجون ، فى مجلة نور الاسلام عن مشيخة الأزهر العدد ٩ ، ١٠ المجلد الأول ، ١٣٤٩ هـ.

٤٤- ذيل الوسيط فى الأدب العربى ؟

٤٥- صحيح البخارى .

٤٦- أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية ، أحمد الملا ،دار الفكر ، بدون تاريخ .

٤٧- الإسلام الصراط المستقيم ، د. محمد عبدالله دراز وآخرين ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ، ١٩٦٣ م.

٤٨- التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح .

٤٩- إحياء علوم الدين . للإمام أبى حامد الغزالى . ط دار الشعب .

٥٠- المدنية والإسلام ، محمد فريد وجدى .

٥١- دائرة معارف القرن العشرين ، محمد فريد وجدى المجلد السادس .

٥٢- مقدمة ابن خلدون ، ط دار الفكر .. القاهرة .

٥٣- أعلام الفيزياء فى الإسلام ، د. على عبد الله الدفاع ، د. جلال شوقى ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٥٤- أحياء علوم الدين ، لأبى حامد الغزالى ، ط الشعب .

٥٥- المنهزمون ، دراسة للفكر المتخلف والحضارة والمنهارة يوسف العظيم ، دار القلم ، دمشق ، بيروت ، ط الثالثة ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

٥٦- الإسلام منهج حياة د. فيليب ، حتى نقله عن الانجليزية د. عمر فروخ . دار العلم للملايين ط.الأولى ١٩٧٢ .

٥٧- تاريخ الطبرى .

٥٨- سيرة النبى ﷺ لابن هشام .

٥٩- الطبقات الكبرى ، لابن سعد .

٦٠- بلشفة الإسلام ، د. صلاح الدين المنجد ، ط الثانية .

٦١- لورنس العرب على خطى هرتزل ، زهدى الفاتح . دار النفائس، بيروت ، لبنان ، ط الرابعة ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .

٦٢- مدخل إلى القرآن الكريم ، د. محمد عبد الله دراز .

٦٣- مايقال عن الإسلام ، عباس محمد العقاد ، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

٦٤- الإسلام فى عصر العلم ، محمد فريد وجدى ، ط المكتبة التجارية ، ١٣٥٠ هـ ١٩٣٢ م . الجزء الأول .

٦٥- التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى .



الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

إيداع : ٩٥/٥٧٩١
دولى: I. S. B. N. 977- 05- 1377 - 6

كمبيوجرافيك
آرت سنتر
للجمع التصويرى والطباعة المتميزة
امتداد رمسيس ١ - عمارة ١٨ - القاهرة - ت: ٢٦٢٠١٧٦